المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

@ketab_n
Follow Me
1.5.2017

يوسف ابراهيم جبرا

مياه في أعماق المدينة

ثلاثون قصة من روائع الأدب في العالم

ثلاثون قصّة
من روائع الأدب في العالم

مياه في أعماق المدينة

اختارها وترجمها
يوسف ابراهيم جبرا

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

Twitter: @ketab_n

مياه في أعماق المدينة

Twitter: @ketab_n

جميع الحقوق محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون . ساقية الجنزير . ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقيا . موكيالي بيروت . ص.ب ٥٤٦٠/١١ بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٣

Twitter: @ketab_n

كلمة المترجم

اولعت منذ الصغر بقراءة الروايات الطويلة والقصص القصيرة إلى جانب مطالعاتي الأخرى. ومرّت فترات في حياتي شغلت نفسي بترجمة بعض ما استمتعت بقراءته، حتى تراكم لديّ الكثير مما ترجمت، ولو انني لم أنشر منه إلا القليل، ويتألف هذا القليل في معظمه من القصص التي أحببت بوجه خاص.

وقد اخترت القصص الثلاثين التي يحويها هذا الكتاب من عدد أكبر بكثير، وكان همي أن أقدم للقارىء العربي قصصاً شديدة التباين أسلوباً ومحتوى، ولكنها تتقارب في تأكيدها على ما هو مدهش، بل ما هو أحياناً خارق، في تجربة الإنسان مع الحياة، مع روعاتها وغوامضها. ولكل قصة منها في الوقت نفسه قيمتها المطلقة كأثر أدبي دائم الإثارة للمتعة والفضول الذهني، بما فيها من دوافع نفسية هي من شواغل الانسان الأبدية، ومن مبررات صراعه وحلمه الدائمين. وتركت الهمّ الأكاديمي في هذا الميدان لمن هم قادرون عليه. ولذا أرجو ألا يستغرب القارىء اذا لم يرَ نماذج من أعمال بعض من أكبر القصاصين الذين ألف اسماءهم، لأنني واثق من أنه سيجدها في مجاميع أخرى من الترجمات العربية. كما أنني، إذ ضيّقت على نفسي مجال الاختيار، حرصت على ألا أدرج

Twitter: @ketab_n

أكثر من قصة واحدة لكل مؤلف، باستثناء ثلاثة منهم أو أربعة، لشغفي الخاص بهم.

يوسف ابراهيم جبرا

Twitter: @ketab_n

مياه في أعماق المدينة

بقلم: راي برادبري
امريكي (١٩٢٠ -   )

كان الوقت أصيلاً، والمطر يهطل، والقناديل ينعكس ضوؤها على صفحات رمادية، وقد مضى على الاختين فترة طويلة وهما جالستان في غرفة الطعام. احداهما جولييت، تطرز اغطية للموائد، بينما جلست الصغرى، حنة، بهدوء على مقعد النافذة وهي ترنو إلى الخارج، إلى الشارع المعتم والسماء الداكنة.

احتفظت حنة بجبينها ملتصقاً على زجاج النافذة وشفتاها تتحركان. وبعد لحظة طويلة من التفكير قالت: «إني لم أفكر بذاك مطلقاً من قبل.»

وسألت جولييت: «تفكرين بماذا؟»

فقالت حنة: «لقد خطر لي الآن فقط أن هناك في الواقع مدينة تحت مدينة، مدينة ميتة، هنا تماماً. وتحت ارجلنا بالضبط».

وراحت جولييت تدفع بابرتها دخولاً وخروجاً في الثوب الأبيض وقالت: «ابتعدي عن النافذة. لقد فعلت الأمطار فعلها في نفسك».

Twitter: @ketab_n

فقالت حنة: «كلا، أبداً. ألم تفكري في الصهاريج الأرضية من قبل؟ انها منبثة في جميع أرجاء المدينة. وهناك واحد منها في جوف كل شارع. إن بوسعك السير في داخلها بدون أن تصدمي رأسك فيها. وهي تـذهب في كل اتجـاه وفي النهاية تنحدر إلى البحر.» قالت حنة هذا وهي مفتونة بالأمطار وهي تنهمر على الرصيف المبلط هناك في الخارج ثم تختفي في شبكة القضبان من كل زاوية عند تقاطع الخطوط من بعيد، واردفت:

- «ألا تودين العيش في صهريج؟»

- «لا لن أود ذلك!»

- «ولكن ألن يكون في هذا متعـة - أعني، متعة خفيـة جداً؟ تعيشـين في صهريج في باطن الأرض وتختلسين النظر إلى الناس من الشقوق وهم لا يرونك؟ مثلما كنت تلعبين الغمايـة وانت صغيرة ولم يكن أحـد يستطيـع أن يجدك وأنت متوارية في وسطهم طيلة الوقت منزوية ومختبئة، دافئة ومهتاجة. لشد ما يعجبني ذلك! هكذا يجب أن يكون العيش في الصهريج».

فرفعت جولييت نـاظريهـا عن عملها ببطء وقـالت: «أنت اختي وولدت ولادة طبيعية أليس كذلك يا حنة؟ أحياناً، عندما تتكلمين بهذا الأسلوب، أظن أن أمنا وجدتك تحت شجرة في يوم من الأيام وأتت بك إلى البيت وغرستك في أصيص وانبتتك حتى غدوت هكذا. وها أنت لا تتبدلين أبداً».

ولكن حنة لم تجب. ولذا رجعت جولييت إلى ابرتها. ولم يكن هناك ثمـة ألوان في الغرفة ولم تضف أي من الاختين لوناً لها. وبقيت حنة وقـالت: «اظن أنك ستسمينها حلماً، أعني الساعة المنصرمة التي قضيتها هنا وأنا افكر. نعم يـا جولييت، لقد كانت حلماً».

والآن غدا دور جولييت ألا تجيب.

وهمست حنة: «أظن أن كل هذه المياه جعلتني أغفو لفترة ما. ثم أخذت أفكر في الأمطار ومن أين عساها تأتي وإلى أين تذهب وكيف تفيض في الشقوق الصغيرة من أطر البواليع، ثم رحت أفكـر في أعماقهـا، وفجأة تـراءى لي هناك

Twitter: @ketab_n

رجل . . . وامرأة . في ذلك الصهريج تحت الطريق» .

وسألت جولييت : «وماذا ترى يفعلان هناك؟» .

فقالت حنة : «أمن الضروري أن يكون لديهما سبب لذلك؟»

فقالت جولييت : «لا ، ليس ذلك من الضروري إذا كانا معتوهين . كلا . ففي تلك الحالة تكون الأسباب غير ضرورية . انهما في صهريجهما ، وليبقيا فيه!» .

وقالت حنة بلهجة العارف ورأسها إلى جانب وعيناها تتحركان تحت جفنين شبه مغمضين : «ولكنهما ليسا في الصهريج وحسب . كلا ، بل هما عاشقان أيضاً . » .

فقالت جولييت : «عجيب! . وهل دفعهما العشق إلى التوغل إلى تلك الأعماق؟» .

فقالت حنة : «كلا ، بل انقضت عليهما سنوات وسنوات وهما هناك . » .

وقالت جولييت محتجة : «بربك لا تقولي انهما صرفا هذه السنين كلها هناك يعيشان سوية» .

وسألت حنة بدهشة : «وهل قلت انهما على قيد الحياة؟ كلا ، ليس الأمر كذلك . انهما ميتان» .

وتدفقت الأمطار في كريات صغيرة صاخبة تنقر زجاج النافذة وتسيل عليه . فكانت القطرات تسقط وتنضم إلى اخواتها وتؤلف خيوطاً من الماء .

وهتفت جولييت : «آه» .

قالت حنة : «نعم . ميتان . هو ميت وهي ميتة» . وبدا كأنما هذا قد اشبع رغبتها . لقد كان اكتشافاً بديعاً ، وكانت فخورة به . وتابعت : «يبدو على الرجل انه كان رجلاً وحيداً لم يحظ بنعمة سفرة واحدة طيلة حياته» .

ـ «كيف تعرفين ذلك؟»

ـ «انه يشبه ذلك الصنف من الرجال الذين يشتاقون إلى السفر ولكنهم

Twitter: @ketab_n

يحرمون منه. إنك تعرفين ذلك من عينيه».

- «اتعرفين شكله إذن؟»

-«نعم. مريض جداً، ووسيم جداً. تعرفين كيف يكون الرجل وسيماً بفعل المرض؟ المرض يبرز عظام الوجه».

وسألت الأخت الكبرى: «وهو ميت؟».

- «منذ خمس سنوات». وتكلمت حنة بنعومة وجفناها يرمشان صاعدين نازلين وكأنها على وشك قص حكاية طويلة تعرفها وترغب في سردها ببطء، ومن ثم بسرعة متزايدة إلى أن يجرفها تيار القصة وزخمها وهي واسعة العينين منفرجة الشفتين. ولكنها كانت الآن بطيئة سوى أن سردها كان مشوباً بحمى طفيفة: «منذ خمس سنوات خلت كان هذا الرجل يسير مرة في الشارع وهو يعلم أنه سار في هذا الشارع ليالي كثيرة وسيظل يمشي فيه. وهكذا صادف مرة غطاء «مصرف» حديدياً كبيراً في طريقه في منتصف الشارع، وسمع دوي النهر يجري صاخباً تحت قدميه، تحت الغطاء المعدني، ويتدفق نحو البحر.» ومدت حنة يدها اليمنى وتابعت: «فانحنى ببطء ورفع غطاء الصهريج ونظر إلى المياه المندفعة والزبد يعلوها وفكر في شخص رغب في حبه ولكنه لم يستطع وصاله. ثم تأرجح بين القضبان الحديدية ونزل، ونزل، إلى أن تلاشى كلياً...»

وسألت جولييت وهي منهمكة في عملها: «ولكن ماذا جرى في أمرها هي؟ وهل هي ميتة؟»

- «لست متأكدة. إن موتها حديث. ماتت للتو الآن. ولكنها ميتة على كل حال. ميتة بجمال».

وأعجبت حنة بالصورة التي كونتها في خيالها، وتابعت: «يبقى على الموت أن يجعل من المرأة امرأة جميلة حقاً. وعليه أن يأتي عليها غرقاً كي يجعلها أجمل النساء قاطبة، بالغرق يتلاشى منها الجمود ويطوف شعرها على الماء كنفحة من دخان».

Twitter: @ketab_n

وأومـات برأسهـا منسرحـة الخيـال: «إن جميـع المـدارس وآداب السلوك وتعاليم العالم بأسره لا يسعها أن تجعل امرأة تتحرك بهذه السهولة الحالمة، لدنة، رقراقة، ناعمة». وحاولت حنة أن تظهر النعومة والرقرقة والرشاقة بيدها المنبسطة الخشنة.

«انتظرها خمس سنوات، ولكنها لم تعرف مكانه حتى الآن. وها هما هناك، وسيبقيان هناك بعد اليوم... وسيحييان في الفصل الماطر. ولكن في الفصـول الجـافة ـ التي قـد تبقى شهوراً ـ سيحصـلان على فتـرات طويلة من الـراحـة، وسيقبعان في فجوات خفية كتلك الأزهار اليابانية المائيـة، ملتصقين بـرشاقـة، جافين هادئين».

نهضت جولييت واضاءت قنديلاً صغيراً آخر في الزاوية من غرفة الطعام، وقالت: «ليتك تكفين عن هذا الكلام!».

وضحكت حنة وأجابت: «ولكن دعيني اخبـرك كيف تبتدىء الحكـاية، وكيف يرجعان إلى الحياة. إنها مؤلفة لدي، جاهزة».

وانحنت إلى الأمام وطوقت ركبتيها وهي تحملق في الشارع والأمطار وأفواه الصهـاريج، وتـابعت: «ها همـا هناك تحت، جـافان هـادئان. ومن فـوق، في الأعالي، تتكهرب السماء...» ورمت بشعرها الباهت الذي وخطه الشيب بيد واحـدة إلى الوراء. «العـالم العلوي في البدايـة كله كريـات، ثم يلتمع البـرق ويقصف الرعد وينتهي الفصل الجاف، فتتدحرج القطرات الصغيرة في المجاري وتنساب، ثم تغدو سيـلاً ضخماً ينصب في المصـارف، آخذاً معـه لفافـات من الأوراق اللزجة وتذاكر المسارح والباصات».

فهتفت جولييت: «والآن تعالي ابتعدي عن تلك النافذة».

ورسمت حنة بيديها شكلاً مربعاً وقالت: «إني أعرف تماماً شكل الصهريج الكبير المربع في باطن الشارع المبلط. انه ضخم، وهو فارغ من جراء الأسابيع العجفـاء إلا من نور الشمس، والصـدى يتجاوب في أرجـائه إذا مـا تكلمت. والصوت الوحيد الذي تستطيعين سماعه وأنت واقفة هناك في أسفله هو صوت

Twitter: @ketab_n

سيارة مارة من فوق، صوت بعيد آت من العلي. والصهريج بأكمله أشبه ما يكون بعظم جمل خاو ملقى في الصحراء».

ورفعت يدها مشيرة. كأنما كانت هي نفسها في قعر الصهريج تنتظر. «قطرة صغيرة تنزّ ثم تسقط على أرضه. كأنما هنالك جريح ينزف دمه في العالم الخارجي من فوق. ثم يقصف الرعد! أم انه صوت سيارة شحن مارة؟».

جعلت تسرع في الكلام، ولكنها احتفظت بجسمها مرتخياً على النافذة وراحت تنفث الكلمات: «ينز الصهريج إلى أسفل، ثم يظهر النزيز في جميع الفجوات الأخرى، ويغدو ليات صغيرة وحبات من الماء الملونة بعصارة التبغ، تتحرك وتندمج بالآخرين، ثم تنقلب الحبات إلى عصب كبير يتدحرج على الأرض المنبسطة الورقية. وتأتي جداول أخرى من كل فج، من الشمال والجنوب، ومن الشوارع البعيدة وينضم بعضها إلى بعض وتصبح لغة واحدة براقة تفح. وتتلوى المياه وتعج في تينك الفجوتين الصغيرتين الجافتين اللتين اخبرتك عنهما، وترتفع رويداً رويداً حول الرجل والمرأة القابعين هناك كزهرتين يابانيتين».

وضمت يديها بتؤدة وشبكت أصابعها بعضها ببعض على شكل ضفيرة وتابعت: «وتنقعهما المياه وتخترقهما، فترتفع يد المرأة أولاً، في حركة صغيرة ويدها هي الجزء الوحيد الحي فيها. ثم ترتفع ذراعها ورجل واحدة. وشعرها. . .» ولمست شعرها الذي تهدل على كتفيها. « . . ينحل وينتشر كزهرة على المياه. وجفناها المغلقان ازرقان. . .».

أخذت الظلمة تغزو الغرفة، وجولييت ما انفكت تخيط. لقد بقيت حنة تتكلم، فحكت كل ما رأته في عين خيالها. وحكت كيف علت المياه وأخذت المرأة معها، وكيف بسطتها المياه وألانتها، ثم أوقفتها بقامتها الكاملة في الصهريج. «والمياه مولعة بالمرأة ولذا فانها تتركها السجيتها. وبعد زمن طويل من السكون تغدو المرأة على استعداد لتحيا ثانية، مهما كان نوع الحياة التي تشاء المياه أن تعطيها لها».

Twitter: @ketab_n

وفي مكان آخر وقف الرجل أيضـاً في المياه وحكت حنـة عن ذلك وكيف حملته المياه ببطء، منجرفاً عائماً، وهي كذلك منجرفة عائمة، إلى ان التقى كل منهما بالآخر. «وتفتح المياه أعينهما، ويستـطيعان الـرؤية الآن ولكن ليس رؤيـة الواحد منهما للآخر. إنهما يحومان في دائرة ولكن لم يتلامسا بعد». وقامت حنـة بحركة صغيرة برأسها، وعيناها مغمضتان. «وينـظر الواحـد منهما إلى الآخـر، ويتوهجان بنوع من الفسفور. ويبتسمان. . . وتتلامس الأيدي».

وأخيـراً تركت جـولييت خياطتهـا بعد أن تصلبت اعضـاؤها وحملقت في اختهـا عبر الغـرفة الـرماديـة الساكنـة إلا من صوت هـطول الأمطار وهتفت: «حنة!».

«ويجعلهما المدّ يتلامسان. إنه يأتي ويضمهما معاً. وهذا نوع من الحب بلغ الكمال، لا اثرة فيه ولا أنانية. جسمان فقط، حركتهما المياه فجعلت حبهما نقيا طاهراً، لا خبث فيه».

وصاحت اختها: «ألا تستحيين من هذا القول؟»

فأصرت حنة قائلة: «وهما لا يفكران، أليس كذلك؟ وهما في قرارة تلك الأعماق هادئان لا يباليان».

وجعلت يدها اليمنى على يدها اليسرى ببطء ورفق ثم راحت تحبكهما في الهواء وهما ترتعشان. واخترق ضوء الربيع الباهت النافذة الغارقة بالأمطار وسقط خيال حركة مياه جارية على أصابعها جعلها تبدو كأنها غارقة في مياه شهباء عميقة تلتف حول بعضها البعض، ثم راحت تنهي حكاية حلمها الصغيرة:

«الرجل طويل وهـادىء. ويداه مفتـوحتان. . . والمـرأة صغيرة وهـادئة، ومسترخية».والقت نظرة على اختهـا.«إنهما ميتان، ولامكـان آخر لـديهماللذهـاب إليه، وما من أحد يدلّهما. ولذا فهما هناك. إنهما خاليان من الهمـوم، في منتهى الكتمـان، مختفيان تحت الأرض في ميـاه الصهريـج. إنهما يتلامسـان بـأيـديـهما وشفاههما وعندما ينزلقان في المجرى المتقاطع من منفذ الصهريج يقذف بهما التيار معاً. وبعدئذ. . .» وفكت يديها المتشابكتين. . . «لربما يسافران معاً أيضاً، يداً

Twitter: @ketab_n

بيد، يتراقصان عائمان نزلا في الشوارع كلها، ويقومان برقصات عمودية حمقاء كلما وقعا في دوامة على حين غرة.» وقامت بيديها بحركات دائرية سريعة واكتست النافذة بدفقة عارمة من الأمطار. «وينساب الاثنان طافيين إلى البحر، عبر المدينة كلها، قاطعين كل الشعاب المتعاكسة في المجاري، يذهبان إلى كل مكان تريده جميع أنحاء الأرض، تحت اثني عشر حانوتاً من حوانيت التبغ، وثمانية وأربعين من حوانيت المشروبات الروحية واثنين وسبعين من حوانيت البقالة، وعشرة مسارح، وتحت أرجل ثلاثين ألفاً من البشر الذين يسيرون ولا يعلمون أو يفكرون بالصهريج».

وانساب صوت حنة حالماً، ثم هدأ مرة أخرى.

«وبعدئذ يمر النهار ويصمت الرعد في الشارع من فوق. ويتوقف المطر. وينتهي فصل الأمطار. وتتساقط قطرات النزيز في الانفاق ثم تجف. ويهبط المد». وبدت خائبة حزينة لذلك. «ويجري النهر إلى البحر. ويشعر الرجل والمرأة بهجر المياه لهما إذ تدعهما يهبطان شيئاً فشيئاً إلى الأرض، ثم يستقران». وخفضت يديها بحركات تدريجية صغيرة إلى حضنها وهي ترمقهما بثبات. وتفقد ارجلهما الحياة التي اعطتها لهما المياه من الخارج، ثم تطرحهما المياه أرضاً جنباً إلى جنب وتختفي، وتجف الانفاق، ويمكثان هناك مضطجعين. وتشرق الشمس على العالم العلوي من فوق بينما يضطجعان هناك في الظلام نائمين حتى المرة القادمة إلى أن تهطل الأمطار».

وكانت يداها الآن فوق حضنها والراحتان مفتوحتان وتمتمت: «رجل لطيف، وامرأة لطيفة». وحنت رأسها فوق راحتيها وأغمضت عينيها بشدة.

وبغتة استوت حنة في جلستها وحملقت في اختها وصاحت بمرارة: «هل تعرفين الرجل من يكون؟»

ولم تجب جولييت. كانت تنتظر مشدوهة طيلة الدقائق الخمس الماضية وهي تصغي إلى اختها، وفمها مُلْتوٍ شاحب، وكادت حنة تزعق وهي تقول:

«الرجل هو فرانك، ذاك هو بعينه! وأنا المرأة!»

Twitter: @ketab_n

«حنة!»

«نعم. إنه فرانك، هناك تحت!»

«ولكن فرانك قضى منذ عدة سنوات. وبالتأكيد انه ليس هناك يا حنة!»

والآن لم تكن حنة تتحدث إلى انسان معين، بل كانت تتحدث إلى كل انسان. تتحدث إلى جولييت وإلى النافذة والحائط والشارع. وصاحت: «مسكين فرانك، أنا أعلم أين ذهب. إنه لم يستطع البقاء في أي مكان من العالم. لقد أفسدته أمه حتى لم يعد يصلح لأي شيء في الدنيا! ولذا فانه رأى الصهريج ورأى انه مكان كتوم رائع. آه يا فرانك، يا مسكين! ويا لك يا حنة من مسكينة. آه يا جولييت لماذا لم أمسك بتلابيب فرانك عندما كان هناك؟ لماذا لم أكافح حتى أكسبه من أمه؟»

«كفى يا حنة، اسكتي! اتسمعين، اسكتي! وانهارت حنة في الزاوية بجوار النافذة بينما بقيت يدها مرتفعة على زجاجها، وراحت تبكي بصمت. وبعد دقائق قليلة تناهى إلى سمعها صوت اختها يقول: «هل اتممت حكايتك؟».

«ماذا؟»

«إذا كنت قد أتممت، تعالي وساعديني في اكمال هذا. يبدو لي انه لن يكمل أبداً».

ورفعت حنة رأسها ثم انسلت إلى جوار أختها وقالت: «ماذا تريدينني أن أفعل؟». وتنهدت.

فقالت جولييت وهي تريها: «هذا، وهذا».

فقالت حنة: «حسناً». وأخذت ترمق الأمطار وهي تحرك يديها بالإبرة والخيط ملاحظة كيف امسى الشارع مظلماً وبات من العسير رؤية غطاء الصهريج المعدني المستدير، ولم يكن هناك سوى ومضات طفيفة في ذلك الوقت المتأخر من الأمسية الدامسة الظلماء، والبرق يتفرقع في السماء على شكل نسيج عنكبوت.

Twitter: @ketab_n

مر نصف ساعة. ونعست جولييت في كرسيها، فنزعت نظارتها الزجاجية عن عينيها ووضعتها جانباً مع شغلها، ثم اسندت رأسها إلى الوراء ووسنت للحظة. ولربما كان بعد ثلاثين ثانية أن سمعت الباب الأمامي يفتح بعنف، والريح تعصف إلى الداخل. ثم سمعت وقع خطى تعدو نازلة الممر وتنعطف ثم تسرع طوال الشارع الحالك السواد.

وسألت جولييت مستيقظة وهي تبحث عن نظارتها: «ماذا؟ من هناك؟ هل دخل أحد من الباب يا حنة؟» وحملقت في مقعد النافذة الفارغ حيث كانت اختها جالسة، وصاحت: «حنة!»ثم قفزت من مكانها وراحت تعدو نحو القاعة.

كان الباب الأمامي مفتوحاً والمطر يتساقط من خلاله ضبابياً ناعماً.

ووقفت جولييت هناك تمعن النظر في الظلمة البليلة وقالت: «لقد خرجت لبرهة وسترجع حالاً». ثم راحت تهتف: «ألن ترجعي سريعاً يا عزيزتي؟ اجيبيني يا حنة انك عائدة! حالاً، أليس كذلك يا اختاه؟».

وعلا غطاء الصهريج في الخارج ثم انصفق.

وراحت الأمطار توشوش على صفحة الشارع وانهمرت على الغطاء المغلق طيلة ما تبقى من ذلك الليل.

Twitter: @ketab_n

قارع الأجراس

بقلم: فلاديمير كورولنكو
روسي (١٨٥٣ - ١٩٢١)

كان المساء قد بدأ يظلم. وكانت القرية الصغيرة الواقعة قرب الجدول البعيد في غابة من الصنوبر قد برزت في ذلك الغسق الخاص بليالي الربيع الملأى بالنجوم، إذ زاد الضباب، وهو منبعث من الأرض، ظلال الأحراج قتاماً، وملأ الثغرات بغمام فضي أزرق. . . كان كل شيء ساكناً متأملاً، والقرية هاجعة في هدوء.

كانت رسوم الأكواخ التسعة داكنة تكاد لا ترى، تشع الأنوار هنا وهناك، وبين الفينة والفينة يسمع صرير بوابة، أو فجأة ينبح كلب ثم يسكت. ومن حين لحين كان يخرج من الغابة الهامسة من وسط الظلام شبح عابر سبيل أو فارس، أو عربة تجتاز مطرطقة. انهم سكان قرى الغابة الموحشة ذاهبون إلى كنيستهم لإحياء عيد الربيع العظيم.

كانت الكنيسة على رابية جميلة في منتصف القرية. والجرسية القديمة عالية ظلماء.

وكان صرير أدراج الجرسية يرتفع كلما صعد عليها ميخايتش قارع الأجراس الهرم وفانوسه يتأرجح في الهواء كنجمة متألقة.

Twitter: @ketab_n

كان من الصعب على الشيخ العجوز أن يتسلق الأدراج. لم تخدمه ساقاه على ما يرام وعيناه قد اصابهما الكلال. . . إن شيخاً هرماً مثله كان يجب أن يأخذ راحته منذ زمن، ولكن الله عز وجل لم يشأ له ذلك. لقد دفن أولاده وأحفاده. ورافق كثيراً من الشيوخ والشباب إلى مثواهم الأخير وهو لا يزال حياً. كانت العيشة شاقة. وقد حيا عيد الربيع مراراً وتكراراً حتى لم يعد يستطيع أن يتذكر كم مرة انتظر الساعة المعينة على تلك الجرسية. والآن لقد شاء له سبحانه وتعالى ان ينتظر مرة أخرى.

ذهب الشيخ إلى فتحة في القبة واتكأ على الحاجز فرأى في الظلمة المحيطة بالكنيسة مقبرة القرية حيث تترامى الصلبان العتيقة بأذرعها المبسوطة، وكأنها تبسط حمايتها على القبور المهملة، وقد انحنت فوقها أغصان بضع أشجار عارية ـ هنا وهناك. وهبت مع النسيم رائحة براعم عطرة إلى ميخايتش حاملة بين ثناياها شعوراً من الكآبة توحيه النومة الأبدية.

ترى ماذا سيحل به بعد سنة؟ أسيتسلق مرة أخرى هذا العلو الشاهق تحت الجرس النحاسي، ليوقظ الليل الناعس برناته الصافية، أم سيكون ملقى هناك في زاوية مظلمة من المقبرة وعلى صدره صليب؟

هتف صوت مرتعش، صوت خادم الكنيسة العجوز منادياً «ميخايتش يا ميخايتش» ورفع نظارته إلى أعلى الجرسية مغطياً عينيه الملأى بدموع الكبر بيديه المرتعشتين. فأجابه قارع الأجراس «ها هو ذا أنا. ماذا تريد؟» وأسقط نظراته من قمة الجرسية واردف «ألا تراني؟»

«لا. لا أستطيع. اظن ان الوقت قد حان لقرع الجرس، ماذا تقول؟» ونظر كلاهما إلى النجوم: ربوات من قناديل الله مضاءة في الفضاء. وتأمل ميخايتش قليلاً ثم قال «لا لم يحن الوقت بعد. . . اني اعرف تماماً. . .»

كان يعرف حقاً. لم يكن في حاجة إلى ساعة، فإن نجوم الله كافية. . . السماء والأرض، والسحابة البيضاء المنسابة بلطف على صفحة السماء، والغابة الحالكة الهامسة، وحتى تجعد مياه الجدول في الظلام، كلها معروفة لديه. . . إنها قطعة من نفسه.

Twitter: @ketab_n

نهض الماضي البعيد متجسماً. وتذكر كيف صعد هذه الجرسية لأول مرة مع والده. يا الله، ما أبعد ذلك الزمان، ولكن ما أقربه أيضاً. . . رأى نفسه شاباً أشقر بعيون متوقدة، والريح ـ لا الريح التي تثير الغبار في الطرقات بل الريح التي تصفق بجناحيها الصامتين ـ تشعث شعره. . . تراءت له أكواخ القرية ضئيلة، وتباعدت عنه الغابة وبدت الساحة التي بنيت عليها القرية هائلة الاتساع لا نهاية لها.

ابتسم العجوز الأشيب عندما نظر إلى تلك الفسحة الصغيرة وهز رأسه. . . تلك كانت طريقه إلى الحياة، والشاب لا يرى طرفها الآخر. والآن ها هي ذي كأنما وضعت على كفه من أولها حتى تلك الزاوية البعيدة التي خيل إليه بأنها ستكون مقره الأخير. . . ومهما يكن الأمر فالمجد لله! لقد حمل وقر الحياة بشرف وآن وقت الراحة. وخيل إليه كأنما الأرض الرطبة أمه تناديه. . . قريباً، قريباً جداً.

حان الوقت ونظر ميخايتش مرة ثانية إلى النجوم. ثم نزع قبعته ورسم اشارة الصليب. وقبض على حبال الأجراس. وفي لحظة جاوب هواء الليل صدى قرعة داوية، ثم أخرى، فثالثة، فرابعة. . . الواحدة تلو الأخرى مالئة ذلك المساء الهادىء بأنغام صاخبة فرحة.

وقف الجرس. وابتدأت الحفلة الدينية. وكان من عادة ميخايتش في السابق ان ينزل من الجرسية بعد قرع النواقيس ليقف في زاوية بجانب الباب لكي يصلي ويسمع التراتيل. وكانت هذه اول مرة خالف فيها عادته ومكث في الجرسية. خيل إليه أن الأدراج عديدة. وشعر بتعب كلي. فما كاد أن يقعد مكانه حتى اجتذبته أصوات الأجراس النحاسية المتلاشية في الفضاء وراح يفكر في ذهول. بماذا؟ لم يعرف. . . كانت القبة مظلمة وفانوسه يرسل ضوءاً باهتاً في ثناياها. ولم يزل الرنين متشبثاً بالأجراس المغمورة في الظلام. وبين حين وحين تصل إلى مسامعه من الكنيسة تمتمة ضئيلة من التراتيل. حركت رياح الليل الحبال الموصولة بألسنة الأجراس. وسقط رأس الشيخ على صدره مضطرب الفكر وقال «ها هم يرتلون» وتصور نفسه في الكنيسة يصغي إلى جوق من الأولاد، ورأى الأب نعوم الذي توفي منذ زمن قائماً بحفلة الصلاة، ومئات من رؤوس الفلاحين تسجد وتنتصب كسنابل القمح الناضجة في مهب الريح. . . ورسم الفلاحون إشارة الصليب. . . لقد رأى وجه أبيه الصارم،

Twitter: @ketab_n

ورأى أخاه يصلي بحماس. ووقف هو أيضاً مزهـواً بفتوتـه، مليئاً بـأمل لا واعٍ من السعادة... أين كانت تلك السعـادة؟... توقـدت أفكار العجـوز لحظة وومضت بصور من حياته الماضية...

رأى بعين خياله أعمالاً شاقة وأحزاناً وهموماً... أين كانت السعادة؟ إن حفنة واحدة من المصاعب لتغضن الوجه الصبوح وتحني الظهر القوي.

هناك على الشمال وقفـت حبيبتـه بين نساء القرية ورأسها محني بخشوع. يا لها من امرأة طيبة، فليكن مثواها النعيم! لكم قاست تلك المرأة المسكينة. عمل شاق وفقـر دائم. إن الأحزان التي لا مفـر منها في حيـاة المرأة ستـذوي جمالهـا، وعينـاهـا سيفقدان بريقهما، وسوف يجثم على وجهها محل الوداعة خوف دائم من مصائب غير منتظرة...

لقد مر كل ذلك ولفه الماضي بين طياته. كانت الدنيا كلها لديه الآن محصورة في قبة الأجراس هذه، حيث تندب الرياح في الظلام فتحرك الحبال.

وبغتة سمع شخصـاً يصرخ: «ميخـايتش يا ميخـايتش هل نمت فـوق؟» فرد العجوز ناهضاً على قدميه «ماذا؟ بالله! أصحيح انني نمت؟ لم يحدث شيء كهذا من قبل». وبيد سريعة خبيرة قبض على الحبال.

وكان حشد الفلاحين يعج في فناء الكنيسة كالنمل، والأعلام الموشاة بالذهب تختال في الهواء... دار المحتفلون دورة حول الكنيسة وسمع ميخايتش الهتـاف «قام المسيح من الأموات!» فجاوب قلب العجوز بحرارة هذا الصراخ... وخيل إليه أن الشموع تشتعل أكثر بهاء، وان الجموع أكثر حماسة، وكأنما الأعلام داخلتها الحياة. لقد جمعت الريح أمواج الأصـوات وحلقت بها في الفضـاء لتمتزج بـرنين الأجـراس الداوية.

لم يدق العجوز الأجراس قط كهذا من قبل، وكأنما قد انتقـل قلب الشيخ إلى النحـاس الجمـاد فغنت الأجـراس، وضحكت، وصعـدت ضحكـاتهـا إلى ربـوات النجوم، ثم انسكبت على الأرض فياضة مرتعشة.

وتراءت الجرسية القديمة كأنها تنتفض وتهتز. وصفقت الريـح بجناحيهـا على

Twitter: @ketab_n

وجه قارع الأجراس العجوز وكررت «قام المسيح!»

نسي القلب الهرم حياته الملأى بالهموم. نسي قارع الأجراس أن حياته محصورة في هذه القبة الموحشة، وانه وحيد في الحياة كجذع شجرة قديم قصفته العواصف... لقد سمع أناشيد المرتلين وهي تعلو إلى السماء ثم تسقط ثانية على أرض الأحزان، وخيل إليه أنه محاط بأبنائه وأحفاده، وأنه يسمع أصواتهم، أصوات الشباب تمازج أصوات الشيوخ، كجوق يرتل عن السعادة والفرح اللذين لم يعرفهما في حياته... سحب الحبال، وسالت الدموع على خديه، وجعل قلبه يخفق بشدة، إذ تراءت له السعادة أخيراً.

اصغىْ الناس إلى النواقيس، وقال كل لصاحبه «لم اسمع ميخايتش العجوز يدق ببراعة كهذه من قبل!»

وفجأة رن الجرس الكبير بصوت متلجلج ثم صمت. ودقت الأجراس الصغيرة بتقطع ثم سكنت خجلى، لتصغي إلى الصدى الهائل الخفاق وهو يموت تدريجياً في الهواء.

سقط قارع الأجراس على المقعد، وتدحرجت دمعتان كبيرتان على خديه الشاحبين. «اسمعوا أيها الناس، اصعدوا شخصاً آخر. لقد دق قارع الأجراس دقته الأخيرة».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجرح الخفيّ

بقلم: كارولي كسفلودي
مجري (١٨٩٠- ١٩٥٤)

في الصباح المبكر والطبيب الجراح ما زال في فراشه، خابره خادمه بالهاتف قائلاً: إن هنالك زائراً مستعجلاً يلح على أن حالته خطرة ولا يمكن تأخيره دقيقة واحدة. فسارع الطبيب إلى لبس ثيابه، ثم قرع الجرس مشيراً إلى خادمه بادخال المريض.

كان الداخل رجلاً يظهر عليه من أول وهلة انه ينتمي إلى خير الطبقات الاجتماعية. كانت يده اليمنى معلقة في رباط عنقه. ووجهه الشاحب وتصرفاته العصبية تنم عن عذاب جسمي يقاسيه. ومع انه كان يسيطر على قسمات وجهه كانت آهة من الألم تنطلق من بين شفتيه بين حين وآخر.

ـ تفضل اجلس، ماذا استطيع أن أفعل من أجلك؟

ـ لم اذق النوم اسبوعاً كاملاً. إن يدي اليمنى ليست على ما يرام، ولا أعرف ما الذي أصابها. قد يكون سرطاناً، أو مرضاً آخر رهيباً. لم تزعجني في البداية ولكن حالتها مؤخراً ساءت كثيراً وأصبحت وكأنها تحترق. إنها تؤلمني ألماً يشتد ساعة بعد ساعة حتى بلغ حداً لا يطاق. ولهذا أتيت لاستشارتك. إذا تحملته ساعة أخرى فإني

Twitter: @ketab_n

صائر إلى الجنون لا محالة. إني أطلب منك أن تحرق موضع الألم، أو أن تقطعه. افعل أي شيء ترتأيه.

فطمأنه الجراح بأنه قد لا يحتاج إلى عملية جراحية.

غير أن الزائر ألح: «لا، لا. يجب أن تجري عملية جراحية لأنني أتيت خصيصاً لقطع الموضع الممروض، ولن يسعفني شيء آخر». ثم سحب يده من الرباط بمشقة زائدة وتابع:

«أرجوك لا تندهش إذا لم ترَ على يدي أثر جرح ظاهر. إن قضيتي غير عادية أبداً».

فأكد له الطبيب انه ليس من الذين يدهشون في الأحوال غير الاعتيادية ولكن بعد أن فحص يده جيداً، اسقطها باستغراب كبير. لم يرَ فيها أي شيء بتاتاً، ولم يكن لونها متغيراً. لقد كانت كأي يد عادية أخرى. ولكن، مع كل هذا، كان من الظاهر أن الرجل يقاسي ألماً هائلاً، والطريقة التي أمسك بها يده اليمنى بيده اليسرى عندما اسقطها الطبيب كانت برهاناً على هذه الحقيقة.

قال الطبيب: «أين يؤلمك؟»

فأشار المريض إلى بقعة مستديرة بين العرقين الكبيرين، ولكنه خطف يده بسرعة عندما لمس الطبيب موضعها بحذر بطرف اصبعه.

ـ هل هنا موضع ألمك؟

ـ نعم. انه ألم شديد.

ـ هل تشعر بالضغط عندما اضع اصبعي عليها؟

فلم يستطع انرجل الكلام، ولكن الدموع التي اغرورقت بها عيناه أفصحت عن الجواب. فأخذ الطبيب مجهراً وفحصها مرة أخرى بعناية فائقة، ثم قاس حرارته، وفي النهاية هز رأسه وقال:

«إن الجلد في حالة صحية تامة. والعروق طبيعية ولا التهاب هناك ولا انتفاخ. إن يدك طبيعية كأية يد متعافية».

Twitter: @ketab_n

ـ اظن أن موضع الألم أكثر احمراراً قليلاً.

ـ اين؟

فرسم المريض دائرة على ظهر يده في حجم الفلس وقال: «هنا».

فنظر الطبيب إلى الرجل وجعل يتساءل لعل مريضه ذاك معتوه. ثم قال له: «عليك أن تمكث في المدينة وسأحاول أن أفعل شيئاً لمساعدتك في الأيام القليلة القادمة».

ـ لا أستطيع الانتظار لحظة واحدة. ولا تفكر يا حضرة الطبيب باني مختل أو أسير وهم من الأوهام. إن هذا الجرح الخفي يؤلمني بشدة، وإني أطلب منك أن تقطع هذا الموضع المستدير عميقاً حتى العظم.

ـ لن أفعل ذلك يا سيدي، لأنني لا أرى عطباً في يدك.

ـ فقال المريض: «يظهر انك تظنني من المجاذيب، أو انني اخدعك... ثم أخرج من محفظته مبلغاً ضخماً من المال ووضعه على المكتبة، وتابع كلامه: «هل انت ترى ان قضيتي خطيرة، حتى انني ادفع راضياً مبلغ ألف من الدراهم لإجراء العملية. ارجوك ان تقوم بها...».

ـ لو دفعت لي جميع أموال الدنيا لن أمس عضواً صحيحاً بمبضعي، لأن ذلك مخالف لمبادىء المهنة. فسوف يدعوك الناس أحمق، ويتهمونني بانني غررت بك واستفدت من ضعفك، أو سيفضحونني بأنني لم استطع تشخيص جرح لا وجود له».

ـ حسناً يا سيدي. أرجو أن تسدي لي معروفاً غير هذا. أنا سأقوم بإجراء العملية بنفسي، مع ان يدي اليسرى أضعف من أن تقوم بعمل كهذا. فكل ما أطلبه منك هو أن تعتني بالجرح بعد أن أقوم بالعملية.

فرأى الطبيب والدهشة تمتلكه أن الرجل كان جاداً فيما قاله. إذ رآه ينزع معطفه ويرفع أكمام قميصه، وبعد هذا أخرج سكينه الصغيرة من جيبه، وقبل أن يستطيع الطبيب الاعتراض أحدث جرحاً عميقاً في يده.

فصاح الطبيب: «قف! ان كنت ترى أن العملية ضرورية فسأجريها أنا».

Twitter: @ketab_n

ثم أمسك بيده وأشار عليه بأن يدير وجهه جانباً لأن المرءعادة يفـزع من رؤية دمه. فقال الزائر: «كلا يا سيدي. يتحتم علي أن أقود يدك في إجـراء العملية لكي تعرف أين وكيف تبضع اللحم».

تحمل الرجل العملية بشجاعة نادرة، فلم ترتعش يده قط. ولما قطعت البقعة المستديرة من على ظهر يده تنهد بارتياح وشعر بالفرج كأنما أزيح حمل ثقيل عن كاهله.

قال الطبيب: «ألا تشعر بأي ألم الآن؟»

فابتسم الزائر وقال: «مطلقاً، كأنما قد اجتثت من الجذور، وما الوجع الطفيف الـذي سببه التبضيـع إلا كنسـمة هـواء باردة بعـد نار محـرقة. دع الـدم يسيل. إنـه يريحني».

وبعد أن ضمد الطبيب الجرح لاح على الرجل أنه قانع وسعيـد. لقد أصبـح رجلاً آخر. فضغط بيسراه على يد الطبيب بامتنان وقال له: «إني في الحق مدين لك بشكر عظيم».

زار الطبيب مريضه في فندقه لعدة أيام بعد إجراء العملية. فعرف كيف يحترم هذا الرجل الذي يشغل منصباً هاماً في الأرياف. وهو ذو ثقـافة عـالية، وينتمي إلى عائلة من أبرز العائلات هناك.

وبعد أن شفي الجرح تماماً رجع الرجل إلى بلدته في الريف. ولكن بعد ثلاثة أسابيع ظهر ثانية في عيادة الطبيب ويده معلقة في الرباط حول عنقه، يشكو نفس الألم في تلك البقعة نفسها التي أجـريت عليها العمليـة. وكان وجهـه شاحبـاً كالشمـع، والعرق البارد يلتمع على جبينه.فجلس، ودون أن ينطق بكلمة واحدة مد يده اليمنى إلى الطبيب ليفحصها.

قال له وهو يئن: «إنك لم تتعمق في تبضيع البقعة، ولذلك عاد الألم ثانية، لا بل عاد أسوأ بكثير مما كان. إنني هالك لا محالة. لم أشأ في البدايـة أن ازعجك مـرة أخرى فتحملت الألم بصبر، ولكنني لم أعد أطيقه أبداً يجب أن تجري العملية ثانية».

ففحص الطبيب مكان البقعة فوجد انها قد اكتست بجلد ناعم جديد وتعافت

Twitter: @ketab_n

تماماً. ومع أن النبض كان عادياً ولم تكن هناك أية حمى، كان الرجل يرتجف في كل عضو من أعضائه.

قال الطبيب: «غريب، اني لم اسمع بشيء كهذا من قبل».

لم يكن بد من إجراء العملية ثانية، فقام بها الطبيب وانتهت كالمرة السابقة، فتوقف الألم حالاً، وشعر المريض بالفرج. غير انه لم يبتسم هذه المرة. شكر الطبيب وهو في حالة من أشد حالات البؤس والتعاسة. وعندما استأذن بالانصراف قال:

«أرجو أن لا تستغرب إذا ما عدت إليك ثانية خلال شهر».

- يجب ألا تفكر فيها.

- انا متأكد من انني راجع اليك. إلى اللقاء.

بحث الطبيب في هذه الحالة مع عدد من زملائه، فأبدى كل منهم رأياً مخالفاً للآخر، ولكن لم يستطع أحد منهم أن يقدم ايضاحاً مقنعاً.

مر شهر ولم يظهر المريض. وبعد انصرام أسابيع أخرى، لم يأت المريض، بل أتت منه رسالة. ففتحها الطبيب فرحاً وهو يظن أن مريضه قد شفي. وراح يقرأ:

«سيدي الطبيب: أنا لا أريد أن اتركك في شك من أمر شقائي ومنشئه. وكذلك لا يهمني أن أحمل سره معي إلى قبري. أنا في أشد الشوق إلى اطلاعك على تاريخ مرضي الهائل. لقد عاد علي ثلاث مرات في هذه الفترة، ولا أريد أن أقاومه بعد الآن. وها أنا اكتب اليك الآن بيدي اليمنى، ولكن بعد أن وضعت على مكان البقعة جمرة نار كترياق مسكن للنار الجهنمية التي تحترق فيها.

«قبل اشهر ستة كنت اسعد رجل في الدنيا. كنت ثرياً وقانعاً، أجد لذة في كل ما ينجذب إليه رجل في الخامسة والثلاثين من عمره. تزوجت قبل سنة بعد حب جارف، وكانت زوجتي فتاة لطيفة مثقفة وفي غاية الجمال، وكانت صديقة لكونتسه لا يبعد قصرها كثيراً عن املاكي. كانت تحبني فمرت علي ستة أشهر وأنا اهنأ ما يكون انسان، وكل يوم يأتيني بسعادة أعظم من سابقه. كانت تسير مسافة أميال على الطريق الملاقي كلما اضطررت للنزول إلى المدينة. وما كانت لتمكث أكثر من بضع ساعات

Twitter: @ketab_n

عند مربيتها التي كانت تتردد عليها أحياناً. ولم تراقص أي رجل سواي. بل إن مجرد ظهور أحد غيري في أحلامها كان عندها جريمة لا تغتفر! وبالاختصار، كانت طفلة جميلة بريئة.

«غير أنني لا أدري ما الذي ساقني إلى الاعتقاد بأن هذا انما هو تظاهر منها. لقد بلغ الانسان في الحماقة ما يجعله يسعى مفتشاً عن الشقاء وهو في أوج سعادته.

«كانت لديها آلة خياطة صغيرة وتحتفظ بدرجها مغلقاً دائماً، فأخذ هذا يعذبني. وقد لاحظت مراراً انها لا تترك المفتاح على الدرج، وانها لا تتركه مفتوحاً أبداً. فما هو هذا الشيء الذي تخبئه عني بهذا الحرص الشديد؟ اخذت الغيرة تنهشني. لم أصدق عينيها البريئتين ولا قبلاتها. ألا يجوز أن يكون كل ذلك خداعاً ومكراً؟

«وفي يوم من الأيام أتت صديقتها الكونتسه، وأغرتها بالذهاب معها لتقضي ذلك اليوم في قصرها، ووعدتها بأني سألحق بهما بعد الظهر.

«وما كادت العربة تتحرك من فناء الدار حتى ابتدأت في معالجة فتح ذلك الدرج، وإذا بأحد المفاتيح التي جربتها يفتحه في النهاية. وبعد أن بعثرت عدة أشياء نسوية من محفظة حريرية وجدت رزمة من الرسائل، يستطيع المرء إدراك ماهيتها من أول نظرة. كانت بالطبع رسائل غرامية مربوطة بشريط قرنفلي.

«لم أقف لأتروى بانه ليس من الشرف أن أفتش عن اسرار زوجتي أيام صباها! ولكن الدافع الذي حثني على الاستمرار هو انها ربما كتبت تلك الرسائل بعد أن حملت اسمي . . . ففككت الشريط وقرأتها بأكملها، الواحدة تلو الأخرى.

«كانت تلك الساعة أرهب ساعة في حياتي.

«لقد كشفت الرسائل عن أعظم خيانة اقترفها انسان ضد انسان! كان كاتبها أعز صديق لدي . . . أما لهجتها . . . فقد كشفت عن إلفة حميمة عميقة، وعبرت عن أرق المشاعر والعواطف. كم كان يحثها على التكتم، ويتهكم على الأزواج المغفلين! ثم يشير عليها بماذا تفعل لكي تخدع زوجها وتتركه في غفلته! لقد كتبت الرسائل كلها بعد زواجنا، وكنت أظن بأنني سعيد! لا أريد أن أصف مشاعري. لقد شربت السم حتى آخر قطرة. طويت الرسائل وارجعتها إلى مخبئها ثانية، ثم أغلقت الدرج.

Twitter: @ketab_n

«كنت أعلم أنني إذا لم أذهب إلى القصر سترجع في المساء. وهذا ما حصل بالفعل. قفزت من العربة بجذل وخفت للقائي في الرواق وهي تقبلني وتحتضنني بمنتهى الرقة، فتظاهرت كأنما لم يحدث أي شيء.

«تحدثنا وتعشينا معاً، ثم ذهبنا إلى الفراش كالعادة، كل إلى غرفته. وكنت في أثناء ذلك قد وطدت العزم على ارتكاب عمل سأنفذه بعناد الرجل المجنون. وعندما دخلت مخدعها في منتصف الليل ورأيت وجهها الجميل البريء قلت لنفسي: يا لخداع الطبيعة عندما تمنح الاثم لوجه صبوح كهذا! كان السم قد فعل فعله في نفسي وتغلغل في كل عرق من عروقي. فوضعت يدي اليمنى بكل هدوء على عنقها وضغطته بجميع ما أوتيت من قوة. ففتحت عينيها للحظة. ونظرت إلي مصعوقة، ثم أغمضتهما وماتت. لم تأت بأية حركة مقاومة، بل ماتت وهي أهدأ ما تكون وكأنها في حلم. أظن أنها لم تحمل لي أية ضغينة في قلبها، ولو أنني قتلتها. نقطة دم واحدة قطرت من بين شفتيها وسقطت على يدي. إنك تعرف مكانها. غير انني لم ألاحظ تلك القطرة إلا في الصباح بعد أن كانت قد جفت تماماً. دفناها بدون أية جلبة، لأنني كنت أعيش في الريف في أملاكي الخاصة، ولم تكن هناك سلطات تتدخل وتتحرى ومع كل ذلك، لم يشتبه أحد في الأمر لأن المرأة زوجتي، وليس لها أقرباء، فلم يكن هناك أي سؤال أو جواب. ولقد تعمدت أن أعلن خبر موتها بعد الجنازة لكي أتخلص من الحاح الناس وفضولهم.

«لم أشعر بأي وخز في الضمير. لقد كنت قاسياً، ولكنها كانت تستحق هذا الجزاء. لم ابغضها بل كنت استطيع أن أنساها بكل سهولة. ليس هناك من اقترف جريمة قتل بلا مبالاة أكثر مني.

«ولما رجعت إلى البيت كانت الكونتيسة قد وصلت في الوقت نفسه. لقد أتت متأخرة فلم تلحق الجنازة، لأنني كنت قد رتبت هذا عن عمد وقصد، كانت متوترة الأعصاب، ومضطربة أشد الاضطراب. لقد كاد الهلع وصدمة الخبر ان يفقداها رشدها. فكانت تتكلم بصورة غريبة فلم أدرك ما الذي تعنيه عندما حاولت تعزيتي. بل إنني لم اصغ إليها بانتباه، لأنني لم أكن في حاجة إلى تعزية، ثم امسكت بيدي بين راحتيها، وقالت انها ترغب في ان تفضي إلي بسر، راجية ألا أحاول استغلاله في

Twitter: @ketab_n

المستقبل.

«قالت انها كانت قد أودعت رزمة من الرسائل عند زوجتي المرحومة، وانها لم تستطع أن تحتفظ بها في بيتها لطابعها الخاص، ولذلك رجتني أن أعيدها إليها. وعندما سمعت منها هذا شعرت بقشعريرة تسري في سلسلة ظهري. وبهدوء مصطنع سألتها ماذا تحتوي هذه الرسائل؟ فارتعدت لهذا السؤال وقالت:

- كانت زوجتك أخلص وأشرف امرأة صادفتها في حياتي. إنها لم تسألني عن فحواها بل أقسمت بأنها لن تنظر فيها.

١- أين كانت تحتفظ برسائلك؟

- قالت انها تحتفظ بها في درج آلة الخياطة المغلق بالقفل، وهي مربوطة بشريط قرنفلي. ستعرفها للتو من شكلها، ثلاثون رسالة بالتمام.

«أخذتها للغرفة حيث كانت آلة الخياطة موضوعة وفتحت الدرج، وأخذت رزمة الرسائل وناولتها إياها.

- هل هذه هي الرسائل؟

«فمدت إليها يدها بلهفة. فلم أجرؤ على رفع عيني اليها لئلا تقرأ فيهما شيئاً. ثم تركت الغرفة.

«وبعد دفن زوجتي بأسبوع واحد حل ألم بالغ في تلك البقعة على يدي حيث سقطت نقطة الدم في تلك الليلة المخيفة. أما ما حدث بعد ذلك فانت تعرفه.

«إني أعلم تماماً أن هذا ليس إلا إيحاء ذاتياً، ولكنني لا أستطيع أن اتخلص منه، إنه القصاص على تهوري وقسوتي اللذين دفعاني إلى قتل زوجتي الجميلة البريئة، لن احاول مقاومة الألم بعد الآن. إني سأنضم إليها عما قريب، وسأحاول أن أنال غفرانها. لا شك أنها ستغفر لي، وستحبني كما كانت تحبني وهي على قيد الحياة. إني اشكر لك، أيها الطبيب، كل ما فعلته من أجلي».

Twitter: @ketab_n

ذات ليلة

بقلم: اميل فرهارت
بلجيكي (١٨٥٥ ـ ١٩٢٠)

«سأرجع حالاً». هذا ما ناداني به أحسن صديق لدي في العالم وهو يهرول نازلاً درجات السلم في الفندق الكبير، حيث حططنا الرحال قبل برهة وجيزة، في مدينة عفى عليها الدهر من مدن اسبانيا القديمة.

رأيته يختفي، ثم سمعت آخر ما نطق «سأرجع حالاً» تمتزج بأصوات خطواته المتقهقرة. وبعد أن بقيت هكذا وحيداً ذهبت إلى الشرفة واتكأت على حافتها. رأيت جموع الناس في أسمالها تمشي مختالة في الأروقة والمتسولين يفوقون الوصف يسدون الأبواب والممرات. زاد الغسق من غموض الشوارع ورهبتها، وظهرت البيوت في احمرار الشمس الدموي كأنها مساكن الأشباح. واستطعت ان أرى داخل نافذة مقابلة وشعرت بأن اضطراباً ما يسري من غرفة الى غرفة في ذلك البيت ثم رأيت الحجرة التي كنت أرقبها احتشدت بأناس ذوي وجوه قاتمة كئيبة اخذوا يخرون فجأة ويسجدون بين أنوار شموع متذبذبة وأكاليل منذورة.

وعلى حين غرة سطع في آخر الزقاق اول قنديل بضوء زمردي. نظرت الى ساعتي فوجدت ان ساعة كاملة قد انقضت منذ أن فارقني صديقي. فتملكني قلق

Twitter: @ketab_n

عظيم. ومنذ اللحظة التي ألقيت فيها أول نظرة على هذه المدينة القديمة الهب الخوف تصوراتي تدريجياً وتخيلت ان صديقي قد أصيب بخطب. سلب ثم قتل. ولم أكن ادري في أي طريق اتجه ولا القصد من ذهابه. وبدأت استثير المخاوف وأعزو سبب اختفائه إلى عوامل معادية غريبة.

أخذت اتفحص المارين فوجدتهم يثيرون الشك والحيرة. نساء مسنات تجوفت صدورهن من المرض والشيخوخة، وأطفال شبه عراة يعولون الى ان تضمهم أمهاتهم إلى أثدائهن الجافة. ثم أتى رجال أوغاد أشداء في يد كل منهم عصا طويلة في آخرها شيء يلتمع. ومرت بي فصيلة خيل منطلقة بقرقعة هوجاء من وقع حوافرها المحذوة بالحديد.

إزداد الظلام كثافة وتوهجت سلسلة متصلة من الأضواء على طول الممرات العامة. واستفاقت جرسية إثر أخرى وشرعت أجراس هائلة في قرع مدو. وكانت كنيسة لا تبعد عني كثيراً تبتلع الحشود بأفواهها الفاغرة. واختفاء هذه المخلوقات التي ظهرت كالنمل في هذا الفم الهائل اتخذ في ناظري مغزى يبعث على الاضطراب. ألا يحتمل أن يكون رفيقي قد انجرف بين هذه الجموع ورفع قسراً إلى أعماق هذا المجهول الذي ينبعث منه صريف البرونز ويتهدج بثقل على معدن الأجراس؟

لعلني كنت قد أطلقت صرخة لأني رأيت رجلاً مسناً مضى عليه بعض الوقت واقفاً على الجانب الآخر من الشارع يرقبني ويظهر انه كان يبحث عن سبب ليخاطبني. فاه ببضع كلمات مبهمة ثم انصرف وهو ينظر خلفه بعتاب لا أفهمه.

كنت أنتفض من القلق. وشقتنا ذات الطراز القديم كثيرة والحنايا الصغيرة المسقوفة تراكم فيها الظلام وانضغط الى كثافة مخيفة. لبست ثيابي مسرعاً وابتدأت افتش المدينة ناحية ناحية في كافة أرجائها. ابتدأت بتعقل ولكن ما عتمت ان اندفعت في تفتيشي كالمحموم.

ظننت آناً اني رأيت صديقي بين المتسكعين المتكئين على حواجز جسر حجري وآناً في أعماق قبو بين سكارى مخيفين يتمايلون حول مائدة الشراب وفي حين آخر تحت ثريا ضخمة هائلة أضاء نورها المتذبذب نقشاً على الجدار يصور معركة بين الأفاعي والنسور.

Twitter: @ketab_n

كلما حاولت ان اطرد عني فكراً من هذه الأفكار كان رأسي يدور أكثر فأكثر. فآلمتني عيناي. وعصر قلبي كأنما قد وقع بين فكي كلابة. عقدت العزم على الرجوع. ولكنني ما كدت أتخذ خطوة في هذا السبيل حتى كان الشيء الذي أثار مخاوفي قد تغير. ثم انقطعت عن الاهتمام بصديقي وبدأت اتخوف على نفسي. أياً كان الأمر، أضاع أم قتل، علي أن أرجع حالاً! يا لذلك الهروب الليلي في تلك الشوارع السوداء وواجهات بيوتها ترمقني بخبث لعين! قباب تعالت من ميادين حالكة كأنها بنيت على المجهول لتدرك النجوم. وتجاوبت أقبية الخمور بالشتائم وضجيج المعربدين وكان لصوت خطواتي بين حنايا ومداخل البيوت الضخمة الشامخة صدى كأنه طلقات المدافع. وظهر المارة أكثر غموضاً وأشد عداءً وحقداً عن ذي قبل. فهل كان بوسعي أن أسألهم أن يرشدوني سواء السبيل؟ لقد كانوا خناقين قتلة مهيئين لإغماد سكين في أية لحظة. مشيت في وسط الطريق اختلس النظرات من فوق كتفي ولما كنت أعرف انني مصفر اصفرار الأموات فقد خشيت جداً أن ينكشف خوفي. اتجه نحوي أحدب صغير يبيع الكبريت فوثبت الى الخلف اتجنبه. وهمست امرأة مغناج بكلمات بليدة في اذني فحثثت خطاي لا اجرؤ أن ادفعها عني. ووقف احد المتسولين بعباءته البشعة أمامي يسد ممر رواق مصقول بايماءاته الكاسحة فأشحت عنه جانباً. ودقت الساعة في الكاتدرائية فوق رأسي بصوت كأنه صليل السيوف في المعركة.

وفجأة رأيت الفندق الذي نزلنا فيه أمامي فوضعت المفتاح في القفل وأنا ارتجف. ترى ما الذي ينتظرني وراءالباب؟ كان صديقي قد غاب عن خاطري فلم أتساءل أعاد الآن أم لا. ثم أخذت أفتش جميع الفتحات والخبايا في شقتنا الواحدة تلو الأخرى. ونظرت مستعيناً بشمعة تحت المقاعد والمتكآت والفراش وفتحت الدواليب وأغلقتها بسرعة. أقفلت الباب وأعدت ترتيب الأثاث بعناية. لقد كنت ارتعش لشدة تلهفي الى اخماد خوفي! حشوت مسدسي واتخذت جميع الاحتياطات في غرفة نومي. ولكن ما الذي ابتغيه من كل هذا؟ يقيناً انني ما كنت لأفكر في النوم. أخذت كتاباً لأقرأ ولكن نظراتي تسمرت بالصفحات وانشغل انتباهي عنها بما قد يكون مترصداً لي وراءالباب أو وراء النافذة. سمعت وقع خطوات أحد النزلاء وهو يصعد السلم ويتحرك على نغمة اهتياجي ثم وقف امام شقتي فقفزت عن سريري وأنا أفكر باللصوص. وخطرت لي فكرة باهرة: اعلم الشرطة! لبست ثيابي، ولكن ما ان

Twitter: @ketab_n

وجدت نفسي في الطريق حتى عاودتني الحمى بشدة مرة أخرى. هل ازاحم أولئك المتسولين الذين يقفون كالتماثيل واضيع نفسي مرة ثانية في تيه ذلك الليل الذي لم انج منه إلا بأعجوبة؟ أأجدد انزعاجي السابق مرة أخرى وأهيج نفسي حتى الجنون؟ عدت وصعدت السلالم ولما وقفت أمام شقتي ارتجفت لمجرد تفكيري بما عسى قد حصل في أثناء غيابي.

إنني أذكر اني ارتميت أمام العتبة وبقيت ذراعاي معلقتين بارتخاء بينما شعرت في الوقت نفسه كأن هناك ألف يد مخدرة ترفعني وتدفعني. سمعت لغط النزلاء وهم يصعدون السلم ثم اقتربوا اكثر فأكثر. فاتكأت على صحن الدرج وفكرت في ان أعطيهم اشارة، ان استنجدهم، ان أقول لهم شيئاً على الأقل، غير انني تكومت على نفسي عند الجدار على غير رضى مني وأنا صامت ونفسي يتضاءل، وإذ أنا اختبىء ظننت ان دمي قد جف وأني سأتداعى ساقطاً لا محالة. غير انهم اجتازوا دون ان يروني ومن ثم اختفوا في شققهم المتعددة.

بعدئذ بلغ بي الغضب أقصاه لعدم مخاطبتي إياهم فتسلقت قسماً من الدرج لكي أقرع باباً في نهاية أحد الممرات بينما كان آخر الاثنين يختفي. وما ان وصلت حتى عدت نازلاً أهرول بسرعة وبغتة أخذت أقفز الدرج أربعاً أربعاً إلى ان رأيت نفسي في الشارع غير واعٍ بما أفعل.

انتصب شرطي حارس أمامي فقلت له: «لقد اتيت لآخذك معي فتنظر في حادث سرقة اقترفت قبل هنيهة في مسكني».

فتبعني الرجل وبالكلمات القليلة التي فاه بها نفض عني الكابوس. ولم أكن أعي في تلك اللحظة أية مهزلة أقوم بتمثيلها.

وعندما وصلنا عتبة شقتي تمنيت لو أنني أجرؤ فأدخل غرفتي وافتش كل خبية وزاوية فيها ثم اذهب في النهاية وأنام في طمأنينة تامة. فتش الحارس غرفة الجلوس والحمام شاعلاً مصباحه الكهربائي وقام بجولة في جميع أنحاء الشقة. ولكي أجعل لما قلته أهمية ادعيت بأن صندوقاً للمجوهرات قد اختفى وكان موضوعاً على طاولة صغيرة بين الشمعدان وحقيبة السفر. وبحماسة زائدة صببت نقمتي على المحتالين

Twitter: @ketab_n

الذين يتسكعون حول الفنادق ليفترسوا المسافرين ثم أخذت أعير السلطات على عدم مقدرتها على أن تأتي بالمذنب إلى ساحة العدالة. بالغت بالأمر لأن الحارس تبسم ورأيت الشك في عينيه فازددت حنقاً على حنق.

رحت أوضح له: «انني متأكد من انه قبل ساعة من الزمن كان لي وسام ثمين مطعم باللآلىء ومرصع بالنقوش العربية في ذلك الصندوق».

وإذ قاطعني الرجل ليؤكد لي ان سمعة الفندق لا غبار عليه وانه أهدأ مناطق المدينة أجبته بأنني وأنا في الفراش استيقظت فجأة على صوت خدش كصوت الماس على الزجاج أو كصوت شيء يسحب على طاولة رخامية ولما قفزت هرب الرجل وصفق الباب وراءه. أما فيما يتعلق بالصندوق فله أربعة مسامير نحاسية في أسفله وصوت انزلاق أحد هذه المسامير على شيء صقيل هو الذي ايقظني.

فنظر إلي الحارس وحملق في عيني.

قال لي: «اتبعني وارفع شكواك إلى القائد».

ولكن هذا ما لم أقبل به. اعتذرت وقلت إن صديقي لن يرجع قبل انقضاء فترة أخرى من الزمن. ولم يكن صديقي الآن ليعني لي شيئاً أكثر من ذريعة للتخلص - وعدا هذا لم اجرؤ على ترك أوراقنا وحاجاتنا الثمينة لحظة دون حراسة في هذا المكان المشبوه...

رأيت الابتسامة مرة أخرى في عيني الحارس ولشد ما رغبت في أن أصرعه في تلك اللحظة. وعلى حين غرة فتح الباب ودخل ذلك الذي كان السبب الرئيسي في فزعي والذي ابتغيته عبثاً في جميع أرجاء المدينة بهوس وجنون. ارتميت على عنقه أحضنه أسأله أين كان وما الذي أعاقه كل هذه المدة ثم اسرعت وأخذت به جانباً وقصصت عليه مغامرتي بالتفصيل. فتظاهر الحارس بأنه لم يلحظ شيئاً. لقد فهم قضيتي فهماً تاماً، فان أقل سخرية منه وأنا في حالتي المتهيجة تلك سيفسد كل شيء. فاتفق مع صديقي على ان نقدم الشكوى في غداة غد ولكي ينصفني ويعاقب المجرم بما يستحقه من قصاص وعد بأن سيجري تفتيشاً منتظماً في بيوت المشبوهين من الجيران القاطنين في تلك المنطقة.

Twitter: @ketab_n

بيد أن المدينة ظهرت في وضح النهار التالي وادعة في غاية الهدوء ومريحة تشع بالطمأنينة ،بحيث لم أفكر إلا في كيفية الاستمتاع بسحر آثارها وفنونها وعظمة بقاياها المتهدمة التي تبعث على الكآبة والأسى .

Twitter: @ketab_n

الطيف المُجسّد

بقلم: واشنطن أرفنغ
أمريكي (١٧٨٣ - ١٨٥٩)

في ليلة عاصفة من ليالي الثورة الفرنسية العنيفة كان شاب الماني عائداً إلى مسكنه في ساعة متأخرة عبر الأحياء القديمة في باريس. كان البرق يلمع، وهزيم الرعد يجلجل فوق الشوارع الضيقة الشامخة - ولكني أود أولاً أن أقص عليكم شيئاً عن هذا الشاب الألماني.

كان غوتفريد ولفغانغ شاباً من عائلة طيبة، درس بعضاً من الوقت في غوتنغن. ولكنه لما كان من ذوي النزعة الخيالية الحالمة المتدفقة بالحماس، تاه بين تلك المذاهب الغريبة الهوجاء التي تدعو إلى التأمل العميق، والتي طالما حيرت الطلاب الألمان. ولهذا فان حياته المنعزلة، وتطبيقاته البالغة، وطبيعة دراساته الفريدة فعلت في عقله وجسمه، فتلفت صحته ومرضت مخيلته. لقد أسرف في التأملات التصورية - المبنية على كنه روحي الى ان رأى نفسه محاطاً بعالم مثالي خاص به. ودخلت في رأسه فكرة، ولا أدري كيف، مفادها ان هناك تأثيراً شريراً يحوم حوله... روحاً شريرة تسعى الى اقتناصه وتبغي هلاكه. وبقيت هذه الفكرة في مزاجه السوداوي الى ان أدت الى أسوأ النتائج فغدا شاحباً هزيلاً يملؤه القنوط. ولما اكتشف اقرباؤه فيه هذا المرض العقلي الذي يفترسه، صمموا على ان أحسن دواء له هو تغيير الجو، ولذا أرسلوه ليكمل

Twitter: @ketab_n

دروسه بين مفاتن باريس ومباهجها.

وصل ولفغانغ إلى باريس عند نشوب الثورة. فجذب هذيان العصر عقله المهووس في البداية ورأى نفسه أسير النظريات السياسية والفلسفية السائدة آنذاك. ولكن مشاهد الدماء التي تتابعت صدمت طبيعته الحساسة وجعلته يشمئز من المجتمع والعالم، وغدا أكثر من أي وقت مضى منطوياً على نفسه.

فاعتكف في شقة معزولة من الحي اللاتيني، حي الطلاب. وهناك في شارع كئيب ليس يبعد عن جدران السوربون الشبيهة بجدران الأديرة لاحق تأملاته المحبوبة. وإذا به يصرف أحياناً ساعات كاملة في مكتبات باريس العظيمة، تلك الدياميس لأرواح الكتاب الراحلين، ينبش بين أكوام مؤلفاتهم المغبرة المهجورة، سعياً وراء زاد لشهيته الممروضة. لقد كان، في شكل من الأشكال، غول أدب يقتات في مدفن الأدب العفن.

وقد كان ولفغانغ رغم وحدته وعزلته، ذا مزاج ملتهب بمخيلته فهو خجول أكثر مما ينبغي، جاهل بأمور الدنيا، لا يعرف شيئاً عن التقرب من النساء، مع انه كان معجباً شغوفاً بالجمال الأنثوي، وكثيراً ما أضاع نفسه في غرفته وهو يتأمل في قدود ووجوه رآها من قبل، يزين له خياله صوراً من الحسن والجمال تفوق الواقع بمراحل.

وفيما كان ذهنه على هذه الحالة من التسامي والإثارة، إذا بحلم يؤثر في نفسه تأثيراً بالغاً:

إنه وجه فتاة في منتهى الجمال كان انطباعه في ذهنه عميقاً، حتى انه حلم به مراراً وتكراراً.

ولازم أفكاره في النهار ونومه أثناء الليل. وبالاختصار أصبح عاشقاً مدنفاً بهذا الطيف الحلمي. واستمرت هذه الحالة معه لأمد طويل حتى أضحت خيالاتها من الصور الذهنية الثابتة التي تلازم عقول السوداويين، والتي تفسر، أحياناً، خطأ، بالجنون. هكذا كان غوتغريد ولفغانغ، وهذه كانت حالته عندما شرعت أروي قصته. كان عائداً إلى البيت متأخراً في ليلة عاصفة عبر بعض الشوارع القديمة الكئيبة من أحياء باريس القديمة، وقصف الرعد الصاخب يهدر بين البيوت الشاهقة من

Twitter: @ketab_n

الأزقة الضيقة. وصل إلى ميدان «دي غريف» حيث كانت تنفذ أحكام الإعدام العلنية. وارتعش البرق حول أبراج «الاوتيل دي فيل» القديم وسكب وميضاً رجراجاً على الساحة المكشوفة أمامه. وبينما هو يجتاز الميدان انكمش من الرعب حين وجد نفسه قرب المقصلة. كان الزمن ذروة عهد الإرهاب، وهذه الآلة الجهنمية منتصبة مستعدة دوماً وهيكلها يجري دون انقطاع بدماء الأفاضل والشجعان. ولقد كانت في ذلك اليوم نفسه تعمل بنشاط عملها الدموي، وها هي الآن منتصبة هناك في حلة رهيبة، وسط مدينة نائمة صامتة، تنتظر الجديد من الضحايا.

انكمش قلب ولفغانغ في صدره وقرف. وكان قد قفل راجعاً وهو يرتعب من تلك الآلة الفظيعة، عندما شاهد هيكلاً باهتاً منحنياً، متهالكاً على نفسه على اسفل الدرجات المؤدية إلى المقصلة، وومضات متتابعة من البرق جعلته أكثر وضوحاً. لقد كان قوام امرأة تلبس السواد. كانت جالسة على الدرجات السفلى من المنصة منكفئة إلى الأمام ووجهها مختبىء في حضنها، وجدائلها الطويلة المسدولة تلامس الأرض، والمطر الدافق ينهمر وينساب عليها. توقف ولفغانغ. لقد كان ثمة شيء رهيب في نصب الويل الموحش ذاك وقد بدا له ان المرأة فوق المستوى العادي. ولكنه يعلم ان الأيام ملأى بالتقلبات، وان كثيراً من الرؤوس الجميلة التي كانت تتوسد الريش تهيم الآن بلا مأوى. ولربما كانت هذه نائحة مسكينة صيرتها السكين الرهيبة وحيدة مهجورة، فجلست هنا كسيرة القلب على شاطىء الوجود، الذي أخذ منها كل ما هو حبيب اليها وقذف به إلى الأبدية.

اقترب منها وخاطبها بلهجة ملؤها العطف. فرفعت رأسها ورمقته بعينين شاردتين. ولشد ما كانت دهشته عندما شاهد وجهها إثر وميض البرق الوهاج. إنه نفس الوجه الذي لازمه في أحلامه... كان شاحباً حزيناً، ولكن جماله يسبي العقل حقاً.

خاطبها ولفغانغ ثانية وهو يرتجف وقد تناوشته عواطف متصارعة حادة. تكلم عن تعرضها في ساعة متأخرة كهذه من الليل لعنف العاصفة، وعرض عليها أن يأخذ بيدها ويوصلها إلى أصدقائها. فاشارت إلى المقصلة بإيماءة ذات مغزى مخيف.

قالت: «لا صديق لي في الحياة!».

Twitter: @ketab_n

فقال ولفغانغ: «ولكن لك بيتاً».

قالت: «نعم - في القبر».

وذاب قلب الطالب لهذه الكلمات قال:

«إذا كان لغريب أن يجرؤ فيتقدم بعرض لا تخشى إساءة فهمه، يطيب لي ان أقدم مسكني المتواضع كمأوى لك ونفسي صديقاً مخلصاً. فأنا أيضاً لا صديق لي في باريس. وانني غريب في هذا البلد. وإذا كان بوسع حياتي أن تكون ذات فائدة لك فانها تحت تصرفك، وستضحين دون أن يلحق بك أي أذى أو عار».

كان في تصرف الشاب حماس صادق له أثره، ورطانته الأجنبية أيضاً كانت في صالحه، إذا أظهرت أنه ليس مواطناً متبذلاً من باريس. حقاً ان هناك لبلاغة في الحماسة الصادقة لا يشوبها ريب ولهذا فان الغريبة المشردة أودعت نفسها، بتمام الثقة، حماية الطالب.

ساند خطواتها المضطربة عبر «الجسر الحديد»، والمكان الذي ألقى فيه الشعب بتمثال هنري الرابع إلى الأرض. كانت العاصفة قد همدت والرعد يقصف من بعيد وباريس كلها هادئة. ذلك البركان العظيم من العواطف البشرية غفا لفترة ليجمع قوة جديدة كي ينفجر في اليوم التالي. قاد الطالب أمانته عبر الشوارع القديمة من الحي اللاتيني بمحاذاة جدران السوربون المسودة حتى وصل فندقه المتسخ الكبير الذي يسكن فيه. وجحظت عينا البوابة العجوز التي استقبلتهما باستغراب: ولفغانغ السوداوي بصحبة فتاة!

وعند دخول الطالب إلى شقته احمر خجلاً لأول مرة من ضيق مسكنه والاهمال السائد فيه. كانت له غرفة واحدة وهي صالون من الطراز القديم مكتظ بالنقوش ومؤثث بالبقايا من أبهة سابقة، لأن الفندق أحد تلك الفنادق في حي قصر لوكسمبرغ التي كانت تخص الأشراف في سالف الأيام. وكانت الغرفة مكدسة بكل ما يملك الطالب من كتب وأوراق منثورة هنا وهناك باهمال. وانتصب سريره في فسحة على حدة.

وعندما انيرت الأضواء وسنحت الفرصة لولفغانغ ان يمعن النظر بمشاهدة

Twitter: @ketab_n

مرافقته الغريبة، انتشى أكثر من ذي قبل بجمالها الآخاذ. كان وجهها شاحباً ولكن بحسن باهر، زاده حلاوة دفق من شعر أسود كجناح الغراب انتظم خصلاً حوله. وكانت عيناها واسعتين تلتمعان بتعبير فريد يشارف الهوج. أما لباسها الأسود وما سمح به من اظهار قوامها فقد دل على تناسق في منتهى الكمال. كان مظهرها بأكمله أخاذاً في غاية الفتنة رغم بساطة ردائها. والحلية الوحيدة التي تقلدتها كانت شريطاً عريضاً أسود مشبكاً بالماس ملفوفاً حول عنقها.

بدأت الآن حيرة الطالب: كيف يتصرف مع هذه المخلوقة العاجزة التي غدت تحت حمايته؟ فكر في أن يهجر غرفته ويتركها لها، وان يبحث له مأوى في مكان آخر. ولكنه كان لا يزال مفتوناً بحسنها حتى خيل إليه ان هناك سحراً مسلطاً على أفكاره ومشاعره وانه لا يستطيع أن ينزع نفسه من محضرها. وتصرفها أيضاً كان فريداً لا يمكن تعليله، فهي لم تعد تتكلم عن المقصلة، وجعل حزنها يفارقها، واهتمام الطالب بها كسب في البدء ثقتها. ومن ثم على ما يبدو قلبها. والظاهر أنها كانت من المتحمسين المهووسين مثله وذوو الحماس يفهم بعضهم بعضاً بسرعة.

بينما كان ولفغانغ تحت سلطان فتنتها باح لها بعاطفة نحوها. أخبرها بقصة حلمه الغامض وكيف انها امتلكت قلبه قبل ان يراها. فتأثرت بغرابة ما قصه عليها واعترفت بانها شعرت بدافع لا يفسر أيضاً نحوه. لقد كان الزمن زمن نظريات هوجاء وأعمال هوجاء. لقد قضى على جميع الخزعبلات والتعصبات وغدا كل شيء تحت سلطان «إلهة العقل»، ومن بين نفايات الزمن القديم طقوس الزواج التي بدأ أصحاب العقول المحترمة يعتبرونها ارتباطات رائعة. كانت العهود والمواثيق الاجتماعية هي السائدة. وولفغانغ كان من أصحاب النظريات الذين لم يكن ليفلتوا من عدوى المذاهب الحرة المتفشية حينذاك.

قال: «لماذا ننفصل؟ قلبانا متحدان وفي عين العقل والشرف نحن كواحد. فما الذي يحوجنا إلى العادات المتبعة البالية لنربط بين روحين ساميتين؟».

كانت الفتاة الغريبة تستمع إليه وهي تنضح عاطفة. ولا ريب انها تلقت النور والمعرفة في المدرسة نفسها.

وتابع التلميذ: «لا بيت لك ولا عائلة، دعيني أكن كل شيء لك، أو بالأحرى

Twitter: @ketab_n

دعينا نكن كلانا كل شيء للآخر. وإذا كانت الطقوس ضرورية فسنقوم بها ـ هاك يدي اني اتعهد أن أكون لك أبداً».

فقالت الغريبة بوقار كئيب: إلى الأبد؟»

فكرر ولفغانغ: «إلى الأبد!».

فصافحت الفتاة الغريبة اليد الممدودة اليها وتمتمت «إذن اني لك» وارتمت على صدره.

وفي الصباح التالي ترك الطالب عروسه نائمة، وخرج في ساعة مبكرة يسعى لإيجاد شقة أكثر اتساعاً وملائمة للتغيير الذي طرأ على ظروفه. وعندما رجع وجد الفتاة الغريبة مضطجعة ورأسها معلق فوق السرير وذراعاها مطروحان عليه. تكلم معها ولكن لم يسمع جواباً. ثم تقدم لكي يوقظها من وضعها المتعب ذاك. وعندما أخذ يدها كانت باردة ـ لم يكن فيها أي نبض ـ كان وجهها شاحباً مصفراً وقصارى القول كانت جثة هامدة.

هرول التلميذ وكله هلع وفزع ينبىء أهل الفندق. فتجمعت هناك حالة من الاضطراب. ثم استدعيت الشرطة، وعندما دخل الضابط المسؤول الغرفة أخذته الدهشة عند مشاهدته الجثة.

صرخ: «يا للسماء! كيف استطاعت هذه المرأة ان تأتي إلى هنا؟»

فقال ولفغانغ بحرارة: «هل تعرف شيئاً عنها؟»

فهتف الضابط: «هل أعرف؟ انها أعدمت يوم أمس بالمقصلة!»

خطا إلى الأمام وحل الرباط الأسود من حول عنق الجثة، فتدحرج الرأس على أرض الغرفة، فانفجر الطالب في حالة مس وجنون وأخذ يصرخ: «الشيطان! لقد امتلكني الشيطان! لقد ضعت إلى الأبد».

حاولوا تهدئته ولكن عبثاً. لقد استولى عليه اعتقاد مخيف بأن روحاً شريرة أحيت الجسد الميت لكي تقتنصه فكان ان ذهب عقله ومات في مستشفى المجاذيب.

Twitter: @ketab_n

وهنا انهى الرجل حكايته.

فقال المستمع الفضولي: «ولكن هل هذه القصة حقيقية؟»

فأجاب: «حقيقية لا شك فيها، فقد استقيتها من أوثق مصدر. لقد قصها التلميذ نفسه علي عندما رأيته في مستشفى المجاذيب في باريس».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ينبوع الشباب

بقلم: ناثانييل هوثورن
أمريكي (١٨٠٤ - ١٨٦٤)

دعا مرة رجل فريد في زمانه يدعى الدكتور هايديغر أربعة من أصدقائه المحترمين ليجتمعوا إليه في مكتبه. كان ثلاثة منهم رجالاً ذوي لحىً بيضاء، هم السيد مدبورن، والكولونيل كيليغرو، والسيد غاسكوين، والرابعة سيدة مسنة ذاوية تدعى الأرملة ويشرلي.

كانوا جميعهم مسنين ذوي مزاج سوداوي، تعساء في حياتهم، مصيبتهم الكبرى في الحياة انهم لم يواروا في قبورهم منذ زمن طويل. كان السيد مدبورن إبان شبابه تاجراً ناجحاً، ولكنه أضاع كل ما يملكه في مضاربة جنونية بحيث أصبح الآن لا يفضل المتسولين إلا القليل. أما الكولونيل كيليغرو فقد اتلف أحسن سنيه وصحته وكل ما يعيش عليه في مطاردة ملذات الخطيئة، حتى سببت له سلسلة من الآلام كداء النقرس وما إليه من أوجاع تعذب الجسد والروح معاً. ولكن السيد غاسكوين كان سياسياً فاشلاً مقضياً عليه، ورجلاً ذا شهرة سيئة، أو على الأقل كان ذلك حتى طمره الزمان من معرفة الجيل الحاضر وجعله مغموراً عوضاً عن أن يكون سيىء السمعة.

أما الأرملة ويشرلي فقد أثر عنها أنها كانت ذات جمال فتان في شبابها، ولكنها

Twitter: @ketab_n

لزمن طويل مضى عاشت في عزلة بسبب حكايات ملأى بالفضائح، مما جعل الطبقة النبيلة في البلدة تتحامل عليها. ومما هو جدير بالذكر ان كلاً من هؤلاء الثلاثة: السيد مدبورن، والكولونيل كيليغرو، والسيد داسكوين كان عاشقاً قديماً للأرملة ويشرلي، وان كلاً منهم كان مرة على وشك ان يفتك بالآخر بسببها.

وقبل أن أتابع قصتي أود أن ألمح ان الدكتور هايديغر وضيوفه الأربعة قد قيل عنهم جميعاً ان عقولهم ليست على مستواها الطبيعي تماماً، وهذا ليس نادراً مع أناس مسنين مثقلين إما بمنغصات الحاضر أو بذكريات تعاسة ماضية.

قال الدكتور هايديغر وهو يشير إليهم بالجلوس: «اني أرغب يا أصدقائي القدامى ان تساعدوني في تجربة من تلك التجارب التي امتع نفسي بها هنا في مكتبي».

إذا صدقت كل الروايات، فان مكتب الدكتور هايديغر يجب أن يدعو إلى الاستغراب جداً. فهو غرفة معتمة على الطراز القديم، موشاة بأنسجة العنكبوت ومنثورة بأغبرة أثرية. وحول الجدران قامت عدة مكتبات من خشب البلوط، اكتظت رفوفها السفلى بصفوف من مجلدات ضخمة بأحرف سوداء. وفوق المكتبة الوسطى وقف تمثال نصفي من البرونز لأبي الطب أبقراط الذي، بموجب مصادر يوثق بها، كان من دأب الدكتور هايديغر أن يأخذ بمشورته في جميع القضايا الصعبة من تجاربه. وفي أظلم زاوية من الغرفة انتصبت خزانة عالية ضيقة من السنديان، بابها مفتوح نصف فتحة يطل من خلالها هيكل عظمي. وبين المكتبتين علقت مرآة صفحتها الصقيلة مغبرة، وهي في إطار مذهب متسخ. ومن بين الحكايات العجيبة العديدة التي راجت حول هذه المرآة خرافة تقول ان أرواح جميع المرضى الذين ماتوا على يد الدكتور، سكنت في نطاقها لتحملق في وجهه كلما ألقى نظره عليها. وفي الجهة المقابلة من الغرفة انتصبت صورة مزخرفة في الحجم الطبيعي لفتاة في ريعان الشباب في حلة من الحرير والأطلس والقماش المشجر، ذهب بهاؤها كما ذهب بهاء محياها.

قبل أكثر من نصف قرن كان الدكتور هايديغر على وشك الزواج من هذه الفتاة الشابة، ولكنها ابتلعت مرة، بسبب اضطراب بسيط اعتراها، حبة واحدة مما وصفه لها حبيبها، فماتت عشية زفافها. والآن، بقي هناك شيء واحد مما يثير أشد

Twitter: @ketab_n

الاستغراب، مجلد ضخم ثقيل مغلف بجلد أسود مكسو بشبكة فضية ضخمة. لم تكن هناك أية كتابة على ظهره، ولا أحد استطاع ان يتكهن بعنوان الكتاب. ولكن الذي يعرف عنه جيداً انه كتاب من كتب السحر. وذات مرة، عندما حاولت الخادمة ان ترفعه لكي تمسح الغبار عنه فقط، قعقع الهيكل العظمي في الخزانة، وخطت صورة الفتاة خطوة واحدة على الأرض، واشرأبت عدة وجوه شاحبة من المرآة، بينما تقطب جبين أبقراط البرونزي وقال: «إياك!».

هكذا كان مكتب الدكتور هايديغر. وفي عصر ذلك اليوم الصيفي من قصتنا هذه، انتصبت مائدة صغيرة مستديرة، سوداء كالأبنوس، في منتصف الغرفة، عليها اناء زجاج صخري بديع الشكل والصنع. ودخلت أشعة الشمس من الشباك من فرجة ستار من الدمقس حائل اللون مزركش الحواشي، ونفذت مباشرة خلال هذا الإناء، فانعكس منه بهاء لطيف على محيا الأشخاص الخمسة الرمادية الجالسين حوله. وكانت هناك أربع كؤوس للشمبانيا وضعت أيضاً على المائدة.

وكرر الدكتور هايديغر قائلاً: «يا أصدقائي المسنين هل لي ان اعتمد على مساعدتكم في انجاز تجربة في غاية الغرابة؟»

كان الدكتور هايديغر متقدماً في العمر غريب الأطوار جداً، حتى أصبح شذوذه نواة لألف حكاية عجيبة. وبعض هذه الأساطير، اقصها وكلي خجل، ترجع إلى طبيعتي الصدوقة، وإذا كان في القصة الحالية ما يزعزع إيمان القارىء، فحسبي ان أوصم بانني مروج خرافات!

عندما سمع ضيوف الدكتور الأربعة عن التجربة المرتقبة، لم يتوقعوا شيئاً عجيباً أكثر من قتل فأر بمضخة هوائية، أو فحص نسيج عنكبوت بالمجهر، أو عبث مشابه كان دوماً معتاداً أن يقدمه إلى أصدقائه المقربين. ولكن دون أن ينتظر منهم جواباً هرول الدكتور في مشيته المقلقة عبر الغرفة ثم رجع بذلك المجلد الثقيل الضخم المغلف بجلد أسود، الذي أكدت التقارير الرائجة انه كتاب سحر. وبعد ان فك المشابك الفضية فتح المجلد وأخذ من بين ثنايا صفحاته ذات الأحرف السوداء وردة، أو ما كان من قبل يدعى وردة، اتخذت أوراقها الخضراء ووريقاتها القرمزية لوناً بنياً، وبدت الوردة القديمة وكأنها تتفتت بين يدي الدكتور.

Twitter: @ketab_n

قال الدكتور هايديغر وهو يتنهد: «هذه الوردة، هذه الزهرة الذابلة المتداعية اينعت قبل خمس وخمسين سنة. كانت قد أهديت لي من سلفيا التي ترون صورتها معلقة هناك، وكنت قد نويت ان ازين بها صدري يوم زواجنا. ولقد احتفظت بها لخمس وخمسين سنة بين أوراق هذا المجلد العتيق. والآن، هل تعتقدون ان هذه الوردة ، بعد مرور نصف قرن عليها، من الممكن ان تينع مرة أخرى؟»

قالت الأرملة ويشرلي وهي تحرك برأسها حركة مشاكسة: «هراء! إن باستطاعتك أن تسأل أيضاً هل من الممكن أن يرجع وجه امرأة غضين إلى شبابه مرة أخرى؟»

فأجاب الدكتور هايديغر: «انظروا!»

وكشف الإناء ورمى بالوردة المتيبسة في الماء الذي يحتويه. طفت الوردة في البداية على وجه السائل وبدت كأنها تمتص شيئاً من رطوبته، ولكن لم تمض برهة حتى بدا عليها تغير عجيب. لقد تحركت الوريقات الجافة المضغوطة وبدأت تتخذ لوناً قرمزياً يعمق بالتدريج، كأنما الوردة تنتعش من سبات أشبه بالموت. الساق الرشيق وعروق الأوراق أصبحت خضراء. وهناك بدت وردة نصف القرن يانعة أعطتها سلفيا الى عشيقها لأول مرة.. ولكنها لم تكن في كمال التفتح، لأن بعض وريقاتها الحمراءالغضة إلتوت باحتشام حول صدرها الندي الذي أخذت تتلألأ فيه ثلاث قطرات من الندى...

فقال أصدقاءالدكتور بعدم اكتراث: «حقاً أن هذا لخداع لطيف جداً.» وذلك لأنهم سبق وان شاهدوا أعاجيب أعظم من هذه في حفلات الحواة ولكنهم أردفوا قائلين: «ولكن بحقك أخبرنا كيف انجزت هذا؟»

فسألهم الدكتور هايديغر: «ألم تسمعوا مطلقاً بينبوع الشباب الذي بحث عنه بونس دي ليون المغامر الاسباني لقرنين أو ثلاثة قرون خلت؟»

فقالت الأرملة ويشرلي: «ولكن هل وجده بونس دي ليون؟»

قال الدكتور: «كلا لأنه لم يبحث عنه مطلقاً في المكان الحقيقي. وإذا كنت على صواب، فاني اعتقد ان ينبوع الشباب يقع في القسم الجنوبي من شبه جزيرة فلوريدا،

Twitter: @ketab_n

ليس بعيداً من بحيرة ماكاكو، يكتنف منبعه ظلال بضع أشجار هائلة من المغنوليا، وهذه الأشجار رغم أن عمرها قرون لا تحصى فانها قد احتفظت بنضارة كنضارة البنفسج، وذلك بما لهذا الماء العجيب من مزايا. والماء الذي ترونه في الإناء أمامكم أرسله إلي أحد أصدقائي الذين يعلمون شغفي بأمور كهذه».

فقال الكولونيل كيليغرو الذي لم يصدق كلمة واحدة من حكاية الدكتور:

«إحم! ولكن ما هو تأثير هذا السائل على الجسم البشري؟»

فأجاب الدكتور: «ستحكمون على هذا بأنفسكم. واني أرحب بجميعكم يا أصدقائي المبجلين لتنهلوا من هذا السائل قدراً كافياً يعيد اليكم ريعان الشباب. غير اني، نظراً لما تجشمته من مشاق عديدة حتى بلغت هذا العمر، لست على عجل في رجوعي إلى الشباب ثانية. ولذا استمحيكم عذراً، فأنني سأرقب سير عملية التجربة فقط».

وبينما كان الدكتور هايديغر يتكلم كان يملأ كؤوس الشمبانيا الأربع بماء ينبوع الشباب. ويبدو ان الماء كان مليئاً بغاز فوار، إذ كانت فقاقيع صغيرة تصعد باستمرار من أعماق الكؤوس وتنفجر برشاش فضي على سطحه. ونتيجة للرائحة الطيبة التي فاح بها لم يشك الأشخاص المسنون في ان له خواص مريحة تنعش القلب. ورغم انهم كانوا في منتهى الشك من ناحية قوته ارجاع الشباب، فقد تشوقوا إلى عبه مرة واحدة. ولكن الدكتور هايديغر رجاهم ان ينتظروا لحظة.

وقال: «يا أصدقائي المحترمين، انه لمن المستحسن قبل ان تشربوا، ولكم خبرة حياة كاملة ترشدكم، ان تأخذوا ببضع قواعد عامة تقودكم في السير مرة ثانية عبر مخاطر الشباب. ففكروا في الخطيئة والعار اللذين سيلحقان بكم وقد حزتم على الامتيازات الفريدة التي ستكتسبونها، اذا لم تصبحوا نماذج للفضيلة والحكمة لجميع شباب العصر».

لم يفه أصدقاء الدكتور الأربعة بأي جواب، اللهم سوى ضحكة مرتعشة ضعيفة. لقد كانت الفكرة سخيفة جداً. انهم سيشطون مرة أخرى وهم يعرفون ما أقرب خطوات الندامة اثر خطوات الزلل.

Twitter: @ketab_n

قال الدكتور وهو ينحني: «اشربوا إذن، وكم يسرني انني وفقت بانتقاء الأشخاص لتجربتي هذه».

وبأيد مشلولة رفع الأربعة الكؤوس إلى شفاههم. فاذا كان الشراب يمتلك حقاً تلك المزايا التي اسبغها عليه الدكتور هايديغر، لم تكن هناك مخلوقات أربعة بحاجة إليه أكثر منهم. كان مظهرهم يدل كأنهم لم يعرفوا الشباب واللذة مطلقاً، كأنهم نتاج الطبيعة الخرفة، أناس شيب أبداً تعسون دائماً، عاجزون، جفت عصارة الحياة في عروقهم، يجلسون الآن منحنين حول مائدة الدكتور بدون حياة كافية في أرواحهم أو أجسادهم تنتعش حتى بفكرة رجوعهم إلى الشباب. كرعوا الماء وارجعوا كؤوسهم إلى المائدة.

لقد بان تحسن فوري لا شك فيه على سيماء الجماعة، أشبه بما تحدثه كأس من خمرة سخينة، مصحوباً بتوهج فجائي كالذي تحدثه أشعة الشمس. فتألقت وجوههم مرة واحدة وسرى في وجناتهم احمرار الصحة والعافية عوضاً عن ذلك اللون الرمادي الذي كان يظهرهم كالأموات. ونظر كل منهم في وجه صاحبه وتخيل ان هناك قوة سحرية قد بدأت فعلاً في صقل الأخاديد العميقة التي حفرها الزمان من أمد بعيد على جباههم. فأخذت الأرملة ويشرلي في إعادة وضع قبعتها من جديد، لأنها كادت تشعر انها امرأة ثانية. . .

وأخذوا يهتفون بلهفة: «زدنا من هذا الماء العجيب! نحن أصغر الآن ـ ولكننا ما زلنا هرمين! اسرع وزدنا!».

فقال الدكتور هايديغر وهو جالس يرقب التجربة ببرود فلسفي: «صبراً، صبراً! لقد طال الزمان بكم حتى هرمتم، فمن الانصاف ان تقنعوا بأن ترجعوا إلى الشباب في نصف ساعة فقط! ولكن الماء تحت تصرفكم».

فملأ كؤوسهم مرة أخرى بشراب الشباب، وقد بقي منه في الإناء ما يكفي لإرجاع نصف شيب المدينة إلى عمر أحفادهم. اختطف ضيوف الدكتور الأربعة كؤوسهم من على المائدة وعبوا محتوياتها عبة واحدة، والفقاقيع تتلألأ على حفافيها. أكان ذاك وهجاً؟ ـ لقد بدا والغبة ما تزال تجري في حلوقهم انها فعلت تغييراً في كامل أبدانهم. غدت عيونهم صافية براقة، وأخذ ظل قاتم في الاسوداد بين خصل شعرهم

Twitter: @ketab_n

الفضي. وبدا حول المائدة ثلاثة رجال في منتصف العمر، وسيدة لم تكد تتجاوز عنفوان شبابها.

وصاح الكولونيل كيليغرو: «يا ارملتي العزيزة، انك لفاتنة!» وبينما كانت عيناه مثبتتين على وجهها، كانت ظلال الشيخوخة تهرب منه كما تهرب الظلمة من احمرار الفجر.

وكانت الأرملة الجميلة تعرف من قديم ان اطراء الكولونيل لم يكن دائماً يقاس بالحقيقة. ولهذا نهضت وركضت إلى المرآة وهي لا تزال ترتعب لئلا يلتقي نظرها بوجه دميم. وفي هذه الأثناء تصرف الرجال الثلاثة تصرفاً برهن على ان ماء ينبوع الشباب فيه بعض الخواص المسكرة. وما خلا الابتهاج الذي ملأ نفوسهم هناك دوار بسيط سببه زوال وقر السنين الفجائي. وبدا السيد غاسكوين ان عقله انصرف الى مواضيع سياسية، ولكن أبالماضي كانت تتعلق أم بالحاضر، أم بالمستقبل؟ لم يستطع ان يعرف بسهولة، لأن الأفكار والعبارات هي نفسها دائماً خلال هذه السنين الخمسين. فأخذ يجمجم بملء فيه جملاً عن البطولة، والمجد الوطني، وحق الشعب. وآناً آخر راح يتفوه بأشياء خطيرة بهمس ماكر ملؤه الشك والحذر، حتى كاد ضميره لا يستطيع معرفة ما في سره. ثم انقلب ليتكلم بنبرات موزونة ونغمة مليئة بالاحترام، كأنما كانت هناك أذن ملكية تصغي إلى تقلبات أحواله الحسنة. وفي كل هذه الأثناء كان الكولونيل كيليغرو يثرثر، مغنياً بمرح على ايقاع رنين كأسه، وعيناه ترمقان قوام الأرملة الغض الرشيق. وفي الناحية الأخرى من المائدة كان السيد مدبورن منهمكاً في حساب الدولارات والسنتات، وخلط فيها بشكل غريب مشروعاً لتزويد جزائر الهند الشرقية بالثلج، وذلك بسرج عدد من الحيتان إلى كتل الجليد القطبية...

أما الأرملة ويشرلي فانها وقفت أمام المرآة تجامل منحنية وتتكلف الابتسام لصورتها وتحييها كصديقة أحبتها أكثر من أي شخص آخر في الدنيا. واقتربت بوجهها من صفحة المرآة لترى ما إذا كانت الأخاديد وغضون ما حول عينيها قد تلاشت بالفعل. وتفحصت اذا كان الثلج قد ذاب كله عن شعرها كي تستطيع أن تلقي بقبعتها المحترمة جانباً. وأخيراً التفتت برشاقة وراحت تمشي بخطوات راقصة نحو المائدة.

Twitter: @ketab_n

وهتفت: «بحقك يا عزيزي الدكتور، من علي بكأس أخرى!».

فأجاب الدكتور المضياف: «بكل تأكيد يا سيدتي العزيزة، بكل تأكيد! انظري لقد ملأت الكؤوس سلفاً».

وايم الحق لقد انتصبت هناك الكؤوس الأربعة مترعة من هذا الماء العجيب، ورشاشه الذي كان يتطاير عند فورانه يشبه بريق الماس. وكان قد اقترب غروب الشمس وأمست الغرفة معتمة أكثر من أي وقت مضى، ولكن بهاءً رقيقاً أشبه بضوء القمر شع من داخل الإناء واستقر على الضيوف الأربعة وعلى قوام الدكتور المحترم، وقد جلس على كرسي عالي الظهر متقن الصنع والحفر: جليل الهيئة أشيب الرأس، يليق شكله بابينا الزمان الذي لم يستطع أحد أن يناقش سطوته سوى هذه الجماعة المحظوظة. وبينما هم يكرعون ثالث جرعة من ماء ينبوع الشباب كاد يرهبهم تعبير محياه الغامض.

ولكن في اللحظة التالية انبثقت في عروقهم طفرة لذيذة من الحياة الجديدة. لقد أصبحوا الآن في أوج شبابهم السعيد، أما الشيخوخة، وبطانتها التعسة من هموم وأحزان وأمراض، فقد تذكروها كحلم مزعج استيقظوا منه بفرح. وأضفى بريق الروح المشع الذي فقدوه باكراً، والذي بدونه تغدو مشاهد الحياة المتتابعة مجرد معرض صور باهتة، أضفى بسحره على جميع مشاريعهم المقبلة. لقد شعروا وكأنهم خلقوا من جديد في عالم جديد.

وراحوا يهتفون بنشوة: «نحن شباب! نحن شباب!».

والشباب كالشيخوخة يمحو جميع خصائص الكهولة المنطبعة بقوة ويستوعبها بتفاهم مشترك مع الشيخوخة. لقد أضحوا الآن حلقة من الشباب اليافعين المرحين، وكادوا يجنون بخصب سنيهم الماجنة. ولكن أكثر ما أحدثه مرحهم من تأثير فريد هو انهم أخذوا يهزأون من عجزهم وعاهاتهم التي كانوا ضحاياها لأمد قريب. ضجوا من الضحك على لباسهم ذي الطراز القديم، وعلى معاطفهم الواسعة الجوانب وصداريهم المهدلة، وعلى قبعة وفستان الفتاة الغضة. وراح أحدهم يعرج ماشياً في الغرفة كجد هرم مصاب بالنقرس، ووضع آخر نظارات على أنفه وتظاهر بامعان النظر في الأحرف

Twitter: @ketab_n

السوداء على صفحات كتاب السحر، وجلس ثالث على كرسي ذي مساند وحاول جاهداً تقليد الدكتور هايديغر بجلسته المبجلة. ثم راحوا يزعقون بحبور ويقفزون حول الغرفة. ومشت الأرملة ـ هذا إذا صح لنا تسمية فتاة غضة كهذه أرملة ـ بخفة ورشاقة إلى كرسي الدكتور ووجهها الوردي ينم عن مرح ماكر.

وهتفت: «يا دكتور، يا عزيزي الغالي، تعال ارقص معي!» وضج الضيوف الأربعة بالضحك لمجرد تصورهم قوام الدكتور العجوز المسكين وهو يرقص.

فأجاب الدكتور بهدوء: «أرجو ان تعفيني من هذا. اني كبير السن ومصاب بالروماتيزم، وأيام رقصي قد ولت منذ زمن بعيد، ولكن أياً من هؤلاء الشبان المرحين سيسر ولا شك بشريكة لها هذا الجمال الباهر».

وصاح الكولونيل كيليغرو: «ارقصي معي يا كلارا!»

وصرخ السيد غاسكوين: «لا، لا، بل انا الذي سأشاركها الرقص!»

وهتف السيد مربورن: «بل انا الذي وعدتني بيدها قبل خمسين سنة!»

وراحوا يتزاحمون حولها فأمسك واحد منهم براحتيها في قبضته الجامحة، وألقى آخر بذراعه حول خصرها، وغرس الثالث أصابعه في خصل شعرها اللامعة المنعقدة تحت قبعتها. فأخذت بدورها تعمل جاهدة في تخليص نفسها وهي موردة الوجنتين تلهث، وتكافح، وتوبخ، وتضحك، ونفسها الدافىء يمر على وجه كل منهم بدوره، ولكنها، مع كل ذلك، بقيت في طوقهم الثلاثي. لم يكن هناك من قبل مطلقاً مشهد أكثر حيوية من هذا التنافس الفتي، جائزته جمال ساحر آخاذ! ولكن خداعاً غريباً وقع، يعود سببه إلى العتمة السائدة في الغرفة وإلى البستهم الأثرية القديمة التي كانوا ما زالوا يلبسونها: فقد قيل بأن المرآة الطويلة عكست قوام ثلاثة رجال شيب متهدمين يتشاحنون بسخف على بشاعة امرأة عجوز شمطاء.

ولكنهم كانوا فتيين، وعواطفهم الملتهبة اثبتتهم كذلك. لقد بلغ بهم الهياج حد الجنون بسبب غنج الفتاة الأرملة التي لم تتكرم عليهم بمفاتنها، ولم تحجبها عنهم تماماً. فراح المتنافسون الثلاثة يتبادلون نظرات التهديد، والجائزة (القنيصة) الجميلة ما تزال في حوزتهم، ثم اشتبكوا في عراك، ومد كل منهم يده إلى حنجرة الآخر بشراسة. وفيما

Twitter: @ketab_n

هم يتأرجحون في صراعهم انقلبت المائدة وسقط الإناء وتحطم إلى ألف شظية، وانساب ماء الشباب الثمين يترقرق على أرض الغرفة، وقد أصاب جناحي فراشة طعنت في السن في أواخر الصيف، وكانت قد حطت هناك لكي تموت، فطارت الحشرة ترفرف بخفة في أجواء الغرفة واستقرت على رأس الدكتور هايديغر الأشيب.

وهتف الدكتور: «يا سادة، يا سادة! ـ وأنت يا سيدتي، يجب أن أحتج، وايم الحق، على هذا الشغب».

فتوقفوا دون حراك وهم يرتعدون، وخيل اليهم ان «الزمان الأشيب» كان يناديهم ليرجعوا من شبابهم المشرق إلى وادي السنين السحيق القرير المظلم. ورمقوا الدكتور الجالس على كرسيه المنقوش وهو ممسك بالوردة ذات الخمسين من العمر التي انقذها من بين شظايا الإناء المحطم. وباشارة من يده أخذ المشاغبون كل منهم مقعده باستعداد زائد، لأن جهدهم العنيف انهكهم رغماً عن فتوتهم التي كانوا عليها.

وصاح الدكتور هايديغر وهو ممسك بالوردة في ضوء شمس الغروب التي حجبتها الغيوم:

«يا لوردة سلفيا المسكينة! يظهر انها اخذت تذبل ثانية».

وهكذا كان. اخذت الوردة تذوي وتتقلص وهم يرمقونها إلى ان جفت وغدت قابلة للتفتت مثلما كانت عندما القى بها الدكتور في الإناء. ثم نفض عنها القطرات القليلة من الندى التي تعلقت بوريقاتها وأردف: «اني أعشقها هكذا، كأنها نضرة غضة». وضغط بالوردة الذابلة على شفتيه الذابلتين. وبينما هو يتكلم رفرفت الفراشة على رأس الدكتور الأشيب وسقطت على الأرض.

ارتجف الضيوف ثانية، وسرت فيهم شيئاً فشيئاً قشعريرة غريبة لم يعرفوا كنهها، أمن الروح هي أم الجسد؟ ورمق كل منهم الآخر وتخيل ان كل لحظة هاربة اختطفت منهم فتنة وتركت موضعها اخدوداً عميقاً لم يكن له وجود من قبل. أكان هذا وهماً؟ أم ان تغيرات حياة برمتها ازدحمت في فسحة وجيزة كهذه، وانهم الآن أربعة أشخاص مسنين جالسين مع صديقهم القديم الدكتور هايديغر؟

وهتفوا بنغمة حزينة: «هل شخنا ثانية بسرعة كهذه؟»

Twitter: @ketab_n

حقاً لقد غدوا هكذا. لأن مـاء الشباب امتلك ميـزة عابـرة أكثر ممـا للخمر. والهذيان الذي خلقه تبخر وتلاشى. أجل! لقد شاخوا ثـانية. أمـا الأرملة، بدافـع مشحون بالقشعريرة اظهرها انها مـا زالت امرأة، فغـطت وجهها بيـديها المعـروقتين وتمنت لو أن غطاء التابوت فوقه، لأنه لن يعود جميلاً أبداً.

قال الدكتـور هايـديغر: «نعم يـا اصدقـائي، انكم شيوخ مـرة ثانيـة وها ان ماءالشباب مهروق بسخاء على الأرض. ولن أحزن عليـه، وحتى لو انبجس ينبـوعه أمام عتبة بيتي، فانني لن انحني لأغمس شفتي فيه ـ لا، حتى ولو دام هذيانه المحموم سنوات بدلاً من لحظات. هذا هو الدرس الذي علمتموني إياه!»

ولكن اصدقاء الدكتور الأربعة لم يعلموا انفسهم درساً كهذا. وصمموا على ان يحجوا في القريب العاجل إلى فلوريدا صباحاً، وظهراً، ومساءً، لعلهم يشربون من ماء ينبوع الشباب.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

زوجها الذي هرب

بقلم: آرثر موريسون
انكليزي (١٩١٦ -   )

لا يزال تصرف سيمونز المشين نحو زوجته موضوع استغراب شديد بين الجيران. كانت النساء الأخريات يعتبرنه زوجاً «مثالياً» وكانت السيدة سيمونز، ولا ريب، زوجة ذات ضمير حساس. وكل امرأة في ذلك الحي تشهد بأنها تعبت وشقيت في سبيل ذلك الرجل أكثر بكثير من أن يكون الحق لأي زوج من الأزواج أن يطالب به. والآن هذا جزاؤها منه. لعله جن فجأة؟

كانت السيدة سيمونز قبل ان تتزوج من صاحبنا سيمونز، أرملة السيد فورد، وكان هذا الأخير حمالاً على ظهر باخرة غير تابعة لخط بحري منتظم. ولكن هذه الباخرة وجميع من على ظهرها غرقت في البحر - ودخل في روع الأرملة ان هذا قضاء عادل حل به نتيجة تمرد منه دام سنين طويلة إلى ان انتهى به إثمه إلى مزاولة العمل على متون البحار، بل، ومزاولته كحمال! وذلك تدهور مريع لبراد ميكانيكي قدير، وقد بقيت عاقراً اثنتي عشرة سنة مع السيد فورد، وبقيت عاقراً كذلك مع سيمونز بعد زواجها منه.

أما سيمونز فالكل يؤكد انه كان محظوظاً بهذه الزوجة القديرة. كان يمتهن

Twitter: @ketab_n

النجارة وكانت معرفته فيها لا بأس بها، ولكنه لم يكن من الرجال المقبلين على الحياة. ما كان أحد ليستطيع ان يتكهن ما الذي سيحل بتومي سيمونز لو لم تكن هناك امرأة اسمها السيدة سيمونز تعتني به. وهو رجل هادىء وديع، ذو وجه صبياني فيه شعر هش مبعثر على العارضين والشاربين. لم تكن له أية عادات لازمة (حتى غليونه فارقه بعد زواجه). غير ان السيدة سيمونز زرعت في نفسه فضائل شتى غريبة. فهو يذهب صباح كل أحد الى الكنيسة بوقار، وقبعة عالية تعمر رأسه، ويضع بنساً واحداً في الطبق تعطيه إياه لهذا الغرض من كسبه الأسبوعي، وبعد رجوعه وباشراف السيدة سيمونز ينزع أحسن ثيابه وينظفها بفرشاة بكل اهتمام ومشقة. وفي أيام السبت يبدأ بعد الظهر بتنظيف السكاكين والشوكات والأحذية والقدور والشبابيك بصبر جميل وضمير مرتاح. وفي أيام الثلاثاء يأخذ الثياب للكي، وفي ليالي السبت يرافق السيدة سيمونز إلى السوق ليحمل الرزم.

أما فضائل السيدة سيمونز الشخصية فقد كانت أصيلة بسيطة ومتعددة. لقد كانت مدبرة ممتازة، وكل بنس من شلنات تومي الثمانية والثلاثين الأسبوعية كانت تفيد منه أعظم فائدة. ولم يكن تومي ليجرؤ على التخمين عن المقدار الذي ادخرته منها. ومجرد النظر إلى نظافتها في شؤون البيت الزوجية يبعث على الذهول. لقد كانت تستقبل سيمونز عند الباب الخارجي كلما اتى الى البيت، وهناك يستبدل حذاءه بنعل وهو يوازن نفسه بمشقة وألم من رجل إلى أخرى على البلاط البارد. كان هذا لأنها غسلت الدهليز والممر بمساعدة زوجة العائلة القاطنة في الطابق السفلي، ولأن بساط الدرج كان بساطها. وبعد الشغل كانت تشرف على زوجها حتى نهاية عملية «تنظيف نفسه» بدقة وحذر، فتضع نفسها بين الجدران وبين الرشاش الذي قد يتطاير عليها. واذا حدث، رغم جهدها المبذول، ان بقيت بعض البقع ظاهرة فانها تجهد نفسها في طبع تلك الحقيقة على ذاكرة سميونز، وتسرد له مطولاً تفاصيل الأمور التي تثبت انانيته الجحود. في البدء كانت ترافقه دوماً مرافقة الخفير إلى حوانيت الملابس الجاهزة، فتنتخب له ما يروق لها ثم تدفع الثمن بنفسها ـ لأن الرجال دوماً أشبه بالحمقى وأصحاب الحوانيت يتلاعبون بهم كيفما شاؤوا. ولكن سرعان ما تخطت هذه العقبة حين خطر ببالها ان تصنع ثياب سيمونز بنفسها. وكان التصميم إحدى فضائلها. فابتدأت بعد ظهر ذلك اليوم بخياطة بدلة من قماش صوفي مضرب صاخب اللون

Twitter: @ketab_n

قصته على طراز بدلة قديمة، وليس ذلك فحسب، بل كانت البدلة جاهزة يوم الأحد! فغر سيمونز فاه دهشة لهذا الانجاز الباهر، اقحمته فيها ودفعته إلى الكنيسة قبل ان يسترجع رشده. . . غير انه وجد انها لم تكن مريحة تماماً. فالسروال ضيق تحت ركبتيه ولكنه يتهدل بارتخاء وراء عقبيه. وعندما جلس وجد انه يجلس على متاهة من الطيات والدروز القاسية. وكانت ياقة سترته تشد كتفه بكتفه الأخرى، بينما انتفخ هيكلها بسخاء كالحقيبة اسفل خاصرته.

لقد اعتاد على المنغصات يتقبلها كأمر مسلم به، ولكن ذلك لم يكن ليجعله على وئام مع زملائه المستهترين في المشغل. إذ بينما تخيط السيدة سيمونز بدلات محكمة متتالية، تخاط كل منها بموجب سابقتها، كانت هفوات تصميمها تنمو وتتوطد حتى تصبح مبادىء، بل إنها تشتد بروزاً وبشاعة. وغمزات سيمونز كلها ذهبت سدى. فقد اشار اليها من طرف خفي بألا ترهق نفسها بالعمل، وان الخياطة تلف العينين، وان هناك دكان خياط جديداً في الطرف الآخر من الطريق، رخيص جداً، حيث إن. . . فأسكتته بحدة قائلة: «إي والله صحيح! انك دائم التفكير بالآخرين، بينما رحت تجلس هناك وانت تمثل الكذب بعينيه أمام زوجتك! وكأنني لا استطيع ان اقرأك ككتاب مفتوح يا توماس سيمونز. كثيراً ما تهتم باجهادي بعد ان نلت كل ما تبتغيه. تبعثر النقود وتقذف بها كالقاذورات في الشارع على حفنة من الخياطين المختلسين، وانا هنا أكد وأشقى كالعبيد لكي أوفر الفلس الواحد، وهذا ما ألقاه منك جزاءً وشكوراً. لعلك تحسب انك تستطيع ان تلتقط النقود من عرض الشارع؟ لا شك انني كنت سأحظى باهتمام اكبر لو اني استلقيت على السرير طيلة اليوم، كما تفعل الأخريات». وهكذا تجنب توماس سيمونز الموضوع، فلم يعد يتذمر حتى عندما صممت ان تقص له شعره أيضاً. . .

وهكذا دام حظه الوادع لسنين عدة. ثم حل مساء ذهبي من أمسيات الصيف، حين حملت السيدة سيمونز سلتها وذهبت لكي تتسوق وتركت سيمونز وحده في البيت. فغسل أواني الشاي ووضعها جانباً، ثم انصرف للتفكير في سروال جديد كان قد انجز في ذلك اليوم وعلق وراء باب غرفة الجلوس. علق هناك بكامل شكله. . بريء المقعد، قصير الساقين، طويل الخصر، بزخارف فاضحة لم يلبس مثلها قط من قبل. وإذ هو يرمقه استيقظ فيه شيطان الخطيئة الأصلية الصغير، وعربد في صدره.

Twitter: @ketab_n

لقد خجل منه بالطبع لأنه يعي الجميل الذي هو مدين به لزوجته لصنعها ذلك السروال عينه، ناهيك عن النعم الأخرى التي تمن بها عليه. ومع ذلك فقد كان الشيطان الصغير هناك، وكانت اقتراحاته الدنيئة كثيرة جداً، لا سيما بشأن ذلك السروال.

قال له الشيطان الصغير أخيراً: «اقذف به في برميل القمامة! إنه خير مكان يليق به».

فأجفل سيمونز وهو في أشد ما يكون من الهول من ذاته الشريرة، وفكر برهة في غسل أواني الشاي مرة أخرى على سبيل تأديب النفس، ثم توجه نحو الغرفة الخلفية، ولكنه رأى من صحن الدرج أن الباب الخارجي مفتوح.. لعل ابن القاطنين في الطابق الأسفل هو السبب في ذلك. غير أن بقاء الباب الخارجي مفتوحاً أمر لا تقبل به السيدة سيمونز. فنزل سيمونز لاغلاقه كي لا تغضب عليه عند رجوعها. وبينما هو يغلق الباب القى نظرة على الشارع.

كان هناك رجل يتسكع على الرصيف ويختلس النظر إلى الباب باستطلاع. كان مدبوغ الوجه ويداه غائرتين في جيبي سرواله الأزرق المترهل، وعلى مؤخرة رأسه قبعة من القبعات السائدة بين حمالي الموانىء. خطا خطوة فجائية نحو الباب وقال: «السيدة فورد هل في البيت؟».

فحملق فيه سيمونز نحواً من خمس ثوان ثم قال: «ها؟»

«كانت من قبل السيدة فورد ـ والآن اسمها السيدة سيمونز، أليس كذلك؟» قال الغريب هذا وهو يلقي نظرة مختلسة شريرة لم يهضمها سيمونز ولم يفهمها.

قال سيمونز: «لا، انها ليست في البيت الآن».

ـ «ألست أنت زوجها؟»

ـ «بلى.»

نزع الرجل غليونه من فمه واظهر اسنانه في شبه ضحكة مغتصبة طويلة، ثم قال أخيراً: «صدقني يظهر انك من النوع الذي تحبه هي من الرجال». ثم أظهر

Twitter: @ketab_n

اسنانه في ضحكة خبيثة مرة أخرى. وعندما رأى ان سيمونز قد استعد لغلق البـاب وضع قدمه على العتبة ويده على الباب، وقال: «لا تكن عجولاً يا صديقي. لقد اتيت إلى هنا لكي اتكلم معك قليلاً كلام رجل يخاطب رجلاً، ألا ترى ذلك؟».

فانزعج تومي سيمونز ولكن الباب لم يكن ليغلق. وهكذا أخذ يناقشه: «ماذا تريد؟ إني لا أعرفك» «إذن، إذا كنت تسمح لي، سأعرف نفسي». قال هـذا ولمس طاقيته بحركة تواضع ساخرة، وأردف: «أنا بوب فورد، قادم من ملكـوت الله، إن صح هذا القول. غرقت ومت قبل خمس سنوات. واتيت الآن لأرى زوجتي».

وفي أثناء هذه الكلمـة كان فكـا تومي سيمـونز ينفـرجان أكـثر فأكـثر. وعند انتهائها غرس أصابعه في شعره وألقى نظرة على الحصير، ثم نظر إلى كوة الضوء فوق الباب وأجال طرفه عبر الشارع، وبعدها رمق زائره بنظرة ثابتة، ولكنه لم يجد ما يقوله له.

كـرر الرجـل: «اتيت لأرى زوجتي وبوسعنـا أن نصفي المسألـة الآن، رجـلاً لرجل».

أغلق سيمونز فمه ببطء واقتاد الزائر إلى الطابق العلوي آلياً، وأصابعه ما تزال في شعره، والشعور بحقيقة الوضع ينغرس شيئاً فشيئاً في دماغه. واستيقظ الشيطان الصغير فيه مرة أخرى. افرض ان هذا الرجل هو فورد؟ افرض انه ادعى بـزوجته؟ أتكون ضربة قاضيـة؟ هل ستـزيحه عن الـطريق أم لا؟ فكر في السـروال، في أواني الشاي، وفي أواني الغسيل والكي، في السكاكين، في القدور، في الشبابيك فكر فيها كمن قترف خطيئة عن قصد.

وعـلى صحن الدرج قبض فـورد على ذراعـه وسألـه في همس مبحـوح: «كم سيطول الوقت بها قبل ان ترجع؟»

وقبل ان يجيب سيمونز كرر السؤال عدة مرات في دماغه ثم قال: «نحو ساعة على الأغلب».

قال فورد وهو يجيل الطرف حوله: «آه، لقد قضيت هنا وقتاً مريحاً تنعمت به. هذه الكراسي وهذه الأشياء الأخرى» ـ ولمز بغليـونه نحـوها ـ «كـانت ملكها، أعني

Twitter: @ketab_n

ملكي أنا، ولأقلها لك بصراحة، رجلاً لرجل» ثم جلس وأخذ ينفث غليونه بتأمل وتابع: «حسناً ها أنا هنا مرة أخرى بوب فورد، الهالك الراحل، الذي غرق في البحر! ولكن ها انا لم أهلك، كما ترى؟» ـ وغمز بطرف غليونه صدرية سيمونز ـ «اني لم أهلك. ولكن لماذا؟ لأن ملاحاً ألمانياً التقطني، وتشبثنا بالصاري معاً، ثم بقيت لبضع سنين وأنا أهيم منذ ذلك الحين على وجهي، والآن» ـ ورمق سيمونز بثبات ـ «لقد رجعت لكي أرى زوجتي».

فقال سيمونز مشدوهاً: «انها ـ انها لا تحب التدخين هنا في البيت».

فأجاب فورد: «كلا، اني اراهن على انها لا تحب ذلك» ثم نزع غليونه من فمه واخفضه بيده على قدر ما استطاع ثم أردف: «إني أعرف زوجتي حنة. كيف تجدها انت؟ هل تجعلك تنظف الشبابيك؟»

فأقر سيمونز بذلك وقال بعدم ارتياح: «والله، انا ـ بالفعل اساعدها في بعض الأحيان، طبعاً».

ـ «آه، والسكاكين أيضاً، إني أراهن، والقدور البراقة. إني اعرف ذلك كله». ثم نهض وانحنى ليرى قفا سيمونز ـ «با! اعتقد انها تقص لك شعرك انت أيضاً! لعنني الله! تماماً، هذا أيضاً مما يلذ لها ان تفعله!»

وأخذ يرمق سيمونز الخجل من نواحٍ متعددة بتعال، ثم رفع إحدى ساقي السروال المعلق وراء الباب وقال: «إني أراهن انها هي التي خاطت لك هذا. ما من أحد غيرها يستطيع أن يصنعه على هذا الشكل. لعنني الله! انه اردأ حتى من هذا الذي تلبسه الآن».

وابتدأ الشيطان الصغير يأخذ بزمام النقاش كما يشتهي. لو استرجع هذا الرجل زوجته، لعله يضطر إلى لبس السروال. . .

وأردف فورد: «أي والله ما تغيرت ولا تحسنت!»

وابتدأ سيمونز يشعر بأن ذلك لم يعد من شأنه. من الواضح ان حنة كانت زوجة هذا الرجل الآخر، وعليه ان كان شريفاً أن يقر بالحقيقة. لقد صورها له

Twitter: @ketab_n

الشيطان الصغير كقضية واجب لا بد منه.

ثم قال فورد فجأة: «طيب الوقت قصير ولم نصل إلى نتيجة بعد. لن أكون شديداً معك يا صاح، ولكن عليّ أن أتمسك بحقوقي على أكمل وجه. وأنا إذ أراك شاباً تتفهم الأمور وتعيش مستقراً هنا بطمأنينة في عش الزوجية» ـ وبدفقة من السخاء أضاف: «أنا سوف والله، نعم، سوف أوجز القضية اللعينة ثم أهرب تعال. سأحدد لك مبلغاً كرجل أمام رجل. والمبلغ مقطوع ونهائي، لا أكثر ولا أقل: خمسة دنانير تحل المشكلة».

لم يكن لدى سيمونز خمسة دنانير ـ ولا حتى خمسة بنسات ـ فقال: «معاذ الله ان أقف عائقاً بين رجل وزوجته. لا والله أنا الذي سأهرب».

فقال فورد بسرعة وهو يقبض على ذراع سيمونز: «لا، لا تفعل ذلك. سأرخص المبلغ قليلاً ثلاثة دنانير ـ معقول أليس كذلك؟ ثلاثة دنانير ليست مكافأة كبيرة لكي اذهب عنك واتركك إلى الأبد ـ إلى حيث تهب الرياح العاصفة، كما يقولون ـ ولن أرى زوجتي مرة أخرى أبداً، خيراً كان ذلك أم شراً. ثلاثة دنانير واخلي لك الجو. والمبلغ معقول، اليس كذلك؟»

فأجاب سيمونز بحرارة: «كلامك معقول ولا شك، بل انه كلام رجل شريف ـ شريف للغاية. ولكنني لن استغل طيبة قلبك على هذا النحو الحقير يا سيد فورد. انها زوجتك وعيب علي ان اقف بينكما. اني اعتذر. تريث انت هنا وخذ حقوقك كاملة. أنا الذي سأخلي لك الطريق، وسأفعل!»... خطا خطوة نحو الباب.

فصاح فورد وهو يقف بين سيمونز والباب: «قف! لا تتسرع بالأمور: فكر بالخسارة التي ستتكبدها عندما ترى انه لا بيت لديك تأوي اليه، ولا أحد يهتم بك، وغير ذلك من أمور الدنيا. انه لشيء مريع ما رأيك بدينارين؟ سأنهيها ولن نتشاجر: دينار واحد. كلام الرجال مع الرجال، ونفض الأمر. من السهل ان تدفع ديناراً واحداً ـ لقد كادت الساعة تنتهي ـ دينار واحد يكفي. أنا سوف ـ»

وبغتة تعالت قرعتان عاليتان على الباب الخارجي. قرعة مزدوجة في الحي

Twitter: @ketab_n

الشرقي هي دائماً لسكان الطوابق العليا.

فسأل بوب فورد واجفاً: «من ذلك؟»

فاندفع توماس سيمونز نحو الدرج وهو يجيب «سأرى من يكون».

سمعه بوب فورد وهو يفتح الباب الخارجي، ثم تسلل نحو النافذة ورأى تماماً تحته قمة قبعة نسائية تختفي، ثم تطرق إلى اذنيه من الداخل صوت نسائي لم يغب عن ذاكرته.

قال الصوت بحدة: «أين انت ذاهب حاسر الرأس في هذه الساعة؟»

فأجاب سيمونز: «والله يا حنة ـ هناك ـ هناك شخص فوق يريد ان يراك.» وعلى قدر ما استطاع بوب فورد ان يرى، رأى رجلاً يهرول راكضاً في الشارع في عتمة الغسق. يا للعجب! لقد كان توماس سيمونز!.

وصل فورد إلى صحن الدرج في ثلاث خطوات واسعة. كانت زوجته ما تزال واقفة أمام الباب الخارجي تحملق في أثر سيمونز. فنكص إلى الغرفة الخلفية وفتح النافذة وتدلى من سقف بيت الغسيل الى الفناء الخلفي وتسلق مستميتاً على السياج، واختفى في العتمة، ولم يره انسان.

هذا كان سبب هجر سيمونز النذل لزوجته، تحت بصرها وسمعها، وهو ما زال موضوع قيل وقال بين الجيران حتى اليوم.

Twitter: @ketab_n

نهاية الحبل

بقلم: جون كوليير
انكليزي (١٩١٨ -   )

كان هنري فريزر، الذي كان واثقاً بان كل شيء تقريباً ينجز بواسطة المرايا، قد وجد له عملاً في الهند. ولم تكد قدماه تطآن الشاطىء حتى انفجر في ضحكة عالية جوفاء. ولما سأله أولئك الذين اتوا لمقابلته عن سبب مرحه اجابهم انه يضحك لمجرد تفكيره في خدعة الحبل.

وراح يحدث اصواتاً مجفلة مشابهة، ويعطي نفس الايضاح عندما تناول وجبة هندية خفيفة مع الذين رحبوا به رسمياً. وكذلك كان تصرفه في الميدان والسوق والنادي وملعب البولو. ثم ذاعت شهرته من بومباي حتى كلكوتا بأنه الرجل الذي يهزأ من خدعة الحبل الهندية. وتباهى بهذه الدعاية.

ومهما يكن من امر فانه بينما كان ذات يوم جالساً في منزله البسيط وقد بلغ به الضجر منتهاه، دخل عليه خادمه الصبي واعلمه، بعد أن القى عليه السلام، ان هناك مشعوذاً على الباب يطلب شرف تسليته واقناعه بقيامه بخدعة الحبل الهندية. فقبل هنري بذلك وهو يضحك من صميم قلبه.

وفي باحة الدار المغبرة وقف هندي هزيل نحيل ومعه غلام يافع رشيق، وسلة

Twitter: @ketab_n

ضخمة من القصب، وسيف كبير بتار. ثم سحب الهندي من السلة حبلاً قوياً يبلغ طوله ثلاثين قدماً. وبعد ان قام بحركة معينة بيديه مرة او مرتين، قذفه في الهواء عالياً وثبت الجبل هناك.

وبطفرة رشيقة قفز الغلام وقبض على الحبل واخذ يتسلقه بيديه، يد تعلو يـداً كالقرد. وعندما بلغ القمة تلاشى في الهواء وراح هنري يقهقه.

ونظر المشعوذ الى الأعلى ووجهه ينم عن القلق، واخذ يزعق ويصرخ بالصبي منادياً اياه كي يهبط، ثم انقلب يأمره بالنزول، ثم جعل يستعطفه، وبعـد ذلك راح يشتم ويلعن بصورة شنيعة. وبدا كأنما الصبي لم يعره اهتماماً قط. وضـج هنري في ضحكه.

وضع الهندي سيفه الهائل البشع بين اسنانه وتسلق الحبل بخفة الملاحين، ثم اختفى هو ايضاً على قمته. وازداد هنري مرحاً.

وبعد برهة سمع عويلاً وانيناً آتيين من الفضاء الفارغ، ثم انبعث صراخ يجمد له الدم في العروق. وهوت ساق وارتطمت بالارض، وتلتها ذراع، ففخذ، ثم رأس ومفاصل أخرى. واخيراً (إذ لم يكن هناك للسيدات وجود) سقط الجانب الخلفي من الجسم عارياً وارتطم بالأرض كالقنبلة. وراح هنري من الضحك في نوبة.

ثم انزلق المشعوذ نازلاً وهو ممسك الحبل بيد واحدة ويثرثر باهتياج. وبعـد ان حيا هنري بالسلام اللائق قدم له سيفه الملطخ بالدم ليفحصه. وتمايل هنري وتأرجح في كرسيه من الضحك.

وبدا بعد ذلك كأنما قد تملك الهندي تأنيب الضمير، فأخذ يجمع اشلاء غلامه الصغير وهو يرثي كل عضو من تلك الاعضاء المبتورة الشنيعة، ويتلو عليهـا كلمات التعزية بسخاء، ثم يضعها في سلته الكبيرة.

في تلك اللحـظة شعر هنـري بأن الـوقت قد حـان للتجربـة الأخيرة لكشف اللعبة. واستعد ان يراهن الفاً لواحد بأنهما قد ملآ كل تلك الباحة وحشراها بالمرايا قبل ان ينادياه للخروج، ثم سحب مسدسه وافرغ رصاصاته الست في نـواح مختلفة

Twitter: @ketab_n

وهو يتوقع ان يحطم مرآة واحدة على الأقل من تلك المرايا الخادعة.

لم يحدث شيء من ذلك. بل تملك الهندي الجزع، فالتفت بحركة سريعة على رجل واحدة كراقص بارع، ثم تفحص التراب بين رجليه وامسك بحية صغيرة حقيرة ثخنها كقلم الرصاص قتلت باحدى رصاصات هنري الطائشة. ونفث نفثة ارتياح، ثم لمس عمامته بأدب جم واستدار مرة اخرى، وقام بحركة بيديه فوق السلة وكررها مرتين، فقفز الصبي منها في الحال وهو يتثنى برشاقة، صحيحاً معافى، ويبتسم ابتسامة ماكرة.

وجذب الهندي الحبل بسرعة وكومه. ثم اتى يتذلل امام هنري معبراً له عن عميق امتنانه على انقاذه من تلك الحية الصغيرة الخبيثة، التي كانت لدغة واحدة منها كافية لتجعل الانسان يدور كالدولاب لثوان معدودة ثم يسقط بعدئذ ميتاً كجذع مخلوع.

وقال الهندي: «لولا رحمة الله لكنت انا الآن من الهالكين، ولبقي غلامي هذا الصغير الخبيث الذي هو موضع اعتزازي وابتهاجي مبتور الاعضاء مبضعاً في السلة، حتى يتنازل خدم الصاحب ليلقوا به الى التماسيح. ان حياتنا لعديمة القيمة، وكل ما نملك من اشياء زهيدة نضعها تحت تصرف الصاحب.»

فقال هنري: «هذا حسن. ولكن كل ما اطلبه منك هو ان تريني كيف تنجز خدعة الحبل، وإلا سينقلب الضحك علي واغدو هزأة بين الناس.»

فقال الهندي بخشية وحياء: «ألا يفضل الصاحب معرفة سر عقار ممتاز يعيد نمو الشعر؟»

فقال هنري: «كلا، كلا. لا شيء سوى خدعة الحبل.»

قال الهندي: «لدي سر دواء مقو فريد قد يجده الصاحب (ليس الآن بالطبع، بل في الحياة الأخرى) ذا...»

فقاطعه هنري: «الخدعة، ارني إياها دون ابطاء.»

فقال الهندي: «حسناً إذن. ليس هناك في الدنيا شيء اهون او ابسط. ما

Twitter: @ketab_n

عليك إلا ان تأتي بحركة بيديك، هكذا ـ»

فقاطعه هنري قائلاً: «قف رويداً. هكذا؟»

قال الهندي: «تماماً. ثم أقذف الحبل في الهواء ـ هكذا. أرأيت؟انه يقف.»

فقال هنري: «إي والله.»

قال الهندي: «أي صبي يستطيع التسلق عليه. اصعد يا غلام وأر الصاحب.»

وتسلق الصبي الحبل وهو يبتسم واختفى على قمته في الهواء.

قال الهندي: «والآن ليسمح لي الصاحب، وسأرجع حالاً».

وتسلق الحبل بخفة، وقذف بالغلام مقطعاً، وهبط راجعاً بسرعة الى هنري. وقال هو ينتشل الساقين والذراعين عن الارض اثناء كلامه:

«كل هذا باستطاعة أي انسان ان يقوم به. غير ان الخدعة تحتاج الى قليل من البراعة والدقة عند القيام بهذه الحركة في هذه المرحلة. ارجو الصاحب ان يتنازل ويلاحظ سيرها بعناية عن كثب ـ هكذا.»

فقال هنري: «هكذا؟»

ـ «تماماً. ها انك قد اتقنتها!»

ـ «انه لأمر يثير غاية الاهتمام. ألا اخبرني، ما الذي يوجد هناك، على قمة الحبل؟»

فقال الهندي بابتسامة عريضة: «آه يا صاحب، إن ذلك لأمر يبعث على الكثير من.. البهجة والانشراح.»

وعندما انهى كلامه هذا حياه بسلام لائق ثم مضى آخذاً معه حبله وسلته الضخمة وسيفه الكبير البشع يصحبه غلامه الصغير الماكر، وبقي هنري وحيداً وهو مكتئب بعض الشيء. كان المشهور عنه من ويكان حتى ممر خيبر بانه الرجل الذي يهزأ بخدعة الحبل الهندية، اما الآن فبات لا يستطيع الضحك ابداً.

Twitter: @ketab_n

وصمم على ان يحافظ على هدوئه في هذه الناحية، ولكن ذلك لسوء الحظ لم يكن كافياً. كان من المتوقع منه ان يضحك كالحصان عندما يكون في النادي او الميدان او السوق. وفي الهند يحتم على المرء ان يقوم بما هو متوقع منه. فغدا هنري غير محبوب ابداً. ثم اشيعت حوله اشاعات كاذبة ونصبت له الدسائس حتى طرد من وظيفته.

كان هذا عاملاً سيئاً زاد من ضنكه، لانه في تلك الاثناء تزوج من امرأة صارمة التقاطيع قوية البنية حسنة الهندام ذات عين نفاذة، حازمة الطبع لا تقبل الأخذ والرد، شديدة الغيرة كابليس. ولكنها من كافة الأوجه كانت امرأة من الطراز الاول عند كل من يعرف كيف يعطيها حقها. لقد حثت هنري على ان يهاجر الى امريكا، عساه ان يجمع ثروة هناك. فوافق على ذلك. ثم حزما امتعتهما وتوجها الى امريكا.

وقال هنري عندما وقفا ونظرا الى سماء نيويورك من على ظهر الباخرة:

«اني ارجو ان اجمع تلك الثروة.»

فقالت: «لا ريب في ذلك. وعليك ان تصر عليها.»

فأجاب: «حسناً جداً يا عزيزتي.»

غير انه بعد ان حط عصا الترحال اكتشف ان الثروات قد استنزفت جميعها. وهذا اكتشاف ينتظر كل الذين يذهبون الى امريكا طمعاً في الثروة. وبعد بضعة اسابيع من التنقل من مكان الى آخر غدا مهيأ لتقليص امانيه، حتى اكتفى بأمل الحصول على عمل فقط، ومن ثم تهيأ لقبول عمل اقل شأناً، واخيراً تاق الى الحصول على عمل لا يؤمن له اكثر من وجبة من الطعام وسرير لليلة.

لقد وصلا الى هذا الدرك من الضيق في بلدة صغيرة من الغرب الأوسط. فقال هنري: «لم يبق لنا حيلة يا عزيزتي إلا ان نلجأ الى لعبة الحبل الهندية.»

وعلا صوت الزوجة بمنتهى المرارة: كيف ترضى لنفسها بأن تقوم بلعبة كهذه في بلدة من الغرب الاوسط وامام جمهور منه؟ ثم راحت تنحي عليه باللائمة على فقدان عمله وعلى رجولته المهلهلة، وعلى تركه كلبها الصغير يجري في ماء الشط في الهند، وعلى نظرة القاها على فتاة فارسية في بومباي.

Twitter: @ketab_n

ولكن كان لتحكيم العقل وصوت الجوع الكلمة العليا في النهاية. فرهنا آخر حلية لديها واقتنيا حبلاً وحقيبة واسعة وسيفاً كبيراً قديماً بشعاً اكله الصدأ، وجداه في حانوت للخردوات.

ولكن الزوجة عندما شاهدت السيف رفضت المضي في المهمة إلا اذا اعطيت الدور الرئيسي وقام هو بدور الغلام. فقال هنري وهو يجس بابهامه المتوجسة حد السيف البشع المتثلم بفعل الصدأ: «ولكنك تجهلين القيام بالحركات المطلوبة.»

فقالت: «عليك ان تعلمني اياها، واذا لم تجر الامور كما تشتهي لا تلم إلا نفسك.»

وهكذا أخذ هنري في تعليمها الى ان تأكد انها اتقنت تعليماته وتمكنت منها الى حد الكمال، ولم يبق هناك ما يفعلانه سوى ان يلطخا نفسيهما بالقهوة. ولف هنري عمامة على رأسه وقطعة من القماش على حقويه كيفما اتفق. ولفت زوجته غلالة حول نفسها على الطريقة الهندية، ووضعت منفضتين للسجاير على صدرها استعارتهما من الفندق، ثم قصدا مكاناً مهجوراً ملائماً، وجمعا حشداً من الجمهور، وبدأ العرض.

وارتفع الحبل يندفع في الفضاء، ثم استقر وثبت. وهمس الجمهور بكثير من اللغط وابتسامات السخرية بأن كل شيء ينجز انه إنما هو بواسطة المرايا. وتسلق هنري الحبل بيديه، الواحدة منهما تعلو الاخرى وهو ينفخ ويلهث. ولكنه ما ان وصل قمته حتى نسي الجمهور والتمثيل، ونسي زوجته، ونسي حتى نفسه. الى هذا الحد بلغت به الدهشة والسرور بما رأت عيناه هناك.

وجد نفسه يتسلق صاعداً من داخل شيء اشبه بالبئر الى حيث هناك ما يشبه الأرض الثابتة. والمشهد الذي رآه حوله لا يشبه المشهد الذي فارقه تحته في شيء. كان المكان شبيهاً جداً بفردوس هندي، مليء بالتلال والوديان المكتظة بالأشجار والعرائش والطيور الملونة الغريبة ومباهج اخرى لا تحصى. غير ان ابتهاجه ودهشته لم يتأتيا بفعل هذه المشاهد بقدر ما تأتيا من مرأى فتاة كاعب جميلة متكئة في احدى هذه العرائش التي كانت مكسوة ومجدولة باكاليل العشق والهيام. وبدا على هذه المخلوقة التي تخلب اللب، والتي لم تكن سوى حورية مجسمة بثوب مهفهف شفاف، انها في

Twitter: @ketab_n

انتظار هنري نفسه، إذ انها راحت تحييه بنشوة زائدة.

ولما كان هنري ذا عواطف قابلة للالتهاب، فانه القى ذراعيه حول عنقها وتطلع بعمق في عينيها. وكانت عيناها معبرتين الى درجة غريبة، وبدتا كأنهما تقولان له: «لماذا لا تتمتع والحياة في عنفوانها؟»

وجد الفرصة مواتية فطبع قبلة طويلة على شفتيها. ولاحظ بقلق عابر ان زوجته كانت تصيح به وتزعق من اسفل. وفكر: «أية مخلوقة رقيقة الاحساس لبقة حصيفة بامكانها ان تثير هذا الصراخ والضجيج في لحظة كهذه؟» ثم صرفها عن افكاره.

ولكن بوسعك ان تتخيل مبلغ كمده وخيبته عندما دفعته فتاته الحلوة من بين ذراعيها بغتة. ادار وجهه فرأى زوجته وهي تتسلق حافة المكان، وقد احمر وجهها احمراراً رهيباً وعيناها تشعان بغضب شيطاني، والسيف الجبار بين اسنانها.

حاول هنري النهوض. ولكنها سبقته، وقبل ان يضع رجلاً واحدة على الأرض امسكت بسيفها البتار المثلم ودفعته به من حقويه، فكبا ساقطاً يتمرغ تحت قدميها. وصرخ: «لخاطر الله! ان القضية كلها خدعة. انها جزء من التمثيلية ولا تعني شيئاً ابداً. تذكري جمهورنا. والعرض يجب ان يستمر.»

وهوت بالسيف على ذراعيه وساقيه قائلة: «انه سيستمر!»

وصرخ: «آه من الثلمات! ارجوك يا عزيزتي ان تشحذيه على الحجر قليلاً.»

فقالت وهي تهوي عليه تقطيعاً: «انه يصلح لك يا افعوان.» وللحال غدا هنري جذعاً بلا اطراف.

وقال: «لخاطر الله، ارجو انك تتذكرين الحركات! سأوضح لك كل شيء.»

فقالت: «الى الجحيم، انت والحركات!» وبضربة شديدة اخيرة اطاحت برأسه، فراح يتدحرج ككرة القدم.

ولم تطل بالتقاط إرب هنري المسكين المبعثرة حتى قذفت بها الى الأرض بين استحسان الجمهور وتصفيقه، وقد اقتنع اكثر من أي وقت مضى بان ذاك إنما أنجز بواسطة المرايا.

Twitter: @ketab_n

وبينما كانت على وشك النزول وراءه والسيف في قبضتها، لا بدافع من رقة في قلبها، ولا لأعادة اطراف زوجها التعس، بل لتهوي بضربة او بضربتين اخريين على اجزائه الكبرى، فانها في تلك اللحظة شعرت ان هناك احداً وراءها. ولما التفتت رأت شاباً جميلاً بمظهر المهراجا. عاشقاً من الطراز الاول. وخيل اليها انها تقرأ في عينيه: «من الافضل ان تحترقي على فراش الشهوة من ان تحترقي على الكرسي الكهربائي.»

وبدت لها الفكرة جذابة طاغية. وقبل ان تجذب الحبل الى فوق وتبدأ الحديث مع فاتنها. توقفت فقط كي تدفع برأسها من الكوة وتصرخ: «هذا جزاء رجل خنزير يخون زوجته مع امرأة بهيمية.»

ولم تمض فترة طويلة حتى ظهرت الشرطة على المسرح، ولم يكن ثمة شيء سوى صوت هديل ينبعث من فوق، كأنما هناك حمامتان تطيران وتحومان من العشق في حلقة مستديمة، بينما كانت اشلاء هنري مبعثرة على الثرى وقد حط عليها الذباب.

ولغط الجمهور قائلاً: «ما هذه إلا خدعة انجزت بواسطة المرايا».

وقال مدير الشرطة: «ولكن يبدو لي ان اكبر مرآة بينها قد تحطمت على رأس هذا المسكين...»

Twitter: @ketab_n

الصقر

بقلم: غوستاف هلستروم
حائز على جائزة نوبل في الآداب
سويدي (١٨٨٢ - ١٩٥٣)

كان السـر انغوراند يذهب الى الصيد كل يوم ويده في قفاز احمر مطرز بالذهب، لأنه لم يكن ليوقظ في حناياه الحاسة الموسيقية سوى طيران الصقر الايسلندي ورنـين اجراسه الصغيـرة، فتجعله يستنشق نسيم الصبح القـرير ببهجـة كمن يشرب خمـراً منعشة. وفي احد الايام طارد الصقر بلثوناً دامياً الى مستنقع وراء الاجمة حيث وجده الصياد ودق عنقه، ولكن الصقر لم يكن ليعثر له على اثر. فهل اغرته فريسة جديدة، ام انه عاف ماء المستنقع الكدر، ام ان خيلاءه دفعت به الى التحليق في الاجواء حتى شطت به الريح؟ - عبثاً ذهبت محاولاتهم في العثور عليه. وعبثاً نادوه باسماء محببـة، وكذلك عبثاً دوى صوت البوق من على كل رابية. فصفع السر انغوراند بقفازه كبير الصقّارين على فمـه المرتعش حتى سـال منه الـدم، ثم راح يرمـح على جـواده فوق العشب متجهاً صوب القصر وشفتاه مزمومتان بشدة متناهية وجفناه مسدلان في كآبة أشد على عينيه المتراخيتين. اما الصقر فلم يجدوه.

ولكن رينود وجده وقد تعلق اساره بشجيرة عليق وهو بدون حراك ينتظر الموت جوعاً في براثنها الثابتة، احد جناحيه معلق والأخر مرتفع بتحد ورأسه المستطيل ممتد الى الامام يتوعد بعينين ثابتتين ومنقار صارم. لقد كان جميـلاً وهو قـابع بـين حبات

Twitter: @ketab_n

العليق الحمراء كالدم وارتعشت يد رينود لهفة وهو ينتزع اساره من بين الشوك والاجراس الصغيرة ترن بين اصابعه على الحلقة المرسومة بطابع السر انغوراند. وعلا صراخه بالفرح عندما شقت المخالب الحادة ذراعه المفتولة واصبح الصقر ملكه. صقر يمتاز باعرض صدر واطول جناحين وانبل عينين كالذهب الملتهب.

لقد غدا ملكه دونما ريب، لانه لن يستطيع مطلقاً ان يريه لاي انسان، فهو يعلم بالقوانين الصارمة التي تحمي هوايات الفرسان الرياضية. انه سيبتني له قفصاً في الغابة، فيتسلل في الصباح الباكر الى هناك قبل ان ينفض الطير البرد عن نفسه. ويجولان الحقول سوية، ويكتسحان بنظراتهما المناطق البيضاء الشاهقة، ولسوف يغرم كلاهما بالآخر، واشعة الشمس تعلو وتنسكب على رأسيهما وتحمل الريح افكارهما الصامتة على جناحيها. ولن يخطىء الصقر قفازه الاحمر مطلقاً ولا غماءه المطعم باللآلىء. احكم رينود وثاقه ثانية، وركض نحو البركة، ثم رجع سريعاً ببطة قتلها بحجر وقدمها للصقر، فأقبل عليها، فتخدر قلب رينود من النشوة لان تلك كانت علامة من الصقر بأنه لا يحتقره وانه سيكون له.

واصبح الصقر ملكاً له. وكلما طقطقت العساليج المتجمدة بالصقيع تحت خطواته في سكون الصباح كان الصقر يحني رأسه ويصغي، وعيناه هادئتان ترقبان على حذر. ثم يقفز بخفة من قفصه ماداً نفسه نحو يده وهو يرفرف بجناحيه كأنما يريد الطيران - او يريد ان يذكره بذلك - ثم يسرعان في الخروج من الفلوات الرحبة حيث كان الضوء ينتشر شيئاً فشيئاً.

وألقت عيونهما نظرات حادة على السماء المحمرة احمراراً قاتماً، وترامت التلال سوداء بالأيكات المتناثرة حيث رقدت الاشجار واغصانها مثقلة بالعصافير الصامتة. وغدت السماء منبلجة البهاء تتوهج بالذهب والاحمرار، واصبحت معالم الحقول زرقاء، وطار البوم يسف على الارض يلتمس مخبأ، ونشرت عصافير الصباح اجنحتها مسقسقة بلطف من البرد، وظهرت في طيرانها سوداء على صفحة الهواء المتلألئة. ولكن رينود وصقره اسرعا في سيرهما لأن هذه كانت عصافير الدوري والسمّان - ولا يطمعان فيها فريسة. ولكن نزولاً عند المستنقعات كانت البلاتن تزعق وتطير بضربات طويلة من اجنحتها في دوائر واسعة، فهناك كانت الفريسة. وهناك اطلق الصقر عالياً

Twitter: @ketab_n

وصدره مصوب كالقدر واجنحته مستعدة للقصف. ورآه رينود في اشعة الشمس وقد انقلب الى لون الذهب فوقف معمي العينين مصاباً بالدوار بينما غدا الطير يصفر على اديم السماء. وبلغت مسامعه سخرية رنين اجراسه من زعقات البلاتن.

اخذت البلاتن تحوم في دوائر من خوفها. وفكرت آناً في ان تحط على الشاطىء لكي تخبىء اعناقها الطويلة ورؤوسها البلهاء المرتعبة واعرافها المنحنية تحت الاشجار القائمة، وآناً آخر حاولت مترددة ان تعلو في شكل حلزوني متكئة على اجنحتها العريضة في حملها الى اعلى مما يستطيع عدوهم مطاردتها، وارتجفت كالقصب من الرعب المستولي على قلوبها.

ولكن الصقر التقط منذ البداية واحداً من اقواها، واحداً من أولئك الذين حلقوا عالياً لاول وهلة. أحب الصقر ان يجرب قوته وان يشعر بالهواء الخفيف القرير تحت جناحيه، ورفع نفسه بسرعة غير متلجلج وكأنه يحوم حول شعاع من الشمس. وللحال غدا هو الاعلى. وبان للعيان اصغر من العصفور الدوري، ولكن شيئاً من هيئة جناحيه وفي قوة جسده المركزة اعطت فكرة عن اشعاع عينيه الوحشيتين ومخالبه الممتدة - وانقض بغتة ثقيلاً كالفولاذ، على عنق فريسته الأعزل المتجه نحو العلى وسقط الاثنان كحجر تكاد اجنحتها لا تتحرك. وهرول رينود يخوض البركة بسرعة قبل ان ينشل البلتون نفسه ويستعيد صوابه من هول الضربة، فيجمع قواه ويستعمل منقاره الصارم في وحشية يائسة. غير ان الصقر عاجله بالضربة المميتة بحدة وسرعة، والتفت بعينيه الواسعتين نحو سيده لانه استنكف ان يلطخ ريشه بالدم، وانتظر كي يوهب له القلب وهو ما يزال حاراً.

لم يطر الصقر ثانية في ذلك اليوم. وعندما اطلقه رينود وطيره عالياً وركض وراءه منادياً محرضاً، خبط جناحيه بضع مرات ثم جثم على كتفه مرة اخرى ببرود وكبرياء ازاء وجهه الصبياني الضاحك. وظهر انه يحتقر جميع التوافه، فاحجم رينود عن تكرار ذلك بينما اكتسبت نظراته ونظرات الصقر الجدية البعيدة المدى. وغدا مخلصاً له اكثر من أي شيء آخر امتلكه في حياته. وخيل اليه أن الصقر قد قدّ من روحه وحنينه بجناحيه العريضين ولمحته المنتصرة. ولكن كان هنالك ألم في حبه، وتشاؤم كئيب من بلية منتظرة. وفي احايين اخرى يداهمه الخوف لئلا يفارقه طيره دون اكتراث، ويختفي

Twitter: @ketab_n

مع رنين اجراسه السافر. ان الفراغ الذي سيتركه سيكون بمثابة الموت له ولا ريب، او خيل اليه ان الصقر كان شرفاً يتألق على صفحة الهواء اللازوردي يجثم الآن على كتفه في انتظار سفرات جديدة.

وفي اوج فرحه شعر بالانقباض من تفاهة نفسه. وبالكاد جرؤ ان يلقي نظرة على الطير، واحس بالالم في قلبه بانه لن يستطيع ان يشاركه في افراحه مطلقاً، وان نظرته لن تلين ابداً عند رؤ ية سيده. وركض الى ارض الاحلام.

اضطجع على الارض المنثورة بالاعشاب والخلبخ الاحمر تحت رأسه، بينما انسابت الغيوم مجتازة كمصير بني البشر، خفيفة وثقيلة، مركزة في معالم ثابتة، او مبعثرة في الهروب. يد الريح الخفيفة تخشخش، وراح رينود يقص الحكايات على صقره.

رجع الملك «ارثر» ثانية من بحر برياتي، وتسلم مرة اخرى سيفه اكسكاليبر الازرق كسماء الليل في طقس بارد. ورفع فرسانه الاثني عشر رؤ وسهم الثقيلة عن المائدة الحجرية ونفضوا السبات عن انفسهم، وارتجت الارض من تحت اقدامهم. وكان رينود ايضاً هناك، نبيل المولد وجواده يتبختر تحته، والصقر الذي كان نائماً الآن منحني الرأس، جثم منتصباً على يده يصبو الى نظراته بعينين متألقتين بالفرح وبالشمس الذهبية في الأساطير البطولية.

ولكن الغيوم انسابت مجتازة كأقدار البشر المحتومة تطارد بعضها البعض قائمة الواحدة منها فوق الاخرى، وشكلت قوساً هائلاً من الكتل، حيث نفذت اشعة الشمس وانسكبت من فجواتها صفراء حادة كالسهام. وحلم الصقر احلاماً حزينة كئيبة عن الغضب العنين العاجز واستيقظ وهو يزعق.

لمح الصبية المتجولون طير السر انغوراند على يد رينود. فقبض حثالات الفارس عليه وساقوه الى القصر. وانتابته رعشة عندما اخذ الصقر منه لا يبدي حراكاً وكله كبرياء كعهده دائماً دون ان يلفت عنقه المنحني وبدون لمحة من عينيه الهادئتين الباردتين. أخذ الطير الى سيده، ولكن السيد لم يبد اي عطف نحو محبوب فقده، وذلك لانه سمح لنفسه بأن تلمسه أيد دونه شرف ومنزلة، والقى السر انغوراند نظرة

Twitter: @ketab_n

على رينود، واستقرت في ذهنه ذكريات واضحة عن قانون قديم للهوايات الرياضية يرجع عهده الى الايام التي كان الاشراف يطأون فيها رقاب الشعب بنعال من فولاذ. وقطب بين حاجبيه وهو يفكر في مدى نفاذ ذلك القانون وفيما اذا كان قد ألغي من قبل أم لا.

وينص القانون على ان كل من يسرق صقراً وخاتم الفارس موسوم على رجله يتحتم عليه ان يدفع اثني عشر وزناً من الفضة او نصف رطل من لحم اضلاعه ينهشها بمنقاره طير مفترس جائع.

وكان السر انغوراند يعلم مدى فقر رينود فرمق صدره الاسمر العاري ومد يده ولمسه بحركة خالية من الشعور. ثم ارسل رسالة الى القصر المجاور الذي ارتفعت سقوفه المدببة فوق الغابة ودعا مدير شؤون القصر مع كريمتيه الاثنتين بأن يحلوا ضيوفاً عليه بعد ثلاثة ايام ليشاهدوا طيران بعض الصقور، بعد ان يكونوا قد اضافوا مهابة على عقاب لص بحضورهم ـ وعليهم ان يحضروا قبل انبلاج الفجر.

اتسعت عينا رينود في ظلمة سجنه، وكانتا سوداوين لا تتحركان الا البؤبؤين اللذين كانا يتقلصان كلما برقتا تدريجياً وعكستا الغيوم الممزقة وشروق الشمس في الشرق. وكان الصقر الايسلندي محمولاً وراء السر انغوراند ومخلباه ناشبان بحدة في القفاز، وغماؤه على عينيه الصارمتين الجائعتين اللتين لم تريا طعاماً لثلاثة ايام.

ولكن في الافق البعيد من ورائهم تأرجح خط من اللون يلتهب ويشتعل. كان هناك ستة وصفاء يمتطون ستة جياد فاتحة اللون يقودونها وهي تخب، واثوابها الحمراء المخملية ترتفع عن اعناقها الملتوية، فتبدو زرقاء في ضوء الفجر. وكانت العربة التي يجرونها حمراء ايضاً، والذهب يلمع في داخلها بثقل على صدري ابنتي مدير شؤون القصر وعلى سواعدهما الرشيقة. وكانت ست عذارى اخريات تتبعهما وهن ممتطيات الجياد وشعرهن اشقر كالسنابل واحذيتهن المدببة تلتمع تحت حواشي فساتينهن وستة صيادين آخرين يبثوه الالحان من ابواق معقوفة يخيل للسامع انها ترقص وتحوم في دوائر. ورقصت معالم السهول ايضاً وتوارت راكضة بعضها في اثر بعض في ضباب خمري اللون او للغيوم من فوقهن تحوم براقة كاجنحة الفراشات.

شكلوا نصف دائرة كتفاً لكتف حول شجيرة كان السجين موثوقاً بها. واثواب

Twitter: @ketab_n

الجياد كلما رفرفت في مهب الريح كان لونها الاحمر يتغلغل في الظل كئيباً كحنين لا امل فيه، ويشتعل في اشعة الشمس ضوءاً كافراح النصر. وامتدت اعناق السيدات اللدنة من العربة، وشكلت قلنسواتهن المخروطية خطاً واحداً مع اكتافهن المنحدرة. فتراءين لرينود أنهن كالبلاتين، وتوقع ان يزعقن بصرخات مصرصرة عندما انطلقت انغام الابواق بعيداً كحجارة تتراطم. ثم سكت الجميع. ولكن عندما رآهن بوضوح اكثر، وشفاههن الرقيقة المستقيمة وعيونهن الحالمة الغريبة متجهة دوماً بنشوة فاترة نحو شيء ما في منتهى البصر. وأيديهن البيضاء الكسولة في احضانهن بين الطيات الطويلة من لباسهن، عندئذ ظهرن له جميلات الى حد الاثارة بصور القديسات والشموع تحترق بلهب قائم امام اقدامهن. وآمله ان يرينه موثوقاً هكذا. فأرخى بنظراته العنان لكي تنطلق الى ما وراء العذارى ـ عصافير جميلة خجولة. كم ودّ لو يفزعها بصفيره! ـ والى ما وراء وجوه الاتباع الحمراء وافواههم الفاغرة استطلاعاً، والى ما وراء السهل الاسمر حيث راح يركض حتى تعب ويحلم حتى كلّ.

كان يعلم بالمصير الذي ينتظره، ولكن عندما اقترب الصقر الايسلندي، وفهم ان هذا هو الطير الذي سينفذ العقاب، ضحك من الفرح، ونبض قلبه بالكبرياء مثلما كان ينبض عندما كان الطير واليوم المشمس الطويل، والحقول بالرياح الصافية، والاشجار المتأرجحة بأوراق الخريف الصفراء كلها ملكاً له. وعندما رأى الصقر النور ثانية وعود نفسه على الرؤ ية، استجمع قواه للطيران وانتظر ان يقذفه حامله عالياً، بينما راحت عيناه تبحثان عن فريسة في الهواء ـ وكانتا صارمتين شرستين بفعل الجوع تشتعلان كالشرر، ولم يكن في اعماقهما اية ذكريات ولم يعرفاها مطلقاً. ولكن عيني رينود التمستا عيني الطير وتفحصتاهما بشوق، غير انهما غدتا نديتين بالحزن عندما لم تصادفا نظراته، وكان حرياً بالطير ان تعكس عيناه ايام أقدام أليفه وحنينه واستخفافه واحلامه بين نبات الخلنج الاحمر. ولكنهما انتظرتا الفريسة بشراهة وهما باردتان قاسيتان كالناس المتلهفين حوله، وكالابتسامة الساخرة على شفتي السر انغوراند الرقيقتين. وشعر بغصة الحزن مريرة اكثر من ذي قبل، واشاح بوجهه جانباً ليجمع شتات نفسه، وجفناه مطبقان على خواطر مشوشة.

كان مطروحاً على الارض هكذا عندما راح المنادي يقرأ القانون بصوت عالٍ:

Twitter: @ketab_n

«اثنا عشر وزناً من الفضة ـ نصف رطل من اللحم من اقرب موضع للقلب ـ هكذا يحمي السر انغوراند مسرات النبلاء.» ولم يرمش لرينود طرف عندما شقوا جلده بجرح لينجذب الصقر برائحة الدم. وعندما غرز الطير منقاره في صدره لم يفه بصرخة، بل ارتعش رعشة جعلت عيني الطير تشعان بالغضب ومد جناحيه كأنما استعد لرفرفتهما.

ومدت ابنتا مدير شؤون القصر برأسيهما الى الامام والاهتمام يتألق من عيونهما الحالمة الغريبة ولكنهما لم تحركا ايديهما من حضنيهما، وبقيت ثيابهما كما كانت لم تنفتح منها طية واحدة. وشخرت الجياد لرائحة الدم وضربت بحوافرها على الاديم المتجمد بالصقيع، مما جعل اثوابها الحمراء تتراقص في نسيم الصبح الازرق الشاحب. ولكن رينود اضطجع صامتاً، ووقف الفرسان الصيادون بخدود منبسطة وابواقهم على شفاههم ينتظرون عبثاً أن يغرق صراخ تألمه بصدحها.

اول غصة ألم شعر بها مزقت أرق انسجته، وأحس كأنما قلبه قد انتزع من موضعه، ولكنه بعد هذا غدا فاقد الشعور اثر دوار مخدر، وبينما الدم يجري حاراً من الجرح، والمنقار الصارم يمزق صدره، تراءى له أنه يهيم في جو احلامه الشاهق اللازوردي. وفهم كل شيء، الموت والشرف، وشعر كم كانت شمس الملاحم البطولية الذهبية تحرق وتلتهم وتبهر الابصار.

وعندما رأى السر انغوراند ان نصف الرطل الذي نص عليه القانون قد اقتطع، أشار الى رجاله بأن ينفخوا في الابواق ثم انتزعوا الصقر بعيداً وهو متخم بالدم وقد امتلأت عيناه ثانية بكبرياء وهدوء. ثم تحرك الركب بمرح اكثر من ذي قبل متجهاً نحو منابت القصب الذي لمع اصفره من بعيد.

ولكن رينود لم يكن ليستيقظ لانه استرسل في حلمه حتى الموت. وكل ما فعلوه هو ان فكوا وثاقه وتركوه ملقى هناك ونبات الخلنج الاحمر تحت رأسه.

غير ان الصقر الأيسلندي لم يُسمح له مطلقاً ان يجثم ثانية على يد سيده، لأن السر انغوراند عافت نفسه ان يشرب من كأس طبع عليه شخص آخر قبلة من شفتيه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الحقل اللعين

بقلم: كارل تشابك
تشيكوسلوفاكي (١٨٩٠ ـ ١٩٣٨)

هتف القاضي في المحكمة قائلاً: «أيها الواقف في قفص الاتهام، انك متهم بقتل حميك فرانتيشك ليبيدا وقد اعترفت لدى التحقيق بأنك ضربته متعمداً ثلاث ضربات بفأس على رأسه ناوياً قتله. والآن هل انت مذنب؟»

ارتجف الفلاح الذي بدا عليه الاعياء من فرط العناء، وابتلع ريقه وتمتم: «كلا.»

«هل أنت قتلته؟»

«نعم.»

«إذن أنت تقر بجرمك؟»

«كلا»

وقال القاضي الذي كان يتحلى بصبر الملائكة: «انظر يا فوندراشك، لقد ظهر للمحكمة انك حاولت، مرة أخرى من قبل، أن تدس له السم في القهوة. فهل هذا صحيح؟»

Twitter: @ketab_n

«نعم.»

«ان هذا برهان على انك تتآمر على حياته لمدة طويلة من الزمن. فهل هذا مفهوم لديك؟»

وتنشق الفلاح الهواء بمنخريه وهز بكتفيه في حيرة وتمتم: «ان كل ذلك كان بسبب البرسيم. لقد باع البرسيم فقلت له: عماه، اترك ذاك البرسيم في مكانه. اني عازم على شراء بعض الارانب».

فقاطعه القاضي قائلاً: «رويدك، هل كان ذاك البرسيم برسيمه ام برسيمك؟»

فغمغم المتهم: «بالطبع، كان البرسيم ملكه، ولكن فيم حاجته للبرسيم؟ ولذلك خاطبته قائلاً: عماه مهما يكن الامر، اترك لي الحقل، ولكنه قال: عندما أموت ستحصل عليه ماركا - أي زوجتي - وعندئذ بامكانك أن تفعل به ما تشاء أيها الطماع النهم.»

«اذن كان هذا هو السبب الذي أردت تسممه من أجله؟»

«بالطبع، أجل.»

«لأنه كان ينعتك بأوصاف بذيئة؟»

«كلا. لقد كان كل ذلك بسبب الحقل. وقال انه قد عزم على بيعه.»

وانفجر القاضي صائحاً: «ولكن يا عزيزي كان الحقل حقله، اليس كذلك؟ فلماذا لا يبيعه؟»

ورمق فوندراشك القاضي بملامة، ثم قال موضحاً: «ان لي قطعة ارض مزروعة بالبطاطس ملاصقة للحقل. ولقد اشتريت القطعة كي استطيع في يوم من الأيام ان اضمها للحقل، ولكنه قال لي: «ماذا يهمني من امر قطعتك، اني عازم على بيع الحقل الى جودال.»

وعلق القاضي على هذا قائلاً: «اذن كنتما عائشين في شقاق دائم.»

وأجاب فوندراشك بكآبة: «أجل، بالطبع. وكان كل هذا بسبب المعزى.»

Twitter: @ketab_n

«أي معزى؟»

«لقد كان يحلب معزاي حتى يجف ضرعها. وقلت له: عماه، أترك المعزى وشأنها، او أعطنا تلك القطعة الصغيرة من المرعى بجانب الجدول، ولكنه باع المرعى.»

وسأل احد المحلفين: «وماذا فعل بالنقود؟»

فأجاب المتهم بحرد: «بالطبع، خبأ النقود في صندوق وقال لي: انك ستنالها بعد ان اموت، ولكنه لم يكن ليموت. كان كل الناس يموتون الا هو، وقد جاوز عمره السبعين.»

«اذن بموجب ما تقول كان حموك سبب كل هذه الخلافات؟»

قال فوندراشك ببطء: «اجل. انه لم يكن ليعطي اي شيء. وكان يقول: ما دمت على قيد الحياة سأتدبر اموري بنفسي. فافعل ما تشاء. ثم قلت له: عماه، اذا انت اشتريت بقرة سأحرث انا ذلك الحقل، ولن تكون بك حاجة بعدئذ لبيعه. ولكنه قال لي: بعد أن اموت بامكانك ان تشتري بقرتين عوضاً عن واحدة، اذا احببت ذلك. ولكني عازم على بيع قطعة ارضي الى جودال.»

وقال القاضي بصرامة: «اسمع يا فوندراشك. ألم تقتله من أجل النقود التي كانت في الصندوق؟»

أجاب فوندراشك بعناد: «بلى، لكي اشتري البقرة بها. ولقد حسبنا اننا بعد مماته سنتمكن من الحصول على بقرة. وهل تستطيع ان تتدبر شؤون مزرعة بدون بقرة؟ والا فمن أين يمكن الحصول على السماد الضروري لها؟»

وهنا تدخل المدعي العام قائلاً: «ايها السجين في قفص الاتهام. اننا لسنا مهتمين ببقرة، بل بحياة انسان. لماذا قتلت حماك؟».

«كان ذلك بسبب الحقل.»

«ليس هذا الجواب.»

Twitter: @ketab_n

«لقد اراد أن يبيع الحقل»

«ولكن النقود كانت ستعود لك بعد وفاته على أية حال.»

وقال فوندراشك عابساً متبرماً: «ولكنه لم يكن ليموت، وكما ترى، سعادتك، لو انه مات بدون ضوضاء، لما كنت الحقت به أي أذى. ان جميع سكان القرية يشهدون بأنني كنت اعامله كما لو كان أبي. أليس كذلك؟» قال هذا واستدار نحو الجمهور في المحكمة حيث كان نصف سكان القرية حاضرين، فصدرت منهم أصوات دمدمة توافق على ما قال.

وهتف القاضي بوقار: «اجل، ولهذا اردت ان تسمه اليس كذلك؟»

وقال المتهم: «أسمه؟ اذن كان عليه ألا يبيع البرسيم. ان كل امرىء بامكانه ان يخبر سعادتك كيف يكون الاحتفاظ بالبرسيم. ولم تكن تلك هي الطريقة المثلى لادارة شؤون المزرعة. أم ان الامر خلاف هذا؟»

وسرت في هيئة المحكمة موجة من التمتمات بالموافقة.

وصاح القاضي قائلاً: «ألتفت بوجهك نحوي أيها الواقف في قفص الاتهام. والا فانني سآمر بطرد اصدقائك من المحكمة. اخبرنا كيف حصلت حادثة القتل.»

وراح فوندراشك يتكلم على مهل: «كان اليوم يوم أحد، ورأيته يتكلم مع جودال مرة أخرى. فقلت له: عماه. لا تبع ذلك الحقل لأنني لا استطيع الحصول عليه. ولكنه قال لي، ليس من المحتمل ان استشيرك بخصوصه أيها الفلاح الجلف. وهكذا قلت في نفسي لقد حان الوقت للقيام بعمل ما. ثم ذهبت لأقطع بعض الحطب.»

«أهذه هي الفأس التي قطعت بها الحطب؟»

«نعم»

«أكمل قصتك.»

«وفي المساء قلت لزوجتي: اذهبي وخذي الاولاد الى بيت عمتهم. غير انها

Twitter: @ketab_n

راحت تبكي وتولول فقلت لها: كفي عن البكاء لأنني سأكلمه اولاً قبل القيام بأي عمل. وهكذا أتى ودخل علي في الكوخ وخاطبني قائلاً: ان هذه فأسي، اعطني اياها! فقلت له اتذكر كيف حلبت معزاي حتى جف ضرعها؟ ولكنه هاجمني محاولاً سحب الفأس من يدي، فضربته بها.»

«لماذا؟»

«بسبب الحقل.»

«ولماذا ضربته ثلاث ضربات؟»

فهز فوندراشك كتفيه وقال: «كما ترى، سعادتك ان امثالنا معتادون على العمل الشاق.»

«وبعدئذ؟»

«وبعدئذ ذهبت لأتمدد قليلاً.»

«هل نمت؟»

«كلا. بل رحت أحسب كم ستكلفني البقرة. وانه علي ان استبدل المرعى بقطعة الارض التي على جانب الطريق. وبعدئذ ستصبح القطعتان قطعة واحدة.»

«وضميرك، ألم يؤنبك على فعلتك؟»

«كلا. بل ان ما كان يقلقني هو ان الحقلين ليسا حقلاً واحداً. وان زريبة البقر تحتاج الى اصلاح سيكلفني مبلغاً من النقود. ان أبا زوجتي لم يكن يملك حتى عربة فكنت اقول له: عماه، ليغفر الله لك خطاياك، ولكن ليست هذه هي الطريقة الصحيحة لادارة المزرعة. وان هذين الحقلين قد خلقا ليكونا حقلاً واحداً. وانه لمن المؤسف ان يبقيا على ما هما عليه الآن غير موحدين.»

فصاح القاضي: «ولكن ألم يكن في قلبك شفقة على الرجل العجوز؟»

تمتم المتهم: «وهو يريد ان يبيع تلك القطعة من الارض الى جودال؟»

«وهكذا قتلته من أجل المغنم؟»

Twitter: @ketab_n

فاعترض فوندراشك على هذا باحتقار قائلاً: «كلا مطلقاً. ان كل ذلك كان بسبب الحقل. فلو جمعنا هذين الحقلين معاً...»

«هل انت مذنب؟»

«كلا.»

«إذن قتل رجل عجوز لا يعني شيئاً في نظرك؟»

وانفجر فوندراشك صائحاً وهو يكاد يجهش بالبكاء: «ولكنني ما زلت اكرر عليك بأن كل ذلك كان بسبب الحقل. وهي ليست جريمة قتل! ان كل انسان يجب ان يتفهم ذلك. وكما ترى، سعادتك، ان هذا حدث ضمن العائلة. ولم اكن لأفعل ذلك لشخص غريب. اني لم أسرق في حياتي شيئاً على الاطلاق. اسأل الناس عني. ولكنهم القوا القبض علي كلص. أجل كلص.»

وقال القاضي بأسى: «كلا، انت لست لصاً، ولكنك قتلت حماك. أتعلم ان عقاب ذلك هو الموت؟»

فمخط فوندراشك ثم تنشق الهواء من منخريه وقال، باستسلام: «ان كل ذلك كان بسبب الحقل.» ثم جرت المحكمة في سيرها: قدمت الاثباتات والبراهين وتلتها خطب الاتهام ثم الدفاع.

عندما اختلى المحلفون لمناقشة جريمة فوندراشك راح القاضي يحملق مفكراً خلال النافذة. وقال كاتب المحكمة متذمراً: «إذا ما اخذنا القضية برمتها لرأينا بأنها مهزلة: فالمدعي العام لم يتمكن مطلقاً من السير بها كما يليق، ولم يكن لدى محامي الدفاع ايضاً الشيء الكثير ليقول. وفي الواقع كانت القضية واضحة جداً، لا تحتاج الى كلام كثير.»

وشخر القاضي ثم قال بايماءة من فرغ صبره: «القضية واضحة؟ رويدك يا رجل. ان ذلك الرجل يشعر بأن الحق في جانبه تماماً كما تشعر به انت وأنا. أما بالنسبة الي فتبدو القضية كما لو أني سأحكم على قصاب بذبحه بقرة. او على خلد لعمله اكوام التراب. واصارحك القول لقد مرت بي لحظات شعرت في اثنائها ان القضية ليست

Twitter: @ketab_n

من شأننا البحث فيها على الاطلاق، وكما تعلم، انها ليست مسألة قانون او عدالة. يا الهي!!» تنهد القاضي ثم نزع عنه ثوبه القضائي وقال: «أريد قسطاً من الراحة في هذه القضية لبضع دقائق. أتعلم، أظن ان المحلفين سيخلون سبيله. ان هذه فكرة سخيفة ولكنهم لربما سيخلون سبيله لأن..

«دعني اخبرك شيئاً. انا نفسي انحدر من سلالة فلاحية، وعندما كنت اسمع ذلك الفتى يقول بأن ذينك الحقلين يخص كلاهما الآخر، لقد رأيت تينك القطعتين من الأرض وشعرت بأننا، اذا كنا سنصدر حكماً، بموجب أي قانون الهي، فان علينا ان نصدر الحكم على ذينك الحقلين. أتعرف ما كنت سأفعل لو أعطيت الخيار؟ لكنت أقف على رجلي وانزع عني ثوبي القضائي وأقول: فوندراشك، باسم الله، ولأن الدم الذي أهرق يصرخ الى السماء، نحكم عليك بأن تزرع ذينك الحقلين بالشيكران السام والشوك. وليبق حقل البغضاء هذا امام ناظريك حتى يوم مماتك!

«اني اريد ان اعرف ما هو رأي المدعي العام بهذا القول. ينبغي احياناً ان يكون الله وحده هو الذي يصدر الحكم. انه يستطيع ان ينزل عقوبات هائلة رهيبة. أما ان نصدر نحن أحكاماً باسم الله، فاننا لم نصل الى هذا المستوى بعد. ولكن ما الذي قر عليه المحلفون من رأي الآن؟» وتنهد القاضي بعدم الرضى، ثم لبس ثوبه القضائي وقال:

«حسناً، تعال إذن. ليدخل المحلفون!»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الحلم

بقلم: لوسيوس ابيوليوس
قرطاجي (ولد حوالي ١١٤ ب. م.)

لم استطع النوم بأي حال من الاحوال للخوف العظيم الذي كان يملأ قلبي، الى ان انتصف الليل. وعندئذ بدأ النعاس يراودني. ولكن ويا للهول! شاهدت فجأة باب مخدعي وقد فتح على مصراعيه وسقطت الأقفال والمتاريس على الارض كأن هناك عصابة من اللصوص تبغي مهاجمتنا ونهبنا. واذا بالسرير الذي كنت مضطجعاً عليه، والذي كان يتحرك على دواليب صغيرة ويتأرجح على غرار اسرة الاطفال، قد انقلب بي عاليه سافله بعنف ولفني معه وألقاني مغطى تحته، وبينما انا ممدد على الأرض هكذا، تلصصت من تحت السرير لأرى ما الذي سيحدث، فإذا بامرأتين مسنتين تدخلان، تحمل احداهما مشعلاً والاخرى اسفنجة وسيفاً مسلولاً.

وقفتا برهة قرب صديقي سقراطس الذي كان غارقاً في نوم عميق اثر رحلة شاقة كان قد قام بها، ثم قالت المنتضية السيف للاخرى مشيرة الى سقراطس: «انظري يا بانثيا، يا اختاه! هذا هو حبيبي وعزيزي الغالي. هذا هو الذي لا يكترث لحبي، ولا يكتفي بكلمات الزجر والتعنيف بل يعقد النية اخيراً على الهرب مني». قالت هذا ثم استدارت واشارت الي انا الذي كنت منبطحاً تحت السرير. وتابعت قولها: «هذا مستشاره. انه هو الذي يغريه على هجراني وتركي. لقد تملكه الرعب

Twitter: @ketab_n

فتمدد على الارض موارياً بفراشه، وهو يأمل بعد ان رأى جميع ما فعلناه ان ينجو من بين يدي سالماً دون قصاص. ولكن ما سأفعله به سيجعله يندم على افراطه في لهجته السابقة وفضوله الحالي».

حالما سمعت هذه الكلمات اخذ العرق البارد يتصبب مني وارتجف قلبي من الخوف، حتى أخذ السرير الذي كان فوقي يهتز ويطقطق. ثم قالت بانثيا: «دعينا يا أختاه مورو نمزقه حالاً الى نتف!» فأجابتها مورو: «لا بل لنتركه حياً لكي يدفن جثة هذا التعس في احدى تلك الحفرات» ثم أمسكت برأس سقراطس المسكين وادارته الى الناحية الاخرى، واغمدت سيفها حتى المقبض في الجانب الأيسر من عنقه، وتلقت الدم المتفجر في وعاء، ولم تدع نقطة واحدة منه تسقط على الجوانب.

هذا كله شاهدته بأم عيني. وبينما انا افكر في نيتها وفي عدم قدرتها على تغيير شيء من مراسيم التضحية التي اعتادت ان تقوم بها دفعت بيدها في ذلك الجرح وبحثت هنيهة اخرجت بعدها قلب رفيقي التعس سقراطس. فأطلق صرخة مخيفة ثم اسلم الروح. وبعد هذا القمت بانثيا جرح عنقه الهائل باسفنجتها قائلة: «ايتها الاسفنجة التي نبتت في قعر البحار، اياك ان تمري قرب نهر جار!» وبعد ان تم هذا انصرفتا. ثم اغلق الباب بثبات وعادت المتاريس والأقفال الى اماكنها واقفلت ثانية.

ولكنني، وانا الذي كنت منبطحاً على الأرض عارياً، خالياً من الروح، ارتعش من البرد كشبه ميت يحاول ان ينعش نفسه، وافكر كمن ينتظره حبل المشنقة، قلت في نفسي: «يا ويلاه! ماذا سيحل بي غداً، عندما يجدون رفيقي مقتولاً هنا في هذه الغرفة؟ ولمن احكي الحقيقة او اصف بشكلها الظاهري، انهم سيقولون اذا لم يكن في وسعك ان تقاوم عنف المرأتين كان عليك ان تصرخ طالباً النجدة. فهل تسمح للرجل بأن يذبح امام عينيك ولا تقول شيئاً؟ بل لماذا لم تذبحاك مثله؟ ولماذا ابقيتا على حياتك انت، بينما كنت واقفاً ترقبهما، وهما تقترفان جريمتهما؟ ولذلك ان كنت قد نجوت من بين ايديهما فلن تنجو من بين ايدينا. وفي هذه الاثناء، وانا اقلب الامور بيني وبين نفسي، كان الليل ينقضي سراعاً. ولذلك عزمت على أن آخذ جوادي واسير في سفرتي قبل انبلاج الصباح.

غير ان السبل كانت مغلقة امامي: اخذت صرتي الصغيرة ثم فتحت الاقفال

Twitter: @ketab_n

وازلت المتاريس من وراء الباب. ولكن تلك المصاريع الطيعة الامينة التي فتحت اثناء الليل من تلقاء نفسها كدت لا استطيع فتحها بمفاتيحها! ولما خرجت ناديت صائحاً: يا سائس، اين انت ايها الوغد؟ افتح باب الاسطبل حالاً لانني قد ازمعت السفر سريعاً». فأجاب السائس الذي كان نصف نائم وراء باب الاسطبل: «ماذا؟ الا تعلم ان الطرق في هذا الوقت في منتهى الخطر؟ ماذا تقصد بنهوضك في هذا الوقت المبكر من الليل؟ ان كنت قد اقترفت جريمة بشعة ويئست من حياتك، لا تظن اننا من الحمق بحيث نستعد للموت من اجلك».

فقلت له: «لقد اوشك النهار ان ينبلج. وفضلاً عن ذلك ما الذي يستطيع اللصوص ان يأخذوه من امرىء لا يملك شيئاً؟ الا تعلم ايها الاحمق انك اذا كنت عارياً وهاجمتك عشرة عفاريت، فانها لن تستطيع ان تسلب منك شيئاً؟ فتقلب السائس الناعس من جنب الى جنب وقال وهو بين يقظان ونائم: «من اين لي ان اعلم ان كنت لم تقتل رفيقك الذي اتيت به معك الليلة البارحة فتبغي الآن وسيلة للخلاص؟» يا لله! في تلك الساعة شعرت وكأن الارض قد انشقت لأرى الكلب سربرس على باب الجحيم مستعداً لابتلاعي. عندئذ تحققت ان «مورو» لم توفر عنقي بدافع الشفقة، بل بدافع القسوة لتدفع بي الى المشنقة.

فقفلت راجعاً الى غرفتي وهناك حاولت ان اقرر الشكل الذي سأنهي به حياتي. وعلى أثر هذا سحبت قطعة من الحبل كان سريري مربوطاً به. ثم عقدت احد طرفيه في احد عواميد السقف الخشبية قرب النافذة وفي طرفه الثاني جعلت انشوطة، ووقفت على سريري، ثم ادخلت عنقي فيها، ولما قفزت من السرير ظاناً انني سأشنق نفسي حتماً، اذا بالحبل الذي كان قد تآكل وعطب من القدم ينقطع من وسطه، فأسقط اتعثر على جثة سقراطس التي كانت ملقاة تحتي. وفي تلك اللحظة عينها دخل علي السائس وهو يصرخ بأعلى صوته قائلاً: «اين انت، يا من كنت على عجل في منتصف الليل، وترقد حتى الآن متمرغاً في الفراش؟»

عند هذا نهض سقراطس (ولا ادري اكان ذلك نتيجة لتعثري به ام ان صراخ السائس هو الذي ايقظه). نهض كمن يستفيق من نوم وسبقني الى الكلام قائلاً: «لقد صدق الذين وصفوا السياس بالسوء. ان هذا الحقير النجس بدخوله وصراخه، واظن

Twitter: @ketab_n

ان نيته السرقة، قد ايقظني من نوم عميق». فنهضت والبشر يطفح من وجهي وقلت بفرح وسرور بالغين: «انظر ايها السائس الطيب! ها هو صديقي ورفيقي واخي الذي اتهمتني بقتله في هذه الليلة زوراً». ثم عانقت صديقي سقراطس وقبلته، واخذت بيده وقلت: «هلم. لماذا التلكؤ؟ ولماذا نفقد بهجة هذا الصباح الجميل؟ دعنا نذهب». وهكذا حملت صرتي الصغيرة ودفعت ما علينا من حساب الفندق وغادرنا المكان.

لم نبتعد مسافة ميل واحد عن البلدة، حتى كان النهار على ابهى ما يكون. فأخذت امعن النظر في عنق سقراطس علني استطيع ان اكتشف المكان الذي اغمدت فيه «مورو» سيفها، ولكنني عندما لم ألحظ شيئاً كهذا قلت لنفسي: «يا لي من أحمق مأفون! لقد سيطر علي الخمر الذي تناولته ليلة البارحة فحلمت هذا الحلم المخيف. وها هو سقراطس سالماً معافى. فأين جرحه؟ وأين الاسفنجة؟ واين ذلك الجز الهائل في عنقه؟» ثم خاطبته قائلاً: «لقد صدق الاطباء العارفون حين قالوا ان الذين يملأون معدهم بشراهة بمختلف المأكولات والمشروبات يحلمون احلاماً مليئة بكل ما هو مزعج ومخيف. لم استطع الليلة الماضية ان اكبح جماح شهيتي من خمر الدنان فرأيت بعدها اثناء نومي رؤىء شريرة حتى لأظنني الى هذه الساعة مبتلاً برذاذ من دماء بشرية».

فضحك سقراطس لهذا واجابني بقوله: «حقاً لقد حلمت انا ايضاً ان حنجرتي قد قطعت، وشعرت بألم الجرح، وان قلبي قد انتزع من صدري. انها ذكرى تخيفني! وركبتاي ترتجفان فلا استطيع ان اخطو خطوة اخرى. ولذلك ارى من المستحسن ان أتبلغ بقليل من الطعام لكي تنتعش روحي قليلاً». فقلت له: «ها هو ذا فطورك» وفتحت كيسي الصغير المعلق بكتفي واعطيته خبزاً وجبناً وجلسنا تحت شجرة ساج كبيرة وشاركته الطعام.

وبينما كنت اراقبه وهو يأكل بنهم، لحظت انه أخذ يهزل. ثم اصفر وجهه، واذا لونه الذي يفيض حيوية قد حال وتبدل. واذ كنت في خوف عظيم ولا زلت اتذكر تلك الجنيات الساحرات اللواتي حلمت بهن في الليل، التصقت اول لقمة خبز في حلقي، بحيث لم استطع ابتلاعها ولا لفظها. ناهيك عن ان الوقت القصير الذي قضيناه معاً زاد من مخاوفي: وماذا تتوقع من رجل يرى صديقه يموت

Twitter: @ketab_n

امامه على قارعة الطريق؟ الا يندبه ويحزن عليه كثيراً؟ ولكن بعد ان اكل سقراطس ما فيه كفايته عطش عطشاً شديداً. لانه كان والحق يقال قد التهم ما يقارب قرص جبن كامل. ثم تأمل الحظ السيىء! لقد كانت هناك وراء شجرة الساج مياه جارية صافية كالبلور فخاطبته قائلاً: «تعال يا سقراطس واشرب من هذه المياه العذبة الى ان ترتوي». فنهض وانثنى الى النهر حيث ركع على حافته يريد الشرب. ولكنه ما كاد يلمس المياه بشفتيه، حتى رأيت جرح عنقه وقد انفتح باتساع هائل، وسقطت الاسفنجة فجأة في المياه. وبعد ان نزت بقية باقية من دماء جسمه، خر فاقد الحياة وكاد يسقط في النهر، لولا انني امسكته من ساقه وانتشلته. وبعد ان نحت على رفيقي التعس المسكين طويلاً واريته الرمال هناك قرب النهر...

(من كتاب «الحمار الذهبي»)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مقبض السيف الفضي

بقلم: فيرنك مولنار
مجري (١٨٧٨ - ١٩٤٦)

ارتفع شريط من الدخان من احدى المداخن المتعددة لقصر قديم شاقاً طريقه في ضباب فجر يوم من ايام الخريف والشمس على وشك الشروق وكان الكل يعلمون اذا ما شاهدوا الدخان من بطن الوادي انه من فعل المايسترو كنراد سوبر بلنجر يانوس كيماوي الكونت الخاص الذي كان ينهض مبكراً كل يوم ليشتغل في معمله الكيماوي منذ ان اتى من مدينة ورزبرغ قبل سنة ونصف ولكن بدون اي نجاح.

وقف المايسترو كنراد بجوار نيرانه في معطف طويل اسود يرقب سوائل ذات رائحة غريبة تغلي في هدوء، ولحيته البيضاء الطويلة تصل ركبتيه.

لقد كان محاطاً بكل ضرب من الادوات الغامضة. على الجدران خرائط تظهر حركات النجوم والسماوات فيها مقسمة الى مناطق وابراج يستطيع المرء ان يقرأ بواسطتها تصرفات القدر وتقلباته. والمكان مليء ببواتق وافران لاستخراج الذهب مبنية بالقرميد الاحمر وجرار صلبة تقاوم نيران الجحيم والواح من الرصاص وقطع براقة من الصوان تحتوي على التبر ومنفاخ هائل الحجم اذا ما نفخ لهث كرئتي تنين يحتضر. وفي احدى الزوايا وعلى منضدة صغيرة منقوشة نقشاً انيقاً كانت قطعة من الذهب في نصف حجم حبة الأرز قد وضعت على مخدة مخملية تحت غطاء من البلور.

Twitter: @ketab_n

نظر المايسترو الى هذه القطعة من الذهب وحك رأسه. كان الكونت القرمزي قد استشاط غضباً ليلة البارحة لأنه ما عاد يطيق وجوده بعد انقضاء هذه السنة والنصف بما يكبده من مأكل ومشرب وعيشة رخية عدا عن صرف مبالغ ضخمة على الاختبارات. ورغم كل هذا لم يستطع ان يستخرج له اكثر من هذه القطعة الحقيرة من الذهب. وكاد الكونت يطرده مرة لولا ان الحظ واتاه فجأة ونجح في خلق الذهب. صحيح انه استطاع ان يفعل ذلك بان دس الذهب ـ الذي كان قد اشتراه ـ في الرصاص الذي كان من المفروض ان يحوله الى ذهب. ولكن الكونت مع ما عرف به من مكر ودهاء لم يكتشف الخدعة. كان المايسترو قد وضع اصبع الرصاص في النار امام الكونت في منتصف الليل تماماً وهو يقوم بأغرب المراسيم واكثرها سحراً في النفس. ولما سحبا القارورة من تحت الرصاص وجدا قطعة الذهب تتألق في قعرها.

ومن ثم ابتدأت متاعب المايسترو. اذ ان الكونت طلب المزيد من الذهب. قال الكونت: «كنت اعتقد انك ابلد ثور في العالم ولكني ارى الآن انك لست بأحمق بل أنت عجوز وغد تعرف كيف تصنع الذهب ولكنك لا تريد صنعه. فان لم ار غداً صباحاً كمية لا يستهان بها من الذهب في البوتقة فاني سأنزع شاربيك وأجرك الى اعلى قمة في ابراج قصري لأركلك من هناك ركلة تذهب بعدها الى حيث تذهب».

حدث كل هذا اثناء الليل. وفي فجر اليوم التالي كان المايسترو لا يزال يحك رأسه.

ابتعد المايسترو عن سوائله الغريبة باشمئزاز وتنهد قائلاً: «وأسفاه. كيف لي ان اصنع الذهب وانا لا املك فلساً من نحاس. لقد ناضلت ثمانية وثمانين عاماً من حياتي بوسائل الخداع والآن لا استطيع ان انتشل نفسي من هذه الورطة.

وبينما هو في حالته المؤسفة سمع فجأة صوت اقدام في الممشى. ثم فتح الباب ووقف الامير القرمزي في وسط ذلك المكان الشيطاني وحاجباه المقطبان تنذران بالشر. كان الكونت طويل القامة هزيلاً مكسواً بالنمش ذا شعر قصير احمر. ووجهه شرير بارز العظام ويداه كبيرتان كالمجارف. فقال وهو يتفحصه بعينيه الصغيرتين كعينين خنزير: «والآن يا مايسترو» فانكمش المايسترو من الخوف وحاول ان يبلع ريقه الجاف واصفر لونه وهمس بصوت لا يكاد يسمع «ماذا تعني يا سيدي؟؟»

Twitter: @ketab_n

فقال الكونت ببرود: «انت تعرف ماذا اعني»

ساد الغرفة صمت رهيب بينما كانت سوائل الاعشاب ذات الرائحة الغريبة تغلي فتعكر صفو السكون.

قال المايسترو اخيراً: «لا ذهب عندي يا مولاي».

فصاح الكونت: «اذن اعطني لحيتك» وقفز نحو المايسترو الذي رمى لحيته بسرعة فوق كتفه فتدلت على ظهره ثم صاح يائساً: «قف يا مولاي».

فأجفل الكونت وقال: «ماذا عندك؟»

فقال المايسترو بصوت كالانين: «عندي شيء افضل من الذهب» بلع ريقه ولم يكن جافاً هذه المرة. لقد تحلب فمه الآن اذ خطرت في باله كذبة محكمة وشعر بالخلاص... كرر الكونت بصرامة: «ماذا؟»

- شيء افضل من الذهب.
- احجر الفلاسفة؟
- كلا يا مولاي.
- ماذا اذن؟
- سعادة الحب الدائم. قال المايسترو هذه الجملة وبلع ريقه ثانية. فحك الكونت انفه وقال متسائلاً: «هل ادعك تجيز على هذه الاكذوبة ايضاً؟» ففكر المايسترو ان التردد نصف التصديق. ثم ذهب يسرد كذبته هادىء الروع: «لقد اكتشفت يا سيدي في اثناء اختباراتي الطويلة طريقة لاخضاع قلب الجنس اللطيف».

فشع شعاع من الفرح في محيا الكونت اذ كان معروفاً بحساسيته تجاه السحر الانثوي مع انه لم يصادف اي نجاح في حياته مع السيدات الراقيات.

تابع المايسترو كلامه: «لقد سحقت الفضة يا مولاي الى ان اصبحت كالغبار ثم غليتها في الاسبرولا اود وراتو وبعد ذلك في رحيق العازاروم يدروبيام. هذه هي المواد، ولكن المواد الكيماوية التي تخلق الرقية من اسراري الخاصة ثم رفع غطاء احدى الاواني حيث كانت بضع كمية من الفضة تغلي في سائل ذي رائحة كريهة. كان قد طبخ هذا الخليط ليلة البارحة كآخر سهم عنده ثم قال: «ان غبار هذه الفضة

Twitter: @ketab_n

سأسكبه في شكل رقيقة من الفضة فاذا ما كسوت مقبض سيفك بها ثم وضعت يدك اليسرى عليها طيلة الوقت أثناء مقابلتك الحسان فلن تستطيع اية امرأة مهما علا شأنها ان تقاوم سحر هذه الرقية. بهذا السيف تستطيع أن تملك اية امرأة في العالم».

فرضي الكونت بما سمع. وكان مقبض السيف جاهزاً ذلك المساء.

قال المايسترو في نفسه: «اني انما اكسب الوقت بهذا». ولكي يوفر على نفسه عناء انحنائه الى الامام رفع لحيته الطويلة ووضعها على ذراعيه ثم راح تائه الفكر.

انتشرت الاشاعة في تلك المقاطعة انتشاراً هائلاً واخذت جميع نساء القصور والقلاع المجاورة يتهامسن ويتبادلن النظرات المليئة بالمعاني وهن في الأثواب المزركشة بالذهب. كانت الاحاديث في كل مكان تدور حول الامير القرمزي ومقبض سيفه الفضي. ولم تمض ايام ثلاثة حتى عرض المايسترو كنراد بلنجر يانوس ثمانية عشر طلباً من امراء مختلفين يغدونه بأطيب العيش واوفر المال لمدى العمر ان هو باح لهم بسر المعادلة الكيماوية للمقبض الفضي. ولكن وعده بأضعاف ما وعدوه ولم يدعه يفارق قصره. وفي اليوم الرابع خرج ليغزو بمقبض سيفه الفضي.

كانت غزوته الاولى لقصر مجاور حيث كانت الاميرة الحسناء مع وصيفاتها الثلاث والثلاثين تنتظره بفارغ الصبر واشد اللهفة وكل واحدة منهن تريد ان تستقبله بنفسها مصرة على انها ليست بخائفة من مقبض سيفه الفضي. ولكن الاميرة مثال العفة والفضيلة صرفتهن جميعاً واستقبلت الكونت على انفراد.

كانت مضطجعة على ديوان عريض عندما دخل عليها ثم نهضت وقدمت له مقعداً فجلس الكونت وكعادة الفرسان وضع سيفه بين ركبتيه. غير ان الاميرة التي ما جرؤت حتى الآن ان تلقي نظرة واحدة على السيف استجمعت شجاعتها والقت عليه نظرة حيية. ولكنها ما كادت ان تفعل ذلك حتى اصابتها الدهشة. لقد كان السيف مرصعاً بالياقوت والاحجار الكريمة بينما كان مقبضه مكسواً بطبقة رقيقة من الفضة الرخيصة.

قال الكونت: «ان الطقس جميل». قالت الاميرة: «نعم جميل جداً». وشعرت بارتياح عظيم عندما رأت انه لم يضع يده على مقبض سيفه. قال الكونت: «ليس

Twitter: @ketab_n

حاراً كثيراً ولا بارداً كثيراً». قالت الاميرة: «انـه لمنعش جداً». قـال: «في الظهيـرة يكون حاراً ولكن الليالي باردة. غير ان غروب الشمس هذا المساء من اجمل ما رأيت وانه سيزداد جمالاً على جمال اذا صرفه المرء في صحبة امرأة جميلة». قال هذا ثم وضع يده الحمراء الكبيرة على مقبض السيف.

غير ان اميرة القصر لم تستطع ان تحول نظراتها عن اليد المـرتاحـة على مقبض السيف. كان الكونت الاحمر يتكلم بحماقة ولكن الاميرة لم تعر اهتماماً لما كان يقول. ثم راحت تحدث نفسها «ليس الامر الا خرافة حمقاء ولعمري لا ادري ما الذي يحدو بي ان انظر اليه؟» ولكن ما ان حولت انظارها عنه رأت نفسها مضطرة ان تعيد النظر اليه بسرعة. زاد في فزعهـا هو ان الكـونت جذب مقعـده نحوهـا يشد عـلى مقبض السيف بيده.

فسألها الكونت وهو يبتسم: «لماذا تفرين مني؟ اني لا اريـد الاساءة اليـك بل بالعكس». ثم اضاف الامير القرمزي بصوت يـذوب رقة: «لقـد احببتك منـذ زمن طويل».

فأحست المرأة كأن شيئاً يخنقها. ولكنها قالت في نفسها انما هذا من فعل الخيال - «اعبدك».

ولم تستطع المرأة ان تنزع عينيها عن يده وصاحت متوسلة «ان كنت حقاً تحبني افلت يدك عن مقبض سيفك». فصاح القرمزي في حميا عـاطفته «ابداً» ودنا بمقعـده منهـا. فارتعشت السيـدة كورقـة في المساء. وصـاح: «انت جميلة، انت جميلة مثـل الصباح. واصارحك القول باني قد اعتزمت ان اجعلك حبيبتي المفضلة». وتصلبت يده على مقبض السـيف.

ففكـرت المرأة الفـزعة «انـه لن ينزع يـده عن مقبض سيفه. لقـد هلكت». حاولت ان تنهض ولكن في تلك اللحظات شعـرت بوخـزات شائكـة على شفتيهـا. حاولت ان تصرخ ولكن الكونت كان قد احتوى كتفيها بين ذراعيه الطويلين القويين.

صاح الكونت وهو لا يزال يضغط على مقبض سيفه بيده اليسرى «انا احبك». فلهثت الاميرة «وانا ايضاً احبك»...

Twitter: @ketab_n

وبعد عشر سنوات سأل البارون الازرق المايسترو وهو على فراش الموت «ما هي المعادلة؟» وكان البارون قد اشترى المايسترو من الكونت القرمزي الذي كان في العشر السنوات الاخيرة قد سيطر على عدد كبير من النساء الجميلات بفضل سحر المقبض، وكرر سؤاله «ما هي المعادلة؟» فقال المايسترو وهو يئن: «وحق نيران الجحيم لا توجد هناك معادلة. مقبض فضي او زر نحاسي او مهماز من الصفيح او مسمار نعل حصان ذهبي. كلها سواء. على هيأة الرجل ان تعلن بأنه واثق من نفسه ـ تلك هي المعادلة. ولا خلاص من الرجل الواثق من نفسه. ولكنك يجب ان تؤمن في المقبض لانك ان لم تؤمن به فلن تؤمن به النساء ايضاً. والآن اذا اعتقدت في مقبض فضي او زر نحاسي او مهماز من الصفيح او في مسمار نعل حصان ذهبي سواء، فان اخلاقك الحميدة وجمالك وثقتك بنفسك وحسن تصرفاتك توازي هذه الاشياء. غير انك يا سيدي البارون الازرق وقد اخبرتك بكل هذا ستذهب النساء عبثاً بمقبض سيفك الفضي لانك لن تؤمن بعد، وستشعر النساء بانك لا تعتقد بقوتك في كل مكان ومجال يا. . .».

ولم يستطع المايسترو ان يتم جملته لان البارون الازرق عالجه بضربة على أم رأسه، كان سيموت في غضون الدقائق القليلة القادمة، ولكن البارون وجد انه من الافضل ان يساعده في الرحيل من هذا العالم.

وهكذا مات المايسترو سوبر بلنجر يانوس العجوز، والحقيقة على شفتيه.٭. .

Twitter: @ketab_n

المليونير

بقلم: ألكسندر كوبرين
روسي (١٨٧٠ - ١٩٣٠)

في الامسية الثالثة من عطلة عيد الميلاد اجتمع عدة ضيوف في بيت السيد راكيتين، وهو أعزب وموظف في دائرة البريد. مدت المائدة في احدى الغرفتين الصغيرتين التي كتب على بابها الاسم الطنان: «غرفة الاستقبال» لكي تتميز عن غرفة النوم الأخرى.

وفي مكان الشرف جلس مدير دائرة البريد شميت - رجل مصفرّ بدين، منتفخ، يبدو وكأنه مملوء بالماء. وعلى جانبيه، يقابل احدهما الآخر، جلس الأب ديكن فاسيلي والمضيف - وهو رجل نشيط قصير القامة، قسماته صفراء داكنة، كما ان بياض عينيه يضرب الى الصفرة ايضاً.

اما الاماكن الاخرى فقد أشغلها مساعد مفتش الشرطة بافلوف، وهو ضابط قوزاقي سابق، وفتى مرح ميال للمشاغبة. جلس تجاهه رجل ذو شعر اسود طويل ينعت نفسه بـ «رسول الثمالة الوادعة».

واخيراً، وفي طرف المائدة الاخير، اعتصم آغي فوميش ماليغوين، وهو ايضاً موظف في دائرة البريد، وكان بسبب جبنه وتحفظه يشغل دائماً ادنى المقاعد.

Twitter: @ketab_n

كان آغي فوميش هذا يتجنب قبول الدعوات بقدر ما يستطيع لانها تورطه بدعوات مقابلة لكل من يستضيفه.

ولقد كان افقر موظف في دائرة البريد، وفي عنقه ان يقيت ويلبس زوجة وحماة مسنة وخمسة اطفال. ولذا فان راتبه الشهري البالغ اثنين وعشرين روبلاً لم يكن كافياً ليقوم باودهم مطلقاً.

جلس الى المائدة مبلبل الفكر، شاحباً اكثر من عادته، وقلبه غارق في الجبن، يفرك يديه بعصبية وهو ينتظر اللحظة المناسبة ليفض ما في نفسه، وكان يرفض كل ما يقدم له بحياء فوري لخشيته من ان يكلف المضيف مصروفاً زائداً. وهذا الشعور لا يحس به الا التعساء المساكين امثاله.

اكل الضيوف وشربوا، وصرفوا بعضاً من الوقت في حديث ممل لا حياة فيه عن احد الملاكين، ومدير بريد الناحية، وعن حصاد السنة المقبلة.

وخال لآغي فوميش، لثلاث او اربع مرات، أن الفرصة المناسبة قد سنحت له لكي ينحني في وسط الحديث نحو مساعد مفتش الشرطة، ومعلم المدرسة، ويطلب من احدهما قرضاً.

وتحول الحديث شيئاً فشيئاً الى صعوبة العيش في هذه الايام، مما جعل الموضوع حديثاً عاماً اجتذب اهتمام الجميع، وعبر كل واحد منهم عن نفس الرأي وهو: «مهما تقل وتفعل، فان النقود، والنقود فقط، هي اهم شيء في الحياة!»

وقال سميث بصوت لاهث: «مرة كدت ان اصبح غنياً عندما لعبت لعبة «الغارو» في حفلة زفاف الملاك يورشنسكي.» ثم راح يسرد انه كيف ضرب بنك المائدة الخضراء ضربة قاصمة.. ثم خسر كل شيء.

وقال الأب ديكن وهو يتنهد: «ان بعض الناس يواتيهم الحظ في اليانصيب. ولقد قرأت مؤخراً ان احد المرابين ربح الجائزة الاولى وقدرها مئتا الف روبل. فيا له من مبلغ وما يفعله فيها لو كان من حظ امرىء فقير! ولكنه بالعكس يذهب الى رجل يتمرغ في النقود. حقاً ان طرق الله غامضة لا يسبر غورها!»

Twitter: @ketab_n

وقال معلم المدرسة بصوته الأجش ببطء مفتعل: « نعم ـ نعم! وكثيراً ما نسمع انه اذا ما ربح امرؤ مرة فإنه لا بد أن يربح مرة ثانية. ولشد ما استغرب ان يكون هذا صحيحاً.»

فاجابه مساعد مفتش الشرطة: «يقال ان هذا صحيح ـ ولو أنني لا أجزم بأن هذا ما يحدث دوماً.»

ثم راحت تسرد حكايات مبتذلة، الواحدة تلو الأخرى، يعرفها الجميع، وتشبه الواحدة منها الاخرى كما تشبه حبة الحمص أختها. ومنها كيف ان روتشايلد الأول وصل باريس على قدميه، وباع الكبريت في الشوارع، ثم غدا له بعد ذلك دخل سنوي بالملايين. وكيف يعثر البعض على ثروات في باطن الأرض، ويربح البعض الأخر على موائد القمار. ثم يصيب الحظ بعضهم بضربة صائبة. واخيراً كيف يصل العم المليونير من امريكا على غير انتظار...

وعلى الرغم من ان آغي فوميش لم يفه بكلمة واحدة، فانه كان يعب الحديث بكل انتباه، ورغماً عن مظهره الباهت، كما هو حاله دائماً فان له مخيلة عجيبة النشاط، وكل ما كان يقال في محضره كان يغدو لديه اختباراً جلياً من اختباراته الخاصة. فحكايات الديوان، والثراء المفاجىء الذي انصب على تلك المخلوقات الغامضة الرائعة الذين يدعون باصحاب الملايين، والذين لا يحرمون انفسهم من نزوة واحدة أهاجته حتى منتهى درجات الحمى، فوصل به البؤس منتهاه في تلك اللحظة لحاجته الماسة لبضع روبلات زهيدة.

وقال على حين غرة: «ان بعض الناس يجدون النقود في الشارع حقيقة!» ثم اندهش للكلمات التي فاه بها .

وحدق إليه الجميع بدهشة، لانه حتى تلك اللحظة لم يكن قد نطق بكلمة واحدة. واضطرب آغي فوميش اضطراباً عظيماً، فأخفض نحو غطاء المائدة بارتباك.

وقال مساعد مفتش الشرطة مازحاً: «لا ريب انهم يجدون النقود في الشارع، ولكن.. في جيوب الآخرين». وانفجر الكل ضاحكين، لا لنكتة مساعد مفتش الشرطة وحسب بل للاضطراب الذي اعترى ملامح آغي فوميش. واستمر الحديث،

Twitter: @ketab_n

ثم تحول فجأة ودار حول قضايا السرقات الكبرى الزاخرة بالجسارة والاقدام والتي بقيت بدون حلّ.

ومرة أخرى بدأت تتلاعب امام ناظري آغي فوميش عشرات ومئات الآلاف من الروبلات، كميات ضخمة من اوراق النقد المتعددة الألوان، اسماء ساحرة لرجال اثرياء فقدوا القدرة على عد نقودهم. اصغى الى كل هذا بنشوة كنشوة الجائع امام شباك بائع المأكولات.

. دقة واحدة من الساعة القديمة الدقاقة اعلمتهم انها بلغت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. فنهض الأب ديكن وهو يشمر كم ثوبه اليمين وودع المضيف. ثم نهض الباقون على اثره حالاً ما عدا آغي فوميش. وبينما كان راكيتين والشمعة في يده يودع ضيوفه حتى الباب الخارجي، مكث آغي فوميش جالساً في مكانه دون حراك يدحرج كرات صغيرة من الخبز بيد مرتجفة عصبية.

وفكر آغي فوميش: «ان راكيتين راجع بعد لحظة، وسأطلب منه بعض النقود، وعلي ان اكون اكثر شجاعة. ومهما يكن من امر فانه لن يأكلني لطلبي!»

واخيراً رجع راكيتين وجلس بجانب ضيفه وهو مندهش لعدم انصرافه مع الآخرين. ولكن بدلاً من ان يطلب آغي فوميش النقود للتو، بدأ في حديث طويل ممل عن العمل والاجور. واخذ راكيتين ينظر اليه بعينين ناعستين ولو انه تظاهر من باب اللياقة بالانتباه والاصغاء وهو يتثاءب مغلق الفم. وانصرم نصف ساعة على هذه الحال. وفي النهاية لم يستطع راكيتين التحمل اكثر من هذا، فمدد نفسه وهو يتثاءب بصوت طويل عال.

وقال بصوت نؤوم: «اني آسف علي ان ادوام في المكتب غداً..»

فنهض آغي فوميش مسرعاً وأخذ يقدم اعتذاراته. وبينما هو في الممر، وقد لامست يده مقبض الباب، امتلك تردده بغتة واستدار نحو راكيتين.

وقال بصوت مرتبك وعيناه منخفضتان: «اسمع، لي طلب.. طلب صغير.. منك..»

فقال راكيتين متململاً: «ما هو؟».

Twitter: @ketab_n

ـ «انت تعرف. . بشرفي. . ان هذا. . اني اكره ان أثقل عليك. . الزوجة، كما ترى، ترتقب مولداً. . انت تعلم. . القضية مهمة ولا مناص منها. . اني اعدك بالتسديد. . هل باستطاعتك ان تقرضني»ـ ونوى ان يقول «عشرة» ولكنه خشي ان يطلب مبلغاً كهذا ـ «خمسة روبلات فقط. . ؟»

فاجاب راكيتين وهو يضغط بكلتا يديه على صدره محاولاً اقناعه:

«ولكن ليس لدي كبك واحد. انت تفهم، ليس في البيت كله ـ كبك واحد.»

فتأكد آغي فوميش من لهجة راكيتين المبالغ فيها انه يمتلك نقوداً ولكنه يخشى ان يقرضه شيئاً منها. وبعد ان تلعثم ببعض كلمات الاعتذار خرج الى الشارع.

كانت الليلة مقمرة ساكنة كلها صقيع، والثلج يصرف تحت الخطى صريفاً أجوف. وكان على آغي فوميش ان يسير طريقاً طويلاً، وفكرة النقود لا تفارقه. وتحقق والفزع يمتلكه انه سيصل عن قريب الى بيته المنخفض القارس البرد ذي الشبابيك الخضراء التي الصق زجاجها المهشم بالمعجون. وتذكر رائحة الفاقة الابدية واسمال اولاده. ماذا سيقول لزوجته عندما تسأله بصوت مجهد ضعيف عن النقود؟ لقد عاد بعد ان اشترك في شرب البيرة والفودكا. واكل شرائح من اللحم المحمر، بينما هم آووا الى مضاجعهم جائعين يدغدغهم امل واحد، وهو ان اباهم سيعود وقد حصل على النقود.

وصرخ آغي فوميش بحرارة: «يا الله! لماذا أسبغت السعادة على الآخرين ومنحتهم الراحة وكل ما يحتاجون؟ لماذا نسيتني؟ لماذا يجد الناس النقود التي لا يحتاجونها مطلقاً؟ لماذا لا اجدها انا مرة واحدة، واحدة فقط؟ عشرة روبلات فقط، وليس عشرين! لكي أدفع اتعاب القابلة واشتري حذاء لغاسكا، ومعطفاً دافئاً لليا. . لماذا لا أجد في هذه اللحظة، محفظة في الطريق؟ هناك بعض حالات يحدث فيها ذلك فعلاً، بل كثيراً! ولطالما كتب الناس وتكلموا عن امور كهذه!»

وبخدعة من مخيلته اخذ آغي فوميش يتصور فرحاً انه قد وجد محفظة جلدية سمينة في الشارع تحتوي على رزمة كاملة من اوراق النقد ذات المئة روبل، مع تذاكر يانصيب اخرى. . ثم رأى نفسه وقد انتقل الى مسكن جديد دافىء يبعث على البهجة.

Twitter: @ketab_n

ثم اقتنى اثاثاً واشترى ثياباً دافئة جميلة لعائلته.. واشياء اخرى كثيرة تجعل النقود امتلاكها في حكم المستطاع.

وشيئاً فشيئاً ـ وقد يكون هذا من تأثير الاقداح العديدة التي شربها من الفودكا، أو نتيجة الايحاء الذاتي ـ أخذ يتضخم في مخيلته اعتقاد في منتهى السخف ولكنه لا يقاوم، وذلك انه في هذه الليلة، لا بل في هذه اللحظة يجب ان يجد محفظة بديعة في الشارع. اما لماذا يجب ان يحدث هذا، فأمر لم يعرفه، ولم يفكر فيه. وشعر بكل بساطة، ان ذلك واقع لا محالة. ثم طفق يمشي وهو منخفض الرأس يتفحص الارض بكل انتباه.

وراح يهمس كما لو انه يهذي: «هنا، في هذه الدقيقة.. في هذه اللحظة.. كثيراً ما وجد الآخرون اشياء كهذه.. بضع خطوات اخرى.. حالاً.. سريعاً...»

وفجأة ـ وهذا لم يكن باي حال وهماً من مخيلته المحمومة ـ رأى بوضوح على الثلج في الطريق امامه شيئاً اسود صغيراً مربعاً بنفس الشكل الذي تخيله.

فاجال آغي فوميش بصره حوله خلسة كسارق وقد وقف شعر رأسه، ثم انقض على الشيء المطروح امامه وهو يلهث بنشوة جنونية..

فتحول هذا الشيء بين يديه الى محفظة جلدية سمينة.. لقد أذهله لبضع ثوان تصادف الاحلام العجيب مع الواقع، ولكنه بعد أن اقتنع ،أن ما بين يديه ليس محفظة وهمية بل حقيقية، ضغطها بشدة الى صدره ثم ركض مندفعاً نحو البيت.

كان عليه ان يركض نحو ميل او اكثر، ولعدم تعوده على الركض فان حركته السريعة سببت له نخزة في جبينه. ثم جف حلقه ويبس، ونبض الدم شديداً في رأسه. ولكنه لم يستطع التوقف، وبدا له انه اذا تأخر لحظة واحدة سيلحق به شخص ما ويأخذ كنزه الثمين منه.

وفي اثناء ركضه سقطت قبعته من على رأسه. وخطر له للحظة ان ينحني ويستعيدها ولكنه تركها، وعدا مندفعاً وهو يهمس في جذل: «سأشتري الف قبعة!..»

Twitter: @ketab_n

وجواباً على قرعه العنيف فتحت له زوجته الباب وهي فزعة مضطربة. كانت ممسكة بشمعة في يدها فاستيقظ الاولاد ايضاً فاصابهم الرعب والفزع وهم يحملقون من على فراشهم.

غاص آغي فوميش بثقل في احد المقاعد وهو شاحب الوجه ينز بالعرق، وعيناه تحومان وتتوهجان.. ثم لوح بالمحفظة، وقعقع صوته منادياً: «يا أنشكا! يا اولاد! هاكم.. في هذه المحفظة.. نقود.. مئة الف روبل.. الايجار.. بيت عظيم. يا آنيا.. شمبانيا.. اربع مئة الف.. هل تفهمين؟ كل شيء.. كل شيء.»

واليوم، وقد غدا آغي فوميش ثرياً، اذا قيست جميع ثروات اراضي الذهب وكاليفورنيا بملايينه، فانها لن تبدو الا كالهباء. لديه ستون الف جواد في اسطبلاته، وثلاثة ملايين وخمس مئة الف عربة. انه مدير خطوط السكك الحديدية في العالم كله علاوة على الخط الذي بدأ رحلاته بين الأرض والمشتري. وهو سخي الى درجة غير مألوفة، اذ انه يهدي كل طالب فقير تعس مليوناً من الروبلات. وهو لطيف وديع وأنيس. غير ان ثمة شيئاً واحداً فقط لا يستطيع تحمله، وهو ان يجرؤ امرؤ على مس محفظته الجلدية الثمينة التي تحتوي على ورقة مالية من فئة الثلاثة روبلات، وايصالاً، وقصاصة اعلان من احدى الجرائد، اذ انه ينقلب عندئذ الى حالة غضب شديد ويقذف كل من حوله بأي شيء تقع يده عليه. ان زوجته واولاده مولعون به كثيراً، ويعتنون به أشد العناية وأرقها، وهو يبادلهم هذه المشاعر نفسها.

وبعد، كيف لنا ان نعرف؟ لعل المجانين احياناً اسعد منا نحن العقلاء؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سايكي

بقلم: الكسندر كوبرين
روسي(١٨٧٠ - ١٩٣٠)

٢٣ تشرين الثاني -

لعله يبدو سؤالاً وجيهاً لاي امرىء ان يسألني لماذا عدت وتابعت كتابة يومياتي التي كنت قد بدأتها ثم اهملتها منذ خمس سنوات؟ بالتأكيد ليس هناك مدعاة للتفكهة اكثر من فكرة كتابة اليوميات او السيرة الذاتية. من المضحك ان ترى كيف ان جميع هذه الوثائق لها نفس البداية: يحاول الكاتب التأثير في القارىء بما لديه من براعة في أن يضفي على نفسه شخصية متميزة حتى وهو في طريقه نحو المشيب الوقور. اليس مما يثير الاشمئزاز ان نرى حتى الاناس البارعين يتلذذون بنهم باستعراض مشاعرهم الشخصية، ويجدون لها طعماً او معنىً خاصاً؟

اما بالنسبة لي فان هذه اليوميات في منتهى الاهمية لنفسي، أنا. وليس في نيتي قراءتها لاي انسان، قطعاً.

انذرني الطبيب اليوم بانه نظراً لنوع الحياة التي كنت احياها، والصراع والأرق اللذين كانا ينتاباني خلال السنوات الثلاث الماضية، علاوة على العمل المرهق الشاق الذي قمت به ولا تقوم به إلا البغال، عليّ ان أستعد لانهيار عام في جهازي العصبي.

Twitter: @ketab_n

وبعبارات متباطئة شنف بها اسماعي هذا الطبيب العصري مقابل روبلاتي الخمسة الاخيرة، نصحني بأن اذهب الى القرم لأقضي هناك وقتاً ارفه به عن نفسي، وانا، اذ ليس في جيبي ثمن زوج من الغالوشات، فهمت تماماً بانني في خطر الاصابة بالجنون. وهذا فيه من الاحتمال كفاية، لأن اسلافي الموقرين كانوا جميعاً أبالسة سكر أو معتوهين. ولقد آليت على نفسي ان اسجل انطباعاتي في هذا الدفتر إلى ان يتضح لي ان قواي العقلية آخذة في التفكك. وعندئذ... عندئذ الى المستشفى، أو إذا ما بقيت لي بقية من قوة الارادة، فرصاصة في رأسي...

٢٦ تشرين الثاني -

لماذا هذا الظلم؟ انا من المؤكد حائز على مواهب قوية وأصيلة، وليس هناك سبب يدفعني لجلب الأنظار إلا لكي أتملّق نفسي. اني راسخ في رأيي هذا ليس لمجرد اني حائز على المدالية الاكاديمية الذهبية، التي تخولني لبعض الادعاءات في الفن، بل بتقدير نقاد الصحف ايضاً. اني أحسّ بقوة خارقة جبارة في داخلي، واستطيع استيعاب أقل التفاصيل لاي غرض بنظرة واحدة خاطفة. أفكار عملاقة، كل منها اكثر جرأة واصالة من الأخرى يطفح بها دماغي حتى إني لأشعر احياناً بالخوف. ولكن ثمة مزية اعظم من هذا هي: في اللحظة التي اكون فيها منهمكاً بالخلق، امتلىء بنشوة دينية واشعر بتشول ربة الخلق، متخفية، بين يديّ. دماغي يلتهب وموجات من البرودة تسري في عمودي الفقري صاعدة نازلة، شعر رأسي ينتصب والفرح يعم ارجاء روحي. ولكن القدر حتّم عليّ سخريته وكأنه يتعمد أن يبقي تجسيد أية فكرة من افكاري الثمينة امراً ميئوساً منه، ومستحيلاً يبعث على المرارة. والعمل في سبيل الحصول على القوت اليومي لا يتمشى والخلق الحر. وعلى المرء لكي يتجنب خطر الموت او الجنون ان يسيّر نهجه بين الاحلام الرائعة والموت المرتقب من الجوع، والجوع هو اردأ غذاء للوحي.

٢٧ تشرين الثاني -

أنهيت اليوم التمثال الصغير الثاني عشر لبوشكين. لقد غدوت خبيراً بصنع هذه التماثيل، حتى انني استطيع القيام بعملي مغمض العينين. وهي تشبه بعضها بعضاً وكأنها توائم. وكل ما هو لبوشكين يباع حالاً هذه الايام بسبب الاحتفالات

Twitter: @ketab_n

الخمسينية. ولكن صاحب الحانوت الذي يبتاع اعمالي ليس راضياً ولا يفتأ يردد على مسمعي: «ليس هناك تنويع في تماثيلك الصغيرة، ونحن نريدها ان تكون شيئاً مسلسلاً في تنوعه، لأن اذواق الجمهور تتباين.»

أحياناً يصيبني الغثيان حدّ التقيؤ بمجرد التفكير بأن عليّ ان أخضع نفسي لهذا الاسترقاق اليومي. اني ارى والرعب يستحوذني، بعد اسبوع من العمل على تمثال نصفي لشاهد قبر، أني بدأت ابرز ملامح وجوه عملائي، الرسميين منهم والتجار، في اشكال غدت اثرية. ولكن اذا كانت الروبلات العشرة او العشرين التي احصل عليها منهم تمكنني من ان اكون سيد إلهامي شهراً كاملاً، فلماذا القلق؟.

٢٨ تشرين الثاني

لماذا يعتقد الجميع ان الرجل الثمل هو اقرب ما يكون الى حالة الجنون؟ استنتاج خاطىء يثير العجب! ويبدو أنه عليّ ان أتقدم بالشكر الى سيدة المنزل التي، حباً منها في الاقتصاد، ولعدم مبالاتي، اهملت العناية بموقدي. فعكفت نتيجة هذا على معاقرة الفودكا. اقتصرت في البداية على تناول كأسين او ثلاث طلباً للدفء، ولكن بعد مضي زمن قصير شعرت ان ذلك لم يعد يكفيني. وانا إذ اكتب هذا الآن اكاد اكون ثملاً، وعقلي يعمل بقوة عظيمة وبدقة تثير الدهشة، ويسجل تفاصيل مشاعري ببراعة لم يكن ليستطيع التوصل اليها وهو صاح.

غير ان لساني ورجليّ لا تعمل بصورة منتظمة، وغدت عيناي كليلتين بحيث يبدو كل شيء وكأنه مسربل بالرمال، واختفت الخطوط الخارجية الواضحة. ولكن هذا كله لا يعني شيئاً. اذ ان فنانين عظماء عديدين انتجوا اعمالاً خالدة في حالة كهذه تماماً. ولقد اردت اليوم ان اقوم بعمل ولكنني قضيت وقتي مضطجعاً على حضيرة الكلب تلك التي تدعوها سيدة المنزل اريكة. قضيت وقتي عليها وانا احلم بالشهرة.

٢٩ تشرين الثاني -

استيقظت باكراً حوالي الظهر وصداع شديد يكاد يشق رأسي. لقد حلمت الليلة الماضية حلماً غريباً، رأيت نفسي واقفاً عند اطراف المدينة، وكان الفصل خريفاً على ما أظن، بارداً، والضباب الرمادي يكتنف كل شيء، واقترب الغسق، ووجف

Twitter: @ketab_n

قلبي توجّساً من وقوع فاجعة. . .

وبغتة سمعت خلفي وقع حوافر ما يقرب العشرين حصاناً، التفت فرأيت مشهداً غريباً. رأيت عشرة او عشرين فارساً جميعهم متشحين بالسواد، وجيادهم تعدو بهم بسرعة لا يصدقها العقل. كانوا يركضون ازواجاً في طريق مستقيم لا يلتفتون يميناً او شمالاً. وكان كل واحد منهم يحمل مشعلاً مضيئاً يلتهب بوهج احمر ينفث السخام. فدخل في روعي أنها جنازة، ولم تمض برهة حتى ظهر نعش تجره ستة جياد مجللة بالسواد تعدو بسرعة كبقية الجياد الأخرى. أما التابوت فقد كانت تغمره ورود لونها بلون اللهب. ثم رأيت نفسي اركض حتى بلغت الموكب في المقبرة، فوجدتها مكاناً موحشاً يخيم عليه الكآبة. ثم هزت الاشجار العارية اغصانها ناثرة حبيبات المطر في ارجاء المكان، وانتشرت رائحة الارض الرطبة واوراق الاشجار الذابلة العطبة.

أخذ الفرسان التابوت من على النعش وشرعوا بانزاله في الحفرة. ولكن غطاءه لم يكن في مكانه، فرأيت انه يحتوي على تمثال من الرخام لفتاة ذات جمال علوي نادر. كانت مضطجعة على فراش من العشب الاخضر النضر، ومغطاة بورود حمراء وزهور الكاميليا، ولا ادري كيف توصلت الى النتيجة ولكني عرفت التمثال للتو ـ كان تمثال سايكي النائمة!

فاندفعت بين الجمهور المحتشد اصرخ واصيح بان تلك الفتاة المضطجعة هناك على قيد الحياة. فضحك الفرسان عالياً ودفعوني بخشونة الى الخلف. ولكنهم لم يتمكنوا من ايقافي، إذ نزلت في القبر واحتضنت الجسد البارد الجميل بين ذراعيّ واضطجعت هناك بجانبها. ثم اخذوا يهيلون التراب علينا بالرفش، يهيلون، ويهيلون. . .

واخيراً تكوم عليّ التراب حتى لم استطع التنفس. واردت الصياح، ولكن صوتي كان مجرد همسة، وقمت بحركة يائسة، واستيقظت.

٣٠ تشرين الثاني ـ

يوم آخر ذهب سدى. وفجأة اصبح المصارعون الذين ادرس حركاتهم من أجل

Twitter: @ketab_n

أعمالي النحتية ممجوجين في نظري. ولم اعد استطيع النظر الى تلك العضلات القوية الفظة. رب سائل يسأل لماذا اذن كرست شهوراً بكاملها ولاءً لهم؟ ولماذا كنت اذهب الى مصنع موروزوف وأدفع أربعة فلوس كل مرة كي اجعل اثنين من العمال يتصارعان أمامي؟ ومن ناحية أخرى فقد كان ذلك التمثال البديع لا يفارق تفكيري طيلة النهار. أين ومتى رأيت ذلك الوجه البديع الهادىء من قبل؟ وذلك الجسد الرقيق وذينك النهدين اليافعين اللذين كانا في اول نفورهما؟ جسد هشّ رشيق وفي الوقت نفسه في منتهى البراءة مع كل عُريه. ثم لماذا هو في يقيني لسايكي وليس مثلاً لدافني أو فلورا؟ ان اهتمامي شديد بسيكولوجية الاحلام، وقرأت كثيراً حول الموضوع، واعلم جيداً ان المرء لا يستطيع ان يرى شيئاً في حلمه لم يره او يقابله من قبل في الواقع. فلا بد أني قابلت سايكي هذه في مكان ما.

ولكن اين؟ لقد راجعت النحت الكلاسيكي برمته في مخيلتي فلم اتمكن من وضعه في مكانه مطلقاً. الوجه معروف الى درجة غريبة ومع ذلك اجد وصفه من رابع المستحيلات. ان جماله في اعلى مراتب الجمال ولكنه مع ذلك بسيط الى درجة لا تصدق. وعندما احاول أن استعيده في مخيلتي لا يظهر بتاتاً، وعندما اشرع مباشرة في التفكير في شيء آخر أراه يعوم امام ناظريّ.

٢ كانون الأول ـ

أكاد لا أجد وقتاً لغسل يديّ من الصلصال لكي أكتب بضعة اسطر في هذا الكراس السخيف. لقد قضيت أياماً ثلاثة وانا منهمك في العمل على سايكي. اعصابي استعادت نشاطها، وجعلت اشتغل بسرعة وخفة. وعندما اضطجع للراحة كل مساء اشعر باني امتلك توازناً في العقل والقلب في منتهى الكمال بوسعي أن أسميّه حالة من الغبطة والسعادة... ان بعض النحاتين يصورون سايكي كامرأة في كامل نضجها. خطأ لا يتصوره العقل!

ان سايكي صبية. انها صغيرة، ويجب ان توحي للمشاهد بانها تقترب من النضج الساحر، مع وعي غامض كله حياء يحولها من فتاة يافعة الى امرأة ناضجة. ولكن بالاضافة الى هذا حققت اكتشافاً أهم، وهو انه لا يحق لاي كان الاقتراب من فن النحت اذا لم يكن بتولياً، لان هذا الفن هو انقى واعظم وأطهر الفنون كلها.

Twitter: @ketab_n

ولذلك فان على النحات ان يعمل بدون «نموذج» بل حتى بدون تمثال حجري امامه. ان «النموذج» الحي يفسد كل شيء. فالمرأة النموذج، اذا كانت بليدة قذرة، ستختلط بالحلم المرمري وسيتهافت الحلم عندئذ ويحل العهر مكانه. وجدير بنا ان نتذكر ان فننا القديم قامت به الايدي وحركات الاصابع بأبسط الادوات.

ما من احد سيقرأ هذه اليوميات سواي ولذلك ساتابع سيل هذا التفكير حتى النهاية. فبالرغم من العبقرية الجبارة التي اشتهر بها كل من فيدياس وكانوفا وثوروالدسن، لم يستطع اي منهم الافلات من افكار حياتهم اليومية الخاصة الخشنة. ولكي يستطيع النحات ان يكون في حالة تمكنه من خلق عمل عظيم يجب ان يكون نقياً وعفيفاً. وها انا اقدم سايكي راقدة. هم يقولون ان الاشكال المضطجعة قد راح زمانها ولكن ذلك لن يعيقني.

٤ كانون الأول ـ

يا لله لهذا العناء والعمل الجهنمي! ومع ذلك، لا شيء، لا شيء! وببساطة، أنا لا اتذكر سايكي التي رأيتها في الحلم. اني اعمل من الصباح وحتى المساء إلى ان اصاب بالذهول وتضمحل قواي. ومع ذلك ـ لا شيء. ان ما هو امامي الآن ليس سايكي النائمة، بل فتاة لعوب كلها اغراء انهكها العشق.

لا! لقد اجهدت نفسي، وهذا كل ما في الامر ـ والمرء ببساطة لا يستطيع ان يعمل ستة ايام متوالية دون ان ينزع عنه ثوب العمل. ساحاول ان آخذ قسطاً من الراحة.

٦ كانون الأول ـ

ألا فلتذهب الى الشيطان اذا كانت هذه راحة. اني لم انهض من فراشي ليومين كاملين. ولكن كابوساً سخيفاً جثم على صدري طيلة الوقت. وعقلي في حالة من الاضطراب المحير فيما يخص التواريخ، وذلك اني لا استطيع التأكد من حدث معين، هل وقع هذا الصباح ام امس ام قبل اسبوع، ام انني قرأته في كتاب ما، ام أنه كان حلماً؟

لقد لاحظت اكثر من مرة ان ذاكرتي تخونني. وخصوصاً منذ أن ابعدت

Twitter: @ketab_n

اصدقائي وانقطعت عن الكلام تقريباً. ذاكرتي ذاكرة رجل مسنّ، فهي صافية فيما يخص احداث الطفولة ولكنها تضطرب وتتشوش اكثر فاكثر كلما اقتربت من الوقت الحاضر. قضيت معظم هذا اليوم نائماً احلم آلاف الاحلام. وفي هذه الاحلام اعي نفسي دائماً راقداً على تلك الاريكة اكرر دائماً نفس الكلمة البلهاء لنفسي، الى ان احتار ماذا افعل بنفسي من شدة الملل. وهذه الاحلام التعسة محبوكة باحكام مع الواقع التعس. ويستبد بي قلق لفترات طويلة حتى اني لا اعرف اين ينتهي هذا الحلم ويبدأ ذاك. وعملت جاهداً وصحوت من سكري مرة او مرتين ورغبت يائساً في ان اتخلص من هذه الغيبوبة الشيطانية، وان اهز نفسي واتحرر منها ولو للحظة واحدة. ولكن ما ان تنقضي برهة وجيزة حتى تأخذني سنة النوم مرة اخرى.

الليل رهيب. وعيناي لا يغمض لهما جفن حتى الفجر. أرقب برعب، وبعجب احياناً، سلسلة طويلة من الصور والتماثيل والحيوانات ووجوها معروفة وغير معروفة تعوم منسابة امام ناظري ثم تعود فتختفي دون ارادة او رغبة مني. والوجوه في معظمها شيطانية قبيحة، وتتحرك حركات بشعة، وتجحظ باعينها وتبرز ألسنتها، وعندما يقترب احدها ليلامسني تصبح بغيضة كانما الجلاد لامسني. ولكي أخلص نفسي من هذه الهلوسات احتسي بضع كؤوس من الفودكا فاشعر بتحسن. ألا يتحتم عليّ أن ارى الطبيب؟

٨ كانون الأول ـ

ألقيت الآن لمحة عابرة على نفسي في المرآة. ولم أكن قد رأيت نفسي لثلاثة أسابيع خلت. وهالني عندما رأيت الوجه الطويل الشاحب ينظر إليّ بعينين غائرتين، وخدين اجوفين. باختصار، اني اكره شكلي الخارجي. يقولون ان الانسان تاج المخلوقات. الاحرى بهم ان يلقوا نظرة على شخصي ليعلموا اي نوع من التيجان هو في الوقت الحاضر.

١٠ كانون الأول ـ

هل بامكاني ان اعبّر بالكتابة عما حدث في الليلة الماضية؟ لم استطع بعد ان افصل نفسي عن انطباعات تجربتي. ورغم أنني أعجز من ان احول جزءاً واحداً بالمئة

Twitter: @ketab_n

منها الى كلمات، غير أنني سأحاول أن اقصها بالترتيب. استيقظت في منتصف الليل ظناً مني ان احداً قد ناداني باسمي، وهذا يحصل لي مراراً، وخصوصاً عندما يكون القمر ساطعاً. كانت غرفتي يغمرها سيل من النور الأخضر الفضي، وبدت غير مألوفة تماماً. ظهرت الجدران وكأنها نمت في العلو وتباعدت. وبدا الاثاث كله غير عادي. وخيّل إليّ اني ادركت بالبديهة ان شيئاً ما في غاية الاهمية سيحدث، وألقيت نظرة على مخلوقتي «سايكي». كانت مستلقية على الارض ملفوفة بخرق رطبة. وبدا جسدها في هذا الفيض من البهاء شفافاً. وبصورة آلية اخذت عوداً وذهبت اليها، ثم، وكأنني أصدع بأمر من قوة غريبة، خططت به خطوطاً جديدة. . . وبغتة اصابتني الرجفة وهتفت من الفرح: ان سايكي ذاتها التي رأيتها في حلمي استلقت امامي بشكلها البديع الذي حاولت عبثاً ان اتذكره! ما من نطق بشري يستطيع ان يعبر عن السعادة الهوجاء التي انبثقت في روحي. . . الآن فقط فهمت لماذا بدا لي وجهها بسيطاً ومألوفاً الى هذه الدرجة، وذلك لانه النموذج الاصلي للتناغم والجمال العلوي الكامن في روح كل انسان من يوم مولده، انه الشيء الذي اطلقت عليه البشرية ذلك الاسم المبتذل: «مثالي». ونحن الفنانين موهوبون بالوسائل اللازمة لبلوغه، ولكننا حتى هذه الليلة العظيمة كنا نطارد ظله عبثاً. وانا، أنا الانسان الشاحب الدميم الهزيل، حققت ما كان يظن بانه المستحيل ووضعته في شكل ثابت محسوس! ولكني بالطبع اعلم تماماً أن هذا لا علاقة له بما لديّ من موهبة، وان الصدفة وحدها هي التي قادت يديّ. ولربما، ولهذا السبب بالذات، يجب ألا يرى سايكي هذه احد سواي: لانه اذا قدّر للبشرية ان تتوصل الى هذه الدرجة من الكمال في الفن البشري فلن يكون ذلك في أقل من عشرة قرون اخرى. على الانسان قبل كل شيء ان يكتشف ويخضع جميع قوى الطبيعة التي تسترقّه حالياً، وعندما يبلغ في النهاية هدفه الاسمى، عندما يحصل على الحقيقة الابدية والجمال الخالد، سينقطع عن ان يكون انساناً. وحده الله يعلم ماذا ستكون النتائج لمعرض شعبي يقام لسايكي الآن. ولذا يجب عليها ان تستريح تحت الأرض قروناً عديدة، كأعمال الاغريق القدامى، وتنتظر الوقت الذي يكتشفها فيه القدر، ويأتي بها ويقيمها كالنور على قمة جبل.

بدون تاريخ -

اظلمت الدنيا بغتة، فسحبت الستائر بعناية، واشعلت القنديل ووقفت ألقي

Twitter: @ketab_n

نظرة طويلة على الجمال العلوي الذي خلقته. والجدير بالاعتبار ان المرء يكل من تلك الاشياء التي كان يسعى اليها منذ سحيق الازمان: كالشهرة، ورهافة الاحساس، وخدمة أرض الآباء، والواجب، والشرف، والمباهج الدنيوية. ولكني لن أكلّ ابداً من الغبطة التي تملأني الآن، واسأل نفسي هذا السؤال: ما الذي كان سيحدث لو كانت هذه امرأة حية؟ أغلب الظن لقتلها أحد ما على غراري: عليّ ان اواريها التراب، خلال بضعة ايام. ولكنها حتى ذلك الحين ملكي أنا، وجمالها ملكي أنا دون غيري.

مُلكي! آه، حبذا لو كانت هذه الكلمة لم تتنجس بآلاف الشهوات الانسانية! ان مصيري غريب لدرجة مدهشة. أنا في الخامسة والثلاثين فقط، ولكن الحياة انهكتني تماماً. ومع انني في عنفوان رجولتي، فان عناق المرأة لا يعنيني في شيء. قد يعود هذا إلى ضعفي الجسدي غير الطبيعي، ولكني لم أكن يوماً في حاجة الى النساء. وعندما فزعت النساء من نمط حياتي المضطربة تجنبتني. وانا لم اشعر بالمهانة من جراء ذلك، فرحت كثيراً. اني لم اعرف امرأة في حياتي. لم اعرف ما هي القبل، وضغط الايدي، ونظرات الحب. والآن، كرضىً بشعور من العدالة، ارسلتْ إليّ الاقدار انقى سعادة واشدّها حبوراً، والتي لا علاقة لها بمشاعر اولئك الذين يدنسون حب النساء. ومع ذلك ليس هذا كل ما في الامر. اني اعلم ان هناك فرحاً اعظم ينتظرني في المستقبل المحجوب! آه! لقد انهيت القالب الجصي، وها هي سايكي راقدة امامي في بياض يبهر النظر.

١٥ كانون الأول -

دخلت عليّ صاحبة المنزل بوجه حزين هذا الصباح وقالت لي ان هذا الشهر هو الشهر الثالث دون ان ادفع لها الايجار، ويبدو على المرأة المسكينة انها تشفق علي ويساورها نوع من الخوف. ألا تؤول الطبقة العاملة كلمة «فنان» برجل طائش لا يعتمد عليه؟

اني لا افتأ اكتب هنا ولكني منزعج من امر واحد، وذلك اني أنسى بصورة مستمرة كتابة كلمات معينة، تكبدني عناءً شديداً كي اتذكرها. ولكن غير مهم. هناك فكرة قيمة دخلت دماغي. فاذا كان المثل يسمح لكل سيد أن يحقق نزوة، فمن يستطيع ان يحرم شيئاً مشابهاً مرة في العمر لفنان؟ اما فكرتي الرائعة فهي... اوه،

Twitter: @ketab_n

لقد نسيتها. هل كتبت في يومياتي عن الحلم الذي «رأيتها» فيه لاول مرة في القبر؟ اظن اني فعلت ذلك! ولذا فاني اود ان احول اول انطباع لي الى الواقع الحي، اي ان اضعها في تابوت بديع من خشب السرو مغطى، بمخمل قاتم ومغمور بالأعشاب. ولكن من اين لي النقود؟

١٦ كانون الأول ـ

شْيلفنْسكي، زميلي في الاكاديمية، أتى اليوم ليراني. وهو مخلوق غريب جداً. واول نظرة تلقيها عليه تظنه مجنوناً. شعره مشعث دائماً، ونظراته تزوغ بدون هدف، واحياناً، عندما يتوقف ويحملق بك بثبات فهو لا يراك ولا يسمعك. اذ يكون عندئذ منهمكاً بافكاره. واحياناً يقاطعك بغتة في منتصف جملة بسؤال في غير محله نتيجة لتخيلاته. انه شارد الذهن الى درجة فظيعة، ومن أشد المغرمين بالجنس اللطيف ولكنه في الشؤون العملية من الحياة طفل صغير. سمعت صوته وهو يصعد الادراج، واردت عدم مقابلته. ولكني تأخرت بتنفيذ رغبتي. فانتزعت بسرعة شرشفاً عن سريري وغطيت به سايكي. لن يراها احد ما دمت حياً!

وما كاد شْليفنسكي ان يراني، وقبل ان يقول لي: كيف حالك، سألني قائلاً: «ماذا جرى لوجهك؟» وراح يتفحص قسمات وجهي باهانة بالغة.

وسألته بدوري بخشونة متعمدة، محاولاً ان أصرف انتباهه عن السؤال الحرج: «ماذا تعني؟ هل نبت لي قرنان؟»

وقال: «قرنان؟ ان ذاك سيجعل منظهرك يبدو اكثر سوءاً. غير ان وجهك اشبه بليمونة معصورة. ثم هناك دوائر حول عينيك.» وسكتت.

ثم هتف سليفنسكي بشيء من الاهتياج: «اتدري يا اخي؟ هل خطر ببالك انك لن تعيش طويلاً؟»

فقلت: «كفاك، رجاءً.»

«الا تصدقني؟ اني ارى في وجهك نوعاً من الجمال الروحي الخاص... أتعلم ماذا اعني؟ لقد لاحظت هذا التعبير عندما كنت في المستشفى. ان الاشخاص

Twitter: @ketab_n

العصبيين يكتسبون هذا الجمال خلال اسابيع قليلة قبل وفاتهم. وبوسعك ان ترى كيف تحرر الروح نفسها، انها تكسر قضبان سجنها. ومهما يكن دعنا لا نتكلم عن ذلك. ماذا تصنع في هذه الايام؟»

هه! وعلمت ان اللحظة التي علي ان استعمل فيها ذكائي قد دنت. وكنت قد توقعت سؤاله، فاجبته باتزان اندهشت له انا. ان اعظم ممثل موهوب في العالم لم يكن ليستطيع ان يجيب بصورة طبيعية اكثر.

«اني اقضي معظم وقتي ممدداً على الاريكة افكر بالخلود. واجلس في الامساء اسامر صاحبة المنزل. وبالاجمال فاني مشغول بما فيه الكفاية، ولن اقول بدون ربح.»

وحملق بي سليفنسكي بطريقته الرصينة وقال: «هراء ايها الاخ الصغير. هنالك شيء يفور في داخلك. لا بأس، اني لن ألح عليك. لقد اتيت في الحق لأكلمك عن شيء آخر. أتعلم، ان الروحانية ليست مطلقاً كما يزعم الناس!»

ثم راح يشرح نظريته عن «الوساطة» في اقامة الصلة بالارواح، بحماس كبير وجرأة بالغة واحياناً بشيء من الذكاء.

وفجأة اسقط حديثه عن الروحانية وقال: «لم امس اداة عمل. اتدري لماذا؟ اولاً لان النحت ليس مهنتي مطلقاً، بل النساء. واعتقد ان عشق جسد المرأة هو الذي دفعني الى الفن. وثانياً، وانا اتكلم بمنتهى الجد، اني أعتبر ان فننا هو فن هزيل جداً: انه بارد كالرخام الذي نعمل فيه وباهت مثله. لعلني مخطىء، ولكن يبدو لي ان النحات الذي دوره هو ان ينتج شيئاً خالداً يجب ان يكون شخصاً شاذاً، ناسكاً مثلك...»

ظاهرة غريبة: ان هذا الرجل يعبر عن الافكار التي تدور في رأسي دون ان اجرؤ على وضعها في كلمات.

وتابع سليفنسكي: «اتدري، اني اشعر احياناً أن باستطاعتي ان افعل شيئاً ما. ولكن منذ سقوطي الاخلاقي غدوت ميتاً بالنسبة للفن. ان الخط الصارم والجص العديم الحياة لم يعودا يشبعان رغبتي. قد استطيع ان افعل شيئاً بالرسم، لاحتوائه على اللون وخضوعه للاسلوب. انه غني بالاحاسيس. ولكنني لا اريد ان انتمي الى

Twitter: @ketab_n

حرفتي، لقد وُهبنا الحياة مرة واحدة ولم يكن المقصود ان نمضيها كما امضيتها انت في الفن وحده، والخلط بين الحرف هو حلم الهواة. وانا لا انتمي الى عددهم. ولا اعرف ماذا افعل بنفسي الا اذا استعملنا مباهج الحياة بحكمة. ومن بين هذه المباهج، بالطبع، تقف المرأة، المرأة وحدها، في المكان الأهم.»

فقلت: «ألا تظن ان تلك «المهنة» قد تصبح مملة؟»

فقال: «مطلقاً! ألا تفهم يا عزيزي انني انتمي الى تلك النخبة القليلة التي تسرها ملحقات الحب والظلال البديعة التي تحيط بالحب، اكثر من الحب نفسه في معناه النابي؟ ولما كانت الملحقات متنوعة لا نهاية لها، كتنوع الشخصية الانسانية نفسها، سأحوز دوماً على متعة الجدّة. ولكنني انسى انك لعبة من لعب الطبيعة وليس بوسعك ان تفهمني. ولا ريب انك لا تعرف درجات الفتنة التي تكمن في السعي الحقيقي لوصال المرأة. الغمزة التي تعبر فيها العينان عن كل شيء، مخاصمات ولهب الغيرة، والجنون البدائي . . . كلا، انك لن تفهم هذا.»

فهتفت بخيبة امل شديدة: «اني افهم ذلك تماماً، انه الترف في الفجور.»

ورمقني سليفنسكي باستغراب. ولم يكن ليتصور بانني قادر على جواب كهذا. فقال بتباطؤ وتفكير: «لربما انت على حق.» ثم ثار صائحاً بغتة: «نعم، ! لكن فكر في صراع الارادة والعقل في ذلك الفجور. اسمع! هل فكرت ابداً في المدى الذي بامكان ارادة الرجل ان تصل اليه؟»

ولاحظت في هذه المرة ان سليفنسكي انتظر جوابي بشوق زائد، فأجبت: «لست متأكداً من اني فهمت سؤالك كلياً، ولكن اذا كنت تقصد بالارادة ما اقصده انا ـ كل رغبة في الحياة ـ عندئذ عليك ان تعلم انني اعتقد ان إنكار تلك الارادة هو أفضل خدمة للانسان.»

فهتف سليفنسكي بحزن: «اوه، دع شوبنهور يسترح في ترابه. اني اتكلم عن الارادة بالمعنى العائلي. اعني قوة اكثر رغباتنا تفاهة. وفي رأيي، ان كل رجل، حتى انت وانا، لديه من الرغبة مقادير لا يبقى ازاءها مستحيل عليه في الدنيا.»

من الواضح ان سلفينسكي يظن ان الارادة بالامكان تطويرها بواسطة تمرينات

Twitter: @ketab_n

ثابتة ملحة، وذلك بان تعمل في كل لحظة الأمور التي تعارض رغباتك. لنفرض اني اريد ان آكل، اذن أؤخر الاكل حتى آخر لحظة ممكنة. واذا اردت ان استلقي، اذن يجب ان اتجول. واذا كنت ارغب في ان انام على فراش من الريش، عليّ ان اعوّد نفسي ان انام على الحجارة، وهكذا. وعندما يُخضع الانسان نفسه كلياً الى هذا الحد، يجد ان كل من حوله، حتى الحيوانات، يبدأ طوعاً في الخضوع لارادته. وهكذا لن يبقى شيء مستحيل على الانسان. إنما العائق الوحيد هو الزمن.

وراح سليفنسكي يتكلم بحماس: «اتعلم أنني اذا ما تابعت فكرة واحدة بعناد وبدون كلل فإني لا استطيع فقط ان اصبح بابا روما أو امبراطور الصين، بل استطيع ان ابلغ أعلى مراتب النبوغ والعلم. أسمعت عن ذلك الزنجي الذي أنمى ذاكرته حتى صار بمقدوره ان يتلو عن ظهر قلب خمسمئة عدد أمليت عليه، كل منها مكون من ثمانية ارقام؟ ثم كيف تفسر نهوض نابليون من درجة ملازم الى ان اصبح اعظم امبراطور على الارض؟ تقول مجرد حظ. لا ريب في ان الحظ لعب دوراً صغيراً، والاحداث مالت الى جانب تصاعده، ولكن العامل الاعظم كان قوة رغبته. وفيما انا وانت نترك الفرص تفوتنا آلاف المرات، هذا رجل ذو تصميم حاسم استطاع ان يستفيد من كل واحد منها. لم يعقه خطر أو قداسة تقليد أو مئات الضحايا. قوة الرغبة والايمان في نفسه! هذه هي عتلة ارخميدس الشهيرة. ومكتوب في الانجيل: بمقدار حبة خردل من الايمان بالمستطاع تحويل الجبال. ويستطيع الفقراء شفاء المرضى واقامة الاموات!»

وغدا سليفنسكي في اعلى درجات البلاغة والسمو، حتى كدت لا أعرفه. وبدا وكأنه يكبر وهو يتكلم، وعيناه تشتعلان بنار حماسه، وصوته صارم ومهيب.

فقلت: «اذا كان الامر كذلك، كيف تفسر، وانت صاحب هذه النظرية الغريبة، بقاءك تتصعلك بدون عمل؟»

فاجاب: «انا؟ أنا لم اشأ ان اطبقها. ولكنني جربت قوة ارادتي على المرأة. وهذا في الواقع ما كنت اريد ان اقودك اليه. سأقول لك قولاً عن الحقيقة يجب ألا يغرب عن بالك. انه قول عميق ولسوف يفيدك عندما تأتي الى ذكري في يومياتك: ليس ثمة انسان اذا تمتع بارادة مرنة قوية، لا يستطيع ان يكسب حب امرأة. وهذا لا ينطبق

Twitter: @ketab_n

على النساء العصابيات المعتدلات وحسب، بل حتى على امرأة مستحيلة المنال، كإلهة او تمثال بارد.»

قلت: «اذن انت تعتقد ان امرأ يستطيع ان ينوم تمثالاً من الحجر تنويماً مغناطيسياً بتلك الطريقة؟»

وشعرت عندما طرحت هذا السؤال كم شحبت وجنتاي، وفزعت كأنني اتطلع من حافة هوة مخيفة.

واجاب سليفنسكي بجد: «نعم، يستطيع. فكر في اسطورة غلاطية. الكل يعلم انه ليست هناك اسطورة لا اساس لها من الواقع. وكما قلت سابقاً، ليس هناك مستحيل على امرىء له ارادة قوية. واذا كنت لم تبعث الحياة حتى الآن في تمثال في الواقع، فانك انت نفسك تعلم وتؤمن بأن ذلك يمكن تحقيقه.»

ولم يمكث سلفينسكي بعد ذلك كثيراً.

وبينما هو يريد مغادرة الغرفة سألني قائلاً: «ما هو ذاك المغطى بالقماش هناك؟ هل بامكاني ان ألقي نظرة عليه؟»

لو انني القيت نفسي عليه واطبقت على حنجرته، كما خطر ببالي ان افعل، لربما تغلب علي وكشف سري، ولكنني وقفت هادئاً في مكاني وقدمت له يدي وقلت وقد استعنت بجميع القوى الروحية التي امتلكها: «آه، شيء تافه لا يستحق العناء.» والحقيقة انه لم يخطر ببالي مطلقاً انني احتفظ بهذا المقدار من الدهاء ورباطة الجأش. وما كاد يخرج حتى سحبت الشراشف البيضاء، وعلقتها كستارة في تلك الزاوية.

بدون تاريخ -

رأسي يدور ويداي ترفضان طاعتي. ولا اعلم ما اذا كنت في حالة تمكنني من قول ما حدث.

عندما اتى الليل سحبت الستائر وأنرت القناديل. فأمست الغرفة في الحال كالحة غريبة، ولم استطع ان انتزع عيني من الزاوية المحتجبة وراء الستار الابيض. وبدا لي وكأنني أشعر بحياة غير مسموعة وخفية وراءه. ان قوة لا تقاوم جذبتني الى ذلك

Twitter: @ketab_n

الستار. كنت ارتعش محموماً، ولكنني حاولت أن أؤجل بلوغي اليه حتى آخر لحظة ممكنة.

وأخيراً، عندما غدا اهتياجي لا يطاق، نفذت رغبتي.

وخطوت بخطوات ساكنة حذرة نحو تلك الستائر المعلقة من السقف، وانا ممسك بنفسي، وفتحتها وكياني يرتجف. هناك، في الفسحة الداخلية الصغيرة امامي ساد سكون وادع رائق كسكون المعابد. كانت مستلقية هناك والقماش الابيض يلفها من الرأس حتى القدم، وقوامها البديع بادي المعالم. كانت مضطجعة على ظهرها على فراش من القماش الخشن وساقها اليسرى منحنية قليلاً، وقد استدار رأسها الى جانب واستراح على ذراعها اليسرى، وتدلت ذراعها اليمنى بعدم مبالاة الى الارض.

لن اقول ان الفزع كان سيستولي علي لو انها نهضت في تلك اللحظة وخاطبتني. ما كنت لأخشى ذلك مطلقاً. بل الحقيقة اني توقعت شيئاً من هذا القبيل، ولكني كنت مضعضعاً، أحس جسمي كله وكأنه تحت عبء ثقيل من الرمال، وعيناي مبهورتان بملايين الشرارات المتطايرة...

واني لأعلن اني، وان كنت احتفظ بسيطرة صارمة على احاسيسي، لاحظت بوضوح ان صدرها يعلو وينخفض بهدوء، وانها تتنفس بانتظام تحت القماش الابيض، فأخذ قلبي يخفق ويدق في صدري كالطبل. ووقعت لفترة طويلة من الزمن ضحية عذاب ملذ منهك... وعند هذه النقطة أضعت رأس الخيط. اني اتذكر فقط اني جثوت على ركبتي بهدوء، واحنيت رأسي نحو الارض ورفعت طرف القماش برفق، لكي أقبل قدمها... ولكن حالما شعرت شفتاي كم كان جسدها بارداً اشتعل العذاب الملذ في قلبي بغتة، كاللهيب حين تسكب عليه الكحول. والتمع في ذهني خاطر يقول إن هذا هو الموت. ويبدو أنه أغمي علي عندئذ، لانني عندما فتحت عينيّ كان ضوء الصباح ينبلج من بين الستائر.

ماذا يعني كل هذا؟ هل كان سليفنسكي مصيباً عندما قال انني سأموت عن قريب؟ ومهما يكن فاني على استعداد أن أحيي مجيء الموت كضيف عزيز، إذ بعدما حصل في الليلة الماضية، بعد تلك اللحظة الرائعة من البهجة، اية متعة بقيت لي في

Twitter: @ketab_n

هذه الحياة؟ كم أبارك الآن حقيقة أنني عندما كنت في صبوتي جعل رفاقي يبتعدون عني باحتقار، مع أن ذلك كان بغيضاً الى نفسي في ذلك الحين! ذاك وحده انقذني من التداعي، اذ بينما كان ذلك العمل يجردني من اللذة الانسانية الوحيدة، احتفظ بي لمكافأة القدر العظيمة.

بدون تاريخ -

خرجت اليوم من البيت لاول مرة بعد انقضاء شهرين. ولا ريب في ان مظهري أثر على المارين بصورة غريبة، اذ راح كل واحد يرمقني من الرأس حتى القدم باستغراب شديد. كنت ثملاً تماماً بالهواء المشبع بالصقيع وعيناي تدمعان من الضوء الساطع. كنت اترنح طيلة الوقت لان جسدي الضعيف غدا غير معتاد على السير على القدم، ويجب ان اضيف ايضاً أن بطانة معطفي القطنية كانت ظاهرة لكثرة الثقوب، مما زاد في التأثير. تجولت طيلة اليوم دون ان اعثر على كوبك واحد. يبدو أن علي ان أؤجل خطتي عن القبر. يا الهي، ماذا جرى لي؟

نفس التاريخ -

لست ادري لماذا لا استطيع ان انزع لغو سليفنسكي من دماغي؟ اني امضي يومي مفكراً بما قال، فاتوصل الى نتائج مفزعة. قال سليفنسكي ان ليس هناك مستحيل على الارادة. ولذلك فان كل ما هو ضروري هو ان نكبح زمام تلك الارادة ونتعلم كيف نرغب بثبات وبحرارة وبلا كلل! اني اعلم تماماً ان شيئاً منحوتاً من الحجر لا يقدر ان يستيقظ ويقف ويسير نحوك من تلقاء نفسه، ولكن ألا يتجول الأشخاص المنومون تنويماً مغناطيسياً ويمشون فوق البحار وفي الغابات، وهذا غير ما هو موجود في الواقع؟ ولذلك، الا يبدو أن الناس باستطاعتهم ان يختبروا ما لا وجود له، ما هو في الواقع مستحيل الوجود؟ ومهما يكن فان في مناقشة هذا السؤال هرس الشيطان عقبه!

نفس التاريخ -

شيء ما ايقظني فجأة في منتصف الليل، فجلست في سريري. كان القمر يسطع ببهاء غير عادي. وبدا لي وكأن اشعته لها أزيز رتيب وهي تدخل الغرفة، فهل

Twitter: @ketab_n

رأيت شيئاً في منامي؟ ام انني فكرت في شيء بالغ الاهمية خلال النهار؟ أحسست كأن شيئاً بالغ الاهمية قد غرب عن ذاكرتي، فقمت بمجهود جبار لاستعادته. وبغتة، كوميض البرق، خطرت لي هذه الفكرة المخيفة: «من الضروري ان تتعلم كيف ترغب.» وبمشقة عظيمة نهضت من سريري وسرقت الخطى نحو الستارة. واخذ جسمي يهتز بقوة من الاهتياج والبرد والنحول، ورحت ارتجف، واسناني تصطك بصورة مزعجة. ولكي لا اجعل سايكي تستيقظ من نومها الخفيف سحبت الشرشف ببطء عن جسدها بمنتهى الحذر. ولم يتحرك لها عضل، غير ان صدرها فقط كان يعلو وينخفض بخفة.

يا للجمال الثري الصارخ الذي في ذلك الوجه الهادىء وفي ذلك الجسد العاري الرقيق الشفاف! استجمعت كل ما في ارادتي واعصابي من قوة، وضممت قبضتي بعنف حتى انغرزت اظافري في راحتي، واطبقت اسناني بعزم شديد حتى آلمتني، وصحت بصوت آمر وثيق: «استيقظي!»

وفجأة سرى صوت تنهدة عميقة في ذلك السكون الهامس، صوت تنفس متقطع. وشاعت الحياة في الوجه الساكن بابتسامة، وانفتحت العينان والتقتا بعينيّ بحنان. ولكن ذلك الاحساس اللذيذ المؤلم في قلبي انفجر مرة اخرى، وطفح كياني كله بلهيب فظيع، وصرخت، ثم سقطت على الارض. ولكن قبل ان افقد رشدي شعرت بذراعيها العاريتين الباردتين تطوقان عنقي.

نفس التاريخ -

اني لا أفهم اي معنى لهذه الغرفة الكئيبة ذات القضبان التي تقف وراءها وجوه غريبة ذات شوارب وتظل ترمقني! يمكن ان تكون هذه هي الزنزانة التي قال عنها سليفنسكي ان روحي يجب أن تنجو منها؟

نفس التاريخ -

يا الهي! ما اصعب الانتظار! اني اضرب رأسي بجدران الزنزانة، وانتزع شعري واقتطع نتفاً من لحم وجهي باظافري. متى سينتهي كل هذا؟

Twitter: @ketab_n

دون تاريخ -

النصر! يداي لم تعودا تطيعاني. والهواء الذي اتنفسه يقل تدريجياً. ولكن من علوٍ سامق لا يطال، ومن خلال موجات من النور البهي ارى ابتسامتك يا معبودتي، يا سايكي!

Twitter: @ketab_n

الفراش

بقلم: هانس كريستيان اندرسن
دانمركي (١٨٠٥ - ١٨٧٥)

اراد فراش مرة ان يبحث له عن عروس. وكما هو المفروض في حالة كهذه، اراد ان ينتقي لنفسه اجمل عروس من بين الزهور. فالقى على احواضها نظرة نفاذة، فرأى الزهور كلها جاثمة على سيقانها بهدوء وخجل، كما تفعل العذارى قبل الخطبة. ولكن كان هنالك عدو كبير منها، فأدرك أن بحثه سيكون مضنياً. ولما لم يشأ ان يزعج نفسه كثيراً طار لتوه وذهب لزيارة الاقحوانة. وللاقحوانة الصغيرة مقدرة على التنبؤ. فالعشاق ينزعون وريقاتها، وكلما نزعوا وريقة سألوا سؤالاً عن حبيباتهم: أتحبني؟ بلوعة؟ كثيراً؟ قليلاً؟ وهكذا. وكل عاشق يقول هذه الكلمات بلغته الخاصة. فأتى الفراش الى الاقحوانة ليتساءل ولكنه لم ينزع وريقاتها بل ضغط بقبلة على كل وريقة بمفردها وهو يقول لنفسه: «ان المرء ينال دائماً عن طريق اللطف اضعافاً.»

قال لها: «يا عزيزتي الاقحوانة، انك امرأة بين الزهور. هلا اخبرتني بحياتك اية زهرة اتخذها زوجة لي؟ من هي التي ستكون عروسي من بينها؟ عندما اعرف ذلك سأطير اليها حالاً واعرض عليها الزواج».

ولكن الاقحوانة لم تجبه، لأنها شعرت بالاهانة عندما سماها بامرأة وهي بعد

Twitter: @ketab_n

فتاة صبية! وبين الأثنتين فرق كبير. فسألها للمرة الثانية والثالثة! ولكنها ظلت خرساء لا تجيب. فلم يشأ ان يمكث اكثر من ذلك وطار ليبدأ مغازلاته في الحال. لقد كان هذا في بدء الربيع والزهور في اوج تفتحها.

وفكر الفراش: «انهن فتيات صغيرات في غاية الرقة والفتنة. ولكنهن يتعلقن بالرسميات.» وبعدئذ اخذ يفتش عن فتيات اكبر سناً كما يفعل الشباب اليافع دائماً. ثم طار الى الشقائق ولكنها لم ترق له. ورأى زهرات البنفسج مفرطات في الحسن والعاطفة. اما زهرة الليمون فقد كانت صغيرة جداً، وعدا عن ذلك فقد كان عددها كثيراً غزيراً. وبانت زهور التفاح كالورود بيد انها اذا ما ازهرت اليوم فقد تسقط غداً مع اول هبة من الريح. وقال ان الزواج بواحدة منها لن يدوم طويلاً. ولكن زهرة البسلة كانت اكثرهن حسناً لديه: لقد كانت بيضاء وحمراء، هيفاء رشيقة كعذارى البيوت الانيقات النافعات في المطبخ ايضاً. وكان على وشك الاقدام على طلب يدها عندما رأى بجانبها حوضاً وفي آخره زهرة ذابلة متدلية الرأس فقال: «من هي تلك؟» فأجابت زهرة البسلة: «انها اختي». فقال: «حقاً؟ فستكونين اذن مثلها في يوم من الايام؟» وطار هارباً خائب الأمل.

ورأى زهرة العسل متدلية على السياج وهي في كامل ريعانها! غير ان هنالك فتيات كثيرات مثلها، بأوجه مستطيلة وبشرة شاحبة هزيلة. لا، لم يحبها. ولكن من هي التي احبها؟

فات الربيع وأوشك الصيف ان يولي ايضاً. وأتى الخريف. ولكن الفراش لم يزل في بحثه. وظهرت الازهار في أبهى حللها، ولكن عبثاً. لم يكن لديها نعومة الشباب وعطره. ان القلب وان لم يعد في ريعان الشباب يشتاق دوماً الى رائحة عبقة، وكان من العسير جداً ان يجد قليلاً من هذا في زهرة الاضالية او الاقاحي اليابسة. ولذلك التفت الى النعناع في الارض والكل يعلم ان هذه النبتة لا زهر لها! ولكنها كانت كلها رشاقة وحلاوة ـ عبقة الرائحة من الرأس الى اخمص القدم، ورائحة الزهر في كل وريقة من وريقاتها.

قال الفراش: «سأتخذها زوجة لي.» ثم قدم لها طلبه. ولكن نبتة النعناع وقفت صامتة لا تتحرك وهي تصغي اليه. قالت اخيراً: «اني اقدم لك الصداقة ان شئت،

Twitter: @ketab_n

ولكن لا اكثر . انني كبيرة السن وانت كذلك ايضاً! فلا تجعل منا اضحوكة للناس ونحن في هذا العمر . »

وهكذا لم يحصل الفراش على زوجة له . لقد امضى وقتاً طويلاً وهو ينتقي الى ان صار يلقب بالاعزب العجوز .

كان الخريف على وشك الإدبار ، والطقس غائماً ماطراً . وهبت الريح الباردة على اغصان الصفصاف فطقطقت . لم يكن ذلك طقساً يحمد الطيران فيه في ثياب الصيف . ولحسن الحظ لم يكن الفراش موجوداً . فقد لقي مخبأ في غرفة ادفئت بمدفأة بلغت حرارتها حرارة الصيف . وقال في نفسه سأعيش هنا ما طاب لي العيش .

ثم قال : «ان مجرد وجودي ليس بكاف لعيشي . اني بحاجة الى الحرية ونور الشمس وزهرة صغيرة اتخذها زوجة لي . »

ثم طار واراد الخروج من زجاج النافذة ، فرآه الذين في الغرفة وراق لهم منظره ، فأمسكوا به وغرزوا فيه دبوساً ، وثبتوه في علبة العاديات . وهذا اقصى ما استطاعوا ان يفعلوه به . قال الفراش : «اني جاثم الآن على ساق كالزهرة تماماً ، وهذا ليس مما يسر حقاً! يخيل الي انه امر اشبه بالزواج ، لانني قد الصقت بثبات . » وعزّى نفسه بهذه الفكرة قليلاً .

قالت نبتة كانت في اصيص في الغرفة : «انها لتعزية عقيمة . »

وفكر الفراش : «آه منهن هؤلاء النباتات اللواتي ينبتن في الاصيص! لا يستطيع المرء ان يثق بهن! ان لهن علاقات كثيرة بالجنس البشري . »

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الحلم الاخير

بقلم: هانس كريستيان اندرسن
دانمركي (١٨٠٥ - ١٨٧٥)

في اعلى منحدرات الشاطىء في الغابة، وليس بعيداً عن حافة البحر، وقفت سنديانة عجوز في منتهى الكبر. كانت قد بلغت من العمر ثلثمائة وخمساً وستين سنة. ولكن عدد هذه السنين الطويلة لديها كان كعدد الأيام لدينا. نحن نستيقظ في النهار وننام أثناء الليل ونحلم، ولكن الامر ليس كذلك مع الشجرة، فهي مضطرة الى البقاء مستيقظة طوال ثلاثة فصول من السنة، ولا تحصل على قسطها من النوم إلا عندما يحل فصل الشتاء. فالشتاء هو ليلها ووقت راحتها بعد يومها الطويل المتواصل: الربيع والصيف والخريف. ففي أيام الصيف القائظة كثيراً ما طارت «افيميرا» الذبابة التي تحيا يوماً واحداً، وراحت تحوم حول السنديانة الهرمة وتتمتع بالحياة وملؤها السعادة. وإذا ما استراحت هذه المخلوقة لحظة على وريقة من وريقاتها الغضة العريضة هتفت السنديانة بها قائلة: «يا لك من مخلوقة صغيرة مسكينة! حياتك كلها ما هي إلا يوم واحد. فيا له ما أقصره! شيء مؤسف حقاً.» وكانت المخلوقة الصغيرة تجيبها دوماً: «مؤسف! ماذا تعنين؟ ان كل ما هو حولي براق ودافىء وجميل الى درجة عجيبة، وهذا مما يشيع الفرح في نفسي».

- «ولكن ليوم واحد فقط، ثم ينقضي.»

Twitter: @ketab_n

فكرت الذبابة: «ينقضي! ماذا تعنين: ينقضي؟ هل لن ينقضي يومك أنت ايضاً؟»

- «كلا، انني من المحتمل جداً أن اعيش آلاف الايام من أيامك وما يومي إلا ثلاثة فصول كاملة من السنة! وايم الحق انه من الطول بحيث يصعب عليك جداً حسبانه».

- «اذن أنا لا أفهمك. قد يكون لك الآلاف من أيامي، ولكن أنا لي آلاف اللحظات يمكنني ان أفرح فيها وأسعد. هل سينتهي جمال العالم كله عندما تموتين؟»

فأجابت الشجرة: «كلا بل انه سيدوم أكثر من هذا بكثير، الى ما لا نهاية تفوق عن تفكيري.»

فقالت الذبابة الصغيرة: «حسناً، اننا نعيش نفس الزمان إذن، ولكننا نختلف في الحساب.» ثم رقصت المخلوقة الصغيرة وانسابت في الهواء جذلة بجناحيها الرقيقتين الشفافين المخمليين، طروبة في الأنسام العطرة المشبعة بعبير الورود البرية ونور السيسبان وزهر العسل، الآتية من أسيجة الجنائن المحملة بالعطر البري وزهر الربيع والنعناع. كانت الرائحة قوية يكاد عطرها يسكر الذبابة الصغيرة. لقد كان اليوم طويلاً جميلاً مليئاً بالحبور والمسرات الحلوة حتى ان الذبابة، عندما أوشكت الشمس على المغيب، جعلت تحس بالتعب من كل ما ذاقته فيه من سعادة ومتعة. وما عاد جناحاها يقويان على حملها، فانسابت بكل رقة وبطء على اوراق العشب المتماوجة الناعمة، وحركت رأسها الصغير على قدر ما استطاعت، ثم نامت بسلام وعذوبة. وهكذا ماتت الذبابة.

قالت السنديانة: «يا للمخلوقة الصغيرة المسكينة! ويا لفظاعة حياتها الصغيرة!» وهكذا كان الرقص يعاد في كل يوم من أيام الصيف. وتطرح الأسئلة نفسها وتعطى الأجوبة نفسها. ولقد جرى ذلك لأجيال عديدة متوالية في حياة «افيميرا» وكل مخلوقة منها تشعر بنفس الحبور ونفس السعادة.

ظلت السنديانة مستيقظة طوال نهار الربيع صبحه، والصيف ظهره، والخريف مساءه. ثم بدأ الليل يجر أذياله، ودنا وقت راحتها - لقد أقبل الشتاء، وبدأت الزوابع

Twitter: @ketab_n

تنشد «مساء الخير، مساء الخير»، وسقطت وريقة هنا ووريقة هناك. وأخذت الرياح تنشد لها وتهدهدها كي تنام. فسمع لعساليجها الطاعنة طقطقة من شدة السرور. لقد كانت ليلتها الخامسة والستين بعد الثلثمائة، ولكنها الآن بموجب تقويم البشر، في القرن الرابع من وجودها.

وقفت البلوطة هناك عارية من اوراقها: لتأخذ راحتها أثناء الشتاء الطويل، ولتحلم احلاماً كثيرة ملأى بالأحداث وقعت لها في مجرى حياتها. كانت أضخم واحسن شجرة في الغابة، تعالت قمتها وعظمت فوق جميع الأشجار الأخرى. وكانت ترى من بعيد من اقصى البحر حتى انها كانت للملاحين علماً. ولم يدر بخلدها يوماً كم من العيون ترنو بشوق اليها. وفي سامق قمتها ابتنت الحمامة البرية عشها بين الفروع. وشرع الوقوق في احياء حفلته الصوتية المعتادة فتجاوبت أنغامه المحبوبة بين الأغصان. وفي الخريف عندما كانت الأوراق تبدو وكأنها صفائح نحاس مطروقة، كانت العصافير العابرة تأتي لترتاح على أفنانها قبل أن تطير وتجتاز البحر. ولكن الآن والفصل شتاء والشجرة عارية، كان باستطاعة كل امرىء أن يرى كم كانت اغصانها ملتوية ومنحنية وهي تتفرع وتمتد من جذعها. أتت العقبان والغربان بالتناوب وجلست عليها، وتحدثت عن الأوقات العسيرة التي بدأت، وعن المشقة في الحصول على الطعام في الشتاء.

كان عيد الميلاد قد قرب عندما حلمت الشجرة حلماً. لا ريب انها كان لديها نوع من الاحساس بأن وقت العيد قد حان. خيل اليها في حلمها أنها سمعت الأجراس تقرع من جميع الكنائس حولها ومع ذلك بدا لها اليوم وكأنه من ايام الصيف الجميلة، دافئاً لطيفاً. كانت هامتها العظيمة متوجة بأوراق خضراء يانعة، واشعة الشمس تلعب بين الوريقات والأغصان، والهواء مثقلاً بعطر الاعشاب والنوار. وطاردت فراشات ملونة بعضها البعض، ورقص ذباب الصيف حولها كأنما خلق العالم لهم وحدهم ليرقصوا فيه ويفرحوا. وبدا للشجرة ان جميع الاحداث التي وقعت لها في سني حياتها تمر أمامها في موكب طويل.

رأت فرسان العصور القديمة يجتازون الغابة مع النساء النبيلات ممتطين صهوات جيادهم الأصيلة والريش يتماوج على قبعاتهم، والصقور جاثمة على معاصمهم.

Twitter: @ketab_n

وعلا صوت ابواق الصيد ونبحت الكلاب. رأت محاربين ينصبون خيامهم وهم في ثياب ملونة ودروع براقة، مع حراب وبلطات. ثم توقدت نيران الحراسة وغنى الرجال وناموا تحت اغصانها المضيافة. ثم رأت العشاق يلتقون قربها بهدوء وسعادة في ضوء القمر. ويحفرون الأحرف الأولى من اسمائهم في لحائها وجذعها الأخضر الحائل. وحدث مرة، ولكن سنين انقضت منذ ذلك الحين، ان بعض المسافرين المرحين علقوا على احد اغصانها آلات الطرب وقيثارات، وبدا لها انها ما زالت معلقة هناك، وانها تسمع انغامها الشجية. وهدلت الحمامات البرية كأنها تريد ان تعبر عن مشاعر الشجرة. وصاح الوقوق يعلمها كم بقي لها من ايام الصيف لتحياها. ثم شعرت كأنما حياة جديدة أخذت تختلج في كل عرق من عروقها وجذعها واوراقها، وتنساب صاعدة الى فروعها الشامخة. شعرت الشجرة انها اخذت تنبسط وتمتد بينما كانت قوة الحياة الدافقة تسري في جذورها تحت التراب. وفيما هي تعلو بقوة متزايدة اتسعت اغصانها العليا وامتلأت اكثر فأكثر، وبتناسق مع نموها ازداد رضاها عن نفسها، ونشأ عندها شوق ملح في ان تتناهى في العلو حتى تصل الى الشمس الدافئة نفسها. وخيل اليها ان فروعها السامقة فرقت الغيوم حيث تراءت كأسراب عصافير راحلة او كأوزات كبيرة بيضاء تنساب تحتها. وبدا كأنما كل وريقة من اوراقها لها عينان تبصران، وظهرت النجوم في وضح النهار كبيرة تتلألأ كأعين وادعة صافية تعيد للأذهان نظرات الطفولة البريئة، او اعين العشاق الذين التقوا مرة تحت اغصان البلوطة الهرمة. كانت هذه اللحظات للسنديانة لحظات سعادة ونشوة ملأى بالفرح.

ولكن. مع كل هذا، شعرت الشجرة، وهي في اوج سعادتها، برغبة ملحة في ان تتمكن جميع الاشجار والعليقات والنباتات والزهور التي تحتها من ان تنمو وتتعالى مثلما نمت وتعالت، لترى هذا البهاء وتختبر سعادة مماثلة، لم يكن في وسع البلوطة العظيمة المهيبة ان تتذوق السعادة كاملة، وبقية النباتات والاشجار عظيمها وحقيرها لا تشاركها فيها. وسرى هذا الشعور بالحنو مرتعشاً في جميع الاغصان والاوراق! تدفق دافئاً ملتهباً كأنه سرى في الياف قلب بشري. واهتزت هامة الشجرة هنا وهناك، ثم انحنت كأنما، وهي في شوقها المكبوت، تحن الى شيء لا تعرفه. ثم هبت عليها نفحة من عبير الصعتر وتبعتها رائحة زهر العسل والزنابق الاكثر نفاذاً، وخيل اليها انها سمعت انغام الوقوق. واخيراً تحقق ما كانت تصبو اليه. رأت البلوطة قمم أشجار

Twitter: @ketab_n

الغابة الخضراء تشق الغيوم وهي تنمو شيئاً فشيئاً وتتعالى تحتها. وكذلك اندفعت النباتات واشجار العليق في العلو حتى ان بعضها انشق عند الجذور متسارعاً في النمو. كانت شجرة السندر اسرعها جميعاً. اطلقت جذعها الرشيق الى العلى كوميض البرق في خط منعرج وانتشرت اغصانها حولها كأعلام خضراء شفافة، كل ما في الغابة، حتى الخيزران البني الاسيل ذو الريش الناعم الدقيق نما مع البقية، بينما حلقت العصافير وهي تصدح بتغاريدها. وجلس جندب ينظف جناحيه برجليه على وريقة عشب كانت تتطاير في الهواء كشريط اخضر طويل. واخذت الخنافس تدندن والنحل يطن والعصافير تزقزق كل منها على طريقته. لقد كان الهواء مليئاً باصوات الغناء والبهجة.

ثم راحت الشجرة تتساءل: «اين الزهرة الزرقاء الصغيرة التي قرب الماء واين الاقاحي الصفراء الحلوة؟ وصعتر الصيف الجميل اين هو؟ والسوسن الذي كسا الأرض بالنور في السنة المنصرمة؟ وشجرة التفاح البرية ونوارها الجميل، وكل ما تزهو به الغابة سنة اثر سنة؟» ولما رأت الكل حولها صاحت البلوطة بنغمة كلها حبور: «ما أجمل هذا! اكاد لا أصدقه! هل في الحياة سعادة كهذه؟» لقد بدا لها ان الامر يكاد يكون مستحيلاً.

وبينما الشجرة الهرمة تنمو وتعلو سامقة في الفضاء شعرت ان جذورها تفك عقالها من الأرض. وهتفت: «لعمري إن هذا حسن وبديع. لا قيود هناك تأسرني بعد الآن. ان بامكاني ان اطير الى اعلى الاعالي في النور والمجد. وكل الذين أحبهم معي، الصغار منهم والكبار».

هذا كان حلم السنديانة الهرمة ليلة عيد الميلاد.

وبينما هي تحلم هبت عاصفة شديدة عبر الارض والبحر. وأخذت امواج هائلة تكتسح الشاطىء، وفي اللحظة التي خيل اليها في الحلم انها تفك اسارها من الأرض سمع صوت انسحاق وطرطقة في قلب الشجرة، وانقلعت جذورها من الأرض، وسقطت.. وهكذا انقضت اعوامها الثلثمائة والخمسة والستون كيوم «افيميرا» الوحيد.

وفي صباح العيد كانت العاصفة قد هدأت عند بزوغ الشمس. ثم قرعت

Twitter: @ketab_n

أجَراس الفرح من كل صوب وتعالى الدخان من مواقد الأكواخ شاقاً طريقه في السماء الزرقاء. هدأ البحر، ورفعت الاعلام، وعرضت على ظهر باخرة عظيمة كانت قد قاومت الزوبعة أثناء الليل إشارة فرح وابتهاج.

وهتف البحارة: «لقد سقطت الشجرة! . . سقطت السنديانة القديمة، وهي علامتنا البرية على الشاطىء! لا ريب انها اقتلعت في عاصفة الليلة الماضية. فمن ذا الذي يستطيع ان يعيدها كما كانت؟ انه لأسف عظيم أن لا يتمكن احد من ذلك».

هذه كانت خطبة الرثاء على الشجرة. خطبة قصيرة، ولكنها بليغة.

وبقيت السنديانة الهرمة ملقاة هناك على الشاطىء تتراكم عليها الثلوج كلها.

Twitter: @ketab_n

الحمار والأرنبة

بقلم: ثيودور بويس
انكليزي (١٨٧٥ - ١٩٥٣)

سكن مرة حمار حكيم في قسم موحش من ارضٍ مهجورة على بعد بضعة اميال من القرية.

لم يكن الحمار يدين بطاعة أحد.. لاي مخلوق. فقد تخلص من العبودية وهو لم يزل جحشاً صغيراً، حتى انه لم يعد يتذكر حادث هروبه، اذ انه عندما ترك صاحبته السيدة كلوتو، قافزاً فوق خندق صغير، اراد ان يترك العالم ويعيش في عزلة. ولكن رغبته الحكيمة هذه ذهبت في طي النسيان، لأن ذاكرته لم تعد تقوى على التذكر الا يوم ان وجد نفسه وهو يرتع في الأرض المهجورة. يقضم قبضة من الشوك هنا، وقبضة اخرى من الشوك هناك، ظاناً نفسه انه وجد من العدم.

ففي هذه البقعة التي تغطي مساحة كبيرة من الأرض، حيث تنبت الحشائش الخضراء والعليق، وحيث تبتلع الزهور البرية الذباب الصغيروتطن الهوام في الجو في حميا عشقها، كان يظهر حصاد اعشاب منفرد بين آن وآن.

وفي اثناء تجواله المتقطع على غير هدى، وجد الحمار نفسه مرة في بستان مهجور كان يسكن فيه من قديم الزمان ناسك متقشف ورع.

Twitter: @ketab_n

وكان حول البستان سياج شائك، او بالاحرى ضفة مرتفعة من الجذور الجافة اقيمت حول ارض تقرب الفدان من الحشيش الشهي، بينما تركت فتحة للدخول من لمة قديمة متهدمة.

وكان في وسط هذه الرقعة كـوخ متداع من الـطين ولكنه كـان يصلح لاعطاء الحمار مأوى ضد الرياح الغربية الآتية من اتجاه البحر. التي طالما هبت بشدة وغضب فوق الغابة.

وكان الحمار الذي انتقى بقعة كهذه ليسكن فيها ذا عقل متواضـع، لم يزعـج نفسه طوال حياته بأية كبرياء او رغبة جامحة، لقد كان هادئاً ومسالماً في طباعه مطيعاً منقاداً، لا تعرف افكاره الأذية، خال من اية رغبة في العالم سوى قوته الضروري. ولما لم يسمع ابداً ما يناقض تصوراته، ظن نفسه انه الحيوان الوحيد الذي يعيش في هذا عالم. فإذا ظهر شبح في الغـابة، من بقـرة وحيدة او حصـاد اعشاب منفـرد، ظنهما الحمار شجرة عليق غريبة دفعتها الرياح العاتية الى تلك الانحاء.

لم يكن الحمار بحاجة لأي صديق، لانه كان راضياً عن نفسه كل الرضى؛ كان يعيش بتقشف، يدور هنا وهناك بدون فكر على الاطلاق، ولم يخطر في باله ابـداً ان يكون اكثر مما هو - حمار وكفى! اما الوقت فلم يكن لديه اي معنى او وجود، ولو قدر له ان يعيش الف عام لانقضت عليه كيوم واحد.

كان يطرح نفسه طوال الليل على فراش ناعم من الخنشار كان الناسك قد تركه في منعزل بجانب حائط الكوخ المتهدم.

وشعر الحمار هناك براحة وامان وهو يتمتع باعظم مناعة سماوية. وعندما كان يأتي الصباح كان يتقلب ويتمطى ثم ينهض. واذا كـان الوقت صيفـاً والذبـاب يحوم حوله كان يضرب ذنبه القصير في الهواء ثم يذهب الى حيث الحشيش والقرطحان في كثرة.

لم يكن للحمار صوت؛ ولم يكن يعرف الخير من الشـر - لان هاتـين الصفتين كانتا ممزوجتين به لدرجة ان صارتا بحكم قانون التوازن واحدة غير متباينة. فلم يظهر شيء يعكـر صفو او قنـاعة هـذا المخلوق الطيب الـذي كان، وايم الحق، يجب ان

Twitter: @ketab_n

يسمى «الحمار العديم الرغبات».

اما الناسك الذي عاش في البستان قبل الحمار فلم يترك وراءه اي تاريخ عن اعماله ولم يعرف سكان القرية ـ التي تبعد ثلاثة اميال ـ اي شيء عنه، حتى ان بعضهم شك فيما اذا عاش هناك اي ناسك على الاطلاق. فان كان قد عاش حقاً، فانه لم يسبب أثناء المدة التي قضاها أية فضيحة تعطيه الحق في ان يمكث، ولو في حيز ضيق، من ذاكرة انسان. فهو لم يلقِ وعظة واحدة من على منبر الكنيسة ـ فلو فعل ذلك لاستدعى على الاقل انتباه شخص واحد ـ وكذلك فإنه لم يتسلل ابداً الى القرية أثناء الليل ليحظى بمشاهدة غادة عذراء في ضوء القمر. وبما انه كان رجلاً طيباً، لم يكن أحد في حاجة لأن يتذكره، حتى ان اكثر الناس قالوا ان الحمار كان اول من سكن البستان المهجور. ولكن سواء، اعاش هناك ناسك ام لم يعش فقد حصل الحمار على كل ما كان يشتهيه.

كانت افكاره الوادعة المنعزلة تدور دوماً على محور واحد داخل هامته، وكانت الفصول تمر به مرور ظل السحاب، مازجة الدقائق والساعات الهنيئة بسعادة لا توصف. أما جلده فقد كان ثخيناً لدرجة انه ما كانت لتؤثر فيه عواصف الشتاء ولا دباب الصيف اقل تأثير؛ وكانت اشارته لكلتا الحالتين ـ هزة من الذنب ـ سواء لثلج كانون او لبعوض شهر آب.

أفي مقدور احد ان يتصور حياة أكثر سعادة من حياة هذا الحمار المسكين! كان العلف لديه كثيراً، ولم يكن هناك ثمة شيء يزعجه او يؤلمه، ولم يكن لديه اي عمل ليعمل. كان عائشاً، على ما يبدو، الى الابد، لان الزمان لم يكن له وجود عنده.

وكان مقدراً له ان يعيش هكذا، كل يوم كسابقه، لولا أن الحظ العاثر نغص عليه هدوءه الابدي... اذ بينما كان يرتع في سعادته وسط هذا المكان الخصيب، قدمت ارنبة الى احدى الممرات المؤدية للقرية وسكنت فيها.. وكانت حبلى، ولكنها كانت منزعجة من نمس نهم حل بجوارها. كان قد اكتشف حجرها فأخذ ينتظر الساعة الملائمة حتى تلد فيبتلع العائلة بأكملها.

خافت الأرنبة، الام الحنون، على مصيرها ومصير اولادها فصممت على الهرب

Twitter: @ketab_n

ورحلت في ليلة قمراء وسط الغابة. وكانت طيلة الوقت تندب حظها وهي سائرة لان مجرى السيل الذي عاشت فيه قرب القرية كان ملائماً لها. فبنت عشاً جميلاً هناك، وكان الحشيش في الحقل المجاور لها خصيباً كأحسن ما تشتهيه أرنبة. وكان صاحب الحقل رجلاً دمثاً لا يقتني اية بندقية.

وبينما هي مجدة في سيرها، وكانت تعلم ان الفجر ما زال بعيداً، وصلت الأرنبة قصر الحمار المنعزل وهي تعبة منهكة.

اشتغلت الارنبة في كل ما تبقى من الليل حتى الفجر بحفر حجر وسط السيل الرملي، سيل ذكرها بموطنها القديم.

وكان من حسن حظها انها بينما وهي مجدة في عملها أن قدمت لها أفعى كانت تسكن في ذلك السيل النصيحة كيف تحفر الأرض وتتجنب جذور النباتات الغليظة القاسية.

وما ان بزغ الفجر حتى كان العش جاهزاً ومليئاً بالفراخ. وبينما كان الحمار يرتع بعد بضعة ايام بقناعة وفلسفة، متأملاً مفكراً انه لولا وجوده هناك لما وجدت الغابة على الاطلاق، ان خرجت الارنبة من حجرها وخاطبت الحمار هكذا:

«سيدي، يا ملك السماء والارض، ايها المخلوق الابدي، أفلا تجد في حياتك الملأى بالفراغ الدائم والقناعة مللاً قليلاً؟ واني ارجو ان لا تعجب من رؤيتي، لأنني لست انا هنا الا لأنك ولدتني بفكرة وانت تقضم ضمة من الشوك. ولربما نسيت تماماً انك فكرت بي من قبل ابداً، مع انه لا تولد فكرة من افكارك دون ان تولد الثمرة - السماء هي ملكك والارض كذلك انظر الى خليقتك؛ فهذا البستان الخصيب، والمشهد العظيم الواقع وراءه هو لك ايضاً؛ انك تخلق الحباحب أثناء الليل وتطيره في السماء؛ انت يا من خلقت الافعى الهزيلة، وبدونك لما وجد شيء مما هو موجود.

«وفي الوقت الذي وصلت فيه الى ممتلكاتك، عرفتك كخالقي، واردت أن أقدم لك فروض الطاعة والعبادة على شتى انواع التراتيل والانغام، وما انا بسائلة منك مقابل ذلك سوى السماح لي ولعائلتي ان نقضم قليلاً من العشب في هذا البستان، واني اعدك وعائلتي ان نقدم خدماتنا لك الى الابد، ونعاهدك أن لا نمس ابداً الشوك

Twitter: @ketab_n

والقرطمان الخاص بك.

«ونقسم بحق جلدك المقدس واذنيك الطويلتين ان نعبدك الى الابد.

فصدق الحمار، الذي لم يسمع في حياته من قبل كلمات حلوة كهذه، حكاية الارنبة، وظن نفسه انه فعلاً خلقها لكي تعبده. فأجابها بلطف، وأشار عليها ان تنمو وتتكاثر لكي ترن الصلوات والكلمات المعسولة في أذنيه الى الابد».

فسجدت الارنبة، الام الحنون، وشكرت سيدها وعادت الى عشها ترضع صغارها الذين كانت الافعى قد ابتلعت واحداً منهم اثناء غيابها.

شعر الحمار لاول مرة بمرور الزمن منذ ان عاش في العزلة. فالقناعة الابدية التي عاش عليها مجتراً تغيرت تماماً، وظهر له في كل يوم من ايام الاسبوع الاول من حدوث هذا التغيير شيئاً جديداً ظن نفسه انه قد خلقه من قبل. ولم يعد يظهر له حصاد الاعشاب الذي كان يبدو كخيال من بعيد كعليقة بسيطة بل اعتقد انه قد خلقه في حلم، واعتقد كذلك، عندما رأى بضعة من الجحاش، انه فكر بهم ايضاً من قبل.

ليس هنالك حالة اكثر حزناً من حالة هذا الحمار المسكين وهو واقع في شرك الكبرياء. وبدلاً من ان ينام طوال الليل بقناعة على فراش الخنشار الناعم بجانب حائط الكوخ، أخذ يفكر في عظمته وفي الكلمات الرقيقة التي سمعها من الأرنبة. اخذ يفكر الآن كم كان وحيداً في عزلته، وامتدح نفسه لانه خلق جميع الكائنات وهو في حلم، واحتقر كل ايام حياته الهادئة معتقداً انها ذهبت سدى لأنه لم يكن في اثنائها من يعبده.

لم تمض ايام طويلة حتى فطمت الأرنبة اولادها، ولكن قبل ان يتركوا عشهم ليقتاتوا وحدهم، علمتهم امهم، بمشقة زائدة صلاة خصوصية ليقدموها للحمار شاكرين اياه على قوتهم اليومي من الحشيش.

وسرعان ما تعود الحمار الاحمق كيف يمد أذنيه الطويلتين لكي يستمع الى دعوات الارانب الصغيرة.

Twitter: @ketab_n

كانوا كلهم يجلسون امامه في صف طويل واذناهم القصيرة البيضاء وراءهم، ومخالبهم الامامية مرتفعة في الهواء، وكـان لسجودهم جمـال فائق وهم يلفـظون آخر كلمة من صلواتهم قائلين آمين.

وكانت الأم تنظر الى صغارها مغبوطة، لقد كانوا سعداء في صلواتهم مثلما كان الحمار سعيداً في الاستماع اليهم.

وفي الحق كانت الأرانب الصغيرة ترى في عملية السجود الى مخلوق كبير كهذا ملهاة وتسلية، بينما كان الحمار يشعر بكبرياء حيوان احمق بسيط وهو يعبد ويحترم.

نما حب الصلاة في الارانب الصغيرة لدرجـة انهم كانـوا يجلسون امـام الحمار مرات عديدة في النهار وفي الفجر وفي المساء، واحياناً كانت تقترب منه لدرجة كانت تعيقه عن أخذ قضـمة من الشوك.

وحدث مرة ان وضع ارنب صغير نفسه بطيش امام الحمار وهو يأكل، ومع ان الارنب عمل سجدته وقدم صلاته قضم الحمار رأسه.

وبعد ان ندبت الام ولدها لمدة في حجرهـا، استشارت صـديقتها الأفعى عن أفضل طريقة للتخلص وتخليص البستان من ذلك الحمار الشره.

قالت الأفعى: «ان كبرياءه ستكون سبب هلاكه لانه لو عاش كما عاش قبلاً، عندما كـانت السنون والايـام متساويـة لديـه، لمكث الى الابد كـذلك من السعـادة الدائمة. ومع ان اعماله الوضيعة كانت دائماً تزعج افعى بريئة لا تحب الاذية - مثلي - وكان دوماً يظنني قطعة غصن معوج - لما فكرت في الحاق الأذية به لو انه ظل يعيش بتعقل».

فأبدت الارنبة ملاحظة قائلة: «حقاً، انه لم يؤذ احداً عندما كان هادئاً واخلاقه طيبة، ولكن بما انه اصبح يطيب له ان يمدح ويعبد وداخله غرور لدرجـة تسول لـه نفســه ان يقضـم رؤوس الآخرين، وفـارقتـه روح السـلام، لم يبق لنـا حيلة الا في الخلاص منه».

فتمتمت الافعى قائلة: «قبل ان اسديك النصيحة التي بموجبها سنصل الى هذه الخاتمة السعيدة، اطلب منك شيئاً واحداً»:

Twitter: @ketab_n

«لا شك انك ارنبة غزيرة النسل، وبما انك من المحتملَ ستلدين عدداً كبيراً من الفراخ الناعمة، اني لا أحب ايذاءك، انما اطلب منك كمكافأة على تخليصي اياك من الحمار، ان تهبيني طفلاً رضيعاً واحداً عن كل مرة تلدين فيها. اني اعرف تماماً انها عادة بين فصيلتكم انكم تأكلون صغاركم عندما يحيقكم الخطر. ولكنني آمل ان هذه العادة ستنقطع عندما اصنع لك هذا الجميل».

كانت الارنبة تعي تماماً كم سيكون العشب وفيراً اذا ما زال الحمار، فوافقت على اقتراح الأفعى واصغت بمزيد من الاشتياق الى الخطة التي راحت تهمسها الافعى في اذنها.

انطرح الحمار تلك الليلة على فراشه وظل مستيقظاً كعادته، لأن الكبرياء لم تدعه ان يغمض جفنيه، فصار يعد الساعات ملاحظاً بغضب كيف كانت الكواكب تدور في السماء ببطء - لأنه ظنها صنع يديه - واراد ان يبزغ الفجر سريعاً لكي تأتي اليه الارانب الصغيرة راكضة من عشها فتعبده.

وعندما بزغ الفجر في النهاية، نهض الحمار وتمطى، ثم مد رجله الخلفية وحك بها اذنه اليسرى، وبضربة من ذيله في الهواء قفز خارجاً الى البستان ليتقبل الصلاة من عابديه.

خرجت لاستقبال الحمار الأرنبة الأم لوحدها، وراحت تقص عليه كيف ان اولادها الصغار ما زالوا في فراشهم خائفين ان يتركوا البيت، وكيف شعروا انهم لا يستحقون ان يسجدوا لمخلوق ذي هيبة ملكية كالسيد الحمار.

قالت: «لا شك انهم ارانب صغيرة مسكينة لا قيمة لهم في هذه الدنيا وهم ابعد من ان يجلبوا انتباه شخصية عظيمة كحضرتك».

واحنت الارنبة رأسها بسجدة عميقة وتابعت: يا سيدي المقدس، ألا تريد ان تعبد من مخلوقات اكثر قيمة من اولادي المساكين؟ كل الارض هي ملكك، وهنالك اناس بين مخلوقاتك العظيمة من سيخدمك ويبجلك بشرف اعظم منا، وما عليك الا ان تخب بخفة وسط الغابة وستجد جميع الطيور والعصافير التي كنت تحلم بها على طول الطريق مرحبة بقدومك. وفي القرية المجاورة تماماً ستجد الكثيرين ممن سيركعون

Twitter: @ketab_n

لك ويعبدونك.

فهاجت به الكبرياء في الحال لدى سماعه هذا الاطراء، فقفز فوق السياج لانه كان اعظم من ان يخرج من البوابة، فبقيت الأرنبة المالكة الوحيدة لبستان الناسك. وفي الوقت المناسب ولدت الأرنبة بكثرة فائقة لدرجة غدت من جرائها الافعى الهزيلة مكتنزة غليظة.

وما كاد الحمار يخرج من البستان حتى راح يجري بخفة ونشاط الى ان وصل كنيسة القرية حيث كان الشعب مجتمعاً للصلاة. فاطل برأسه من الباب بحذر، فرأى الجمع كله راكعاً تماماً مثلما كانت تفعل الارانب الصغيرة. فاعتقد الحمار انهم كانوا في انتظاره ليعملوه الهاً لهم، فدخل الكنيسة وهو يخب ويقفز الى ان وقف بجانب القسيس في الهيكل ونهق بصوت عالٍ.

فانزعج القوم من هذا النهيق الكريه ونهض الكل عن ركبهم. وامسك كاتب الكنيسة هراوة ضخمة في يده وراح يضرب الحمار ضرباً مبرحاً وجيعاً الى ان اخرجه من الكنيسة. وكان قد ازمع على قتله لولا ان توسل اليه القسيس بحرارة ان يعفو عنه ليشغله كدابة لحمل الأثقال طوال ايام حياته.

لقد كفر الحمار المسكين عن كبريائه بطريقة محزنة، واصبح ملكاً للكنيسة حيث افاد القسيس منه كثيراً ظاناً بأنه قد ارسل اليه من المخزن، حيث تحفظ جميع الأشياء الحسنة لمنفعته الخاصة.

واضطر الحمار ان يشتغل في الحر والبرد، وضربه جميع اولاد القرية وركبوه، ولم يعط له من القوت الا شيئاً قليلاً جداً من ارذل الحشائش وأخذ الصبية يرجمونه بالحجارة، والقسيس يلعنه، كما وغدا اضحوكة لنساء القرية.

Twitter: @ketab_n

الغابة المظلمة

بقلم: سيرجي مكسيموف
روسي

كانت الغابة كبيرة فسيحة بحيث بدت وكأنما لم تكن هناك نهاية لها، هنا شجيرات الحور البنفسجية المنخفضة مختلطة مع أشجار البتولا الصغيرة المرقطة، وهنالك أشجار الصنوبر السامقة الجبارة محاطة بشجيرات العرعر النفاذة الرائحة. وغيوم شفافة واطئة تنساب فوقها كسولة غير ملحوظة، وصمت أشبه بصمت الموت يرين في ارجائها لا يعكره سوى صوت عصفور وحيد كان يصيح مغرداً في مكان ما على وتيرة واحدة:

«اشتر حصواتي. . اشتر حصواتي. . »

وقطع ايريكوف حبل هذا الصياح من ذهنه ونهض واقفاً ونخس برأس حذائه فاسكا الذي كان النعاس مستولياً عليه وقال:

«هيا! لقد حان الوقت!»

ونهض فاسكا من رقدته ببطء وتمطى، وبحركة مألوفة لديه علق سلاحه الاوتوماتيكي حول عنقه وتثاءب. وكان فاسكا رجلاً قصير القامة شاحب الوجه، بشعاً ذا رأس كبير، تكشف ابتسامته عن أسنان صغيرة سوداء. وقد تمنطق بحزام عريض

Twitter: @ketab_n

من القنابل اليدوية. وكانت عيناه الوقحتان الشبيهتان بعيون قطاع الطرق والمحاطتان بشبكة من التجاعيد تبدوان مرحتين تثيران الاستفزاز. لص نهاب ذو ماضٍ حافل بالاجرام، وكانت له شهرة في فرقة الجنود المتطوعين البواسل لاعماله الطائشة اليائسة. ولهذا فقط - لشجاعته المتواصلة، ولغلاظته الحيوانية، ولاستخفافه بكل ما هو إلهي وانساني - انتقاه ايريكوف كرفيق له. وكان ايريكوف في حاجة لرجل كهذا، لأنه هو ايضاً لم تكن الشفقة تعمر صدره، بل كان الموت يعمر صدره، عوضاً عن ذلك. حتى ان فاسكا الداهية كان ينظر اليه بقليل من الخوف والهيبة.

وكرر العصفور صائحاً: اشتر حصواتي. . اشتر حصواتي. .

وسار ايريكوف يخطو بثقل على الأغصان الساقطة بحذائه العسكري، وذهنه الملتهب غارق في لجة من الذكريات المتواصلة المتكررة التي لم تعطه راحة لا في الليل ولا في النهار وكأنه في حلم مزعج. .

تألقت المياه الزرقاء تحت شمس الصيف البراقة وتكسرت رقرقتها على جانب المرفأ جاعلة بقع الزيت القزحية الألوان تتلاعب صعداً ونزلاً على الأمواج الهادئة. وكان عمال الميناء الذين كان العرق ينضح من أجسادهم يستبردون في ظل المستودعات ويستريحون بعد عملهم الشاق، يلوكون الخيار والخبز ويتحدثون باسترخاء ومرح، ثم راح احدهم يغني بصوت ناعم.

«بقيت مرة مع محبوبتي غلافيرا،
واسترحت على فراشها الناعم كالفجر. . »
وتلقف الآخرون الاغنية وراحوا يغنون:
«وأردت شربة ماء،
ولذا سألقيها بهدوء. . »

واتكأ ايريكوف بجانب آخر المستودعات يستمع الى الأغنية. وكان منزوع القميص وصدره العاري الملوح في الظل بينما كانت ساقاه في السراويل الواسعة المصنوعة من قماش القلوع ممدودين في الشمس الساطعة. كان في الثامنة عشرة من عمره ويتمتع بشبابه، وازداد احساسه بالسعادة عندما ذكر نفسه بأن دروس الجامعة

Twitter: @ketab_n

تنتظره في هذا الخريف. حياة الطلاب . .

«واعطتني ماء،
ثم رغبت في ان تعطيني مزيداً . . »

واستمر الغناء بين الصفير والهتافات.

وبغتة صاح صوت فوق ايريكوف المضطجع:

«ملاح، يا ملاح!» ونهض، فرأى فوقه مباشرة تجاه الشمس فتاة صغيرة لا يزيد عمرها عن الثانية عشرة واقفة وهي في ثوب قصير خفيف. ولأنها كانت في اتجاه الشمس لم يظهر في وجهها سوى ملامحه، وشعرها الفاتح اللون كان كهالة حوله كثيفاً متطاير الخصلات بدون ترتيب.

وتساءل ايريكوف بخمول: «ماذا ترومين؟»

وخطت الفتاة فوق ساقيها، فلاحت له ابتسامة حلوة على شفتيها وبريق من السعادة في عينيها الرماديتين. وبيد ممسكة بطرف ثوبها تشده الى اسفل مدت يدها السمراء النحيلة الاخرى التي لوحتها الشمس وقالت:

«يا ملاح، اشتر حصواتي. . . » وفتحت قبضتها المتسخة الصغيرة فظهرت على راحتها المبتلة كومة صغيرة من حصى النهر متعددة الألوان.

وتساءل ايريكوف مندهشاً: «وماذا افعل بها يا ترى؟»

فقالت: «آه، ان هذه الحصى ليست حصى بسيطة. . . انها حصى تجلب الحظ. أتشتريها؟» ولوت حاجبيها الرشيقين المستقيمين قليلاً، وومضت عيناها اللتان كانتا ترمقان ايريكوف مباشرة بشوق وشرود.

وابتسم ايريكوف وراح يلعب بالنقود الفضية في جيبه حتى سمع رنينها وقال: «حسناً، سأشتريها، بكم؟» ودارت حول نفسها وهتفت الفتاة: «بمئة الف» وقفزت فجأة ثم رفعت يديها وراحت تغني: «لن ابيع . . . لن ابيع . . . لن ابيع . . . » واختفت هكذا وهي تبرم بين اكياس الملح.

Twitter: @ketab_n

امضى ايريكوف عطلته الصيفية لسنته الاخيرة كطالب ببيته في بلدته سمولنسك، وفي احدى الامسيات الجميلة وقف في الصف ليشتري تذكرة للسينما. وكان اليوم يوم احد. وكان هنالك جمهور محتشد. وعندما اتى دور الفتاة التي كانت امامه اعلن صراف التذاكر فجأة بأن التذاكر قد نفدت واغلق الشباك الصغير. فقالت الفتاة بخيبة وهي لا تخاطب شخصاً معيناً. «هذا هو الحال دائماً.» والتفتت ملقية نظرة شاردة على ايريكوف وغادرت مكانها.

والتفت ايريكوف غريزياً وراح يتبعها ويخاطب نفسه اين ومتى رأى هذا الوجه الصبوح، وهاتين العينين الرماديتين يعلوهما الحاجبان الرشيقان؟ حاول جاهداً ان يتذكر ـ ولكنه لم يفلح.

ووصلت الفتاة منصة الرقص والقت بحقيبتها اليدوية خلف ظهرها وراحت تؤرجحها ببطء وهي ترمق ازواج الراقصين وكانت ساقاها الرشيقتان المدبوغتان في جوارب قصيرة بيضاء وقدماها في حذاء منبسط خفيف. وابتسم ايريكوف وعض شفته، وتذكر فجأة...

وقال وهو يسير نحوها ويرمقها من اعلى الى اسفل: «يا لي من غر، اني اعرفك!»

وأجابت الفتاة: «ولكني لا اعرفك.» والتفتت جانباً.

وقال ايريكوف بهدوء ووضوح: «يا ملاح، اشتر حصواتي...»

والتفتت الفتاة بسرعة وقد احمر خداها وتسمرت عيناها على ايريكوف لفترة طويلة، ثم ابتسمت.

هذه هي الكيفية التي بدأ فيهما حبهما... ذلك الحب الصالح الحقيقي القوي الذي يربط البشر منذ البداية والى الابد.

وأخّرا يوم الزفاف بانتظارِ حصول ايريكوف على شهادته الجامعية. فمر الصيف وتبعه الخريف ثم الشتاء فالربيع، ثم تقرر ان يكون يوم الزفاف في نهاية حزيران، ولكن في الثاني والعشرين منه بدأت الحرب. فأرسل الملازم ايريكوف الى الجبهة

Twitter: @ketab_n

الوسطى، وكان ايريكوف يعلم منذ اليوم الأول بأن من الواجب عليه أن يبقى حياً ـ حياً بها. وبقي بالفعل حياً. لقد جرح، وأصبح أسيراً وهو فاقد وعيه، ثم تماثل للشفاء وهرب من الأسر حتى وصل بلدته سمولنسك. وانخرط في مفرزة غريبوف للجنود المتطوعين.

تقصفت الأغصان الجافة تحت الأقدام، وامتدت الغابة المظلمة وعلت كجدار سامق نحو السماء الحزينة المشوبة بسحب كالدخان. وراح فاسكا يمضغ قطعة من الخبز الجاف ويتطلع أمامه على كتفي ايريكوف العريضتين والى سلاحه الاوتوماتيكي ويفكر بالمهمة العاجلة ـ نسف رئاسة الالمان في سمولنسك، ثم يفكر بايريكوف. لقد كان على أحر من الجمر لمعرفة ما يدور في ذهن الملازم. وكان قد بلغت مسامعه حكاية عروس الملازم وكيف ان زمرة من الجنود الالمان السكارى اغتصبوا عفافها. اغتصبوها بوحشية لعينة ثم قتلوها ورموا بجثمانها المعذب في خندق بجانب الطريق.

وفكر فاسكا: «انه سيصليهم بناره. وأغلب الظن اننا لن نغادر سمولنسك أحياء».

وزقزق العصفور: «اشتر حصواتي. . اشتر حصواتي. .»

فاقتضب ايريكوف في مشيته بغتة ونتر سلاحه الرشاش عن كتفه وأمسك به. ونمت قسمات وجهه الشاحب عن عذاب ليال كلها سهاد وأرق. ثم راح يحملق بعينيه الزائغتين في قمم أشجار الصنوبر وهو مشدود الحاجبين ثم صاح: «أين هو؟»

وإذ تحقق فاسكا ان الملازم كان متأهباً لاطلاق النار على العصفور خاطبه بحذر قائلاً: «من الأفضل ألا تطلق النار يا رفيقي الملازم. إن ذلك سيحدث صوتاً. .»

وغرد العصفور بعناد: «اشتر حصواتي. . اشتر حصواتي. .»

وكرر ايريكوف قائلاً: «اين هو؟» ثم رفع رشاشته وأطلق النار.

وقال فاسكا بخيبة وهو يتتبع طيران العصفور بناظريه:

«لقد طار. .»

وحوالي الظهر بلغا فسحة خالية من الأشجار في الغابة حيث تناهى الى

Twitter: @ketab_n

مسامعهما صوت آلة آتٍ من مكان ما منها. فاختبئا بين العليقات قرب حافة الطريق.

وأتت سيارة شحن ألمانية ثقيلة تتمايل فوق الحفر على الطريق وهي محملة بالهشيم. وهيأ ايريكوف قنبلة يدوية وفي اللحظة التي استوت السيارة فيها أمامهما رمى القنبلة على المكان الذي يجلس فيه السائق. ودوى صوت الانفجار في الغابة. وعندما رفع ايريكوف رأسه رأى السيارة وقد سقطت في خندق، وهبة كثيفة من الدخان تنبعث من مقدمتها المهشمة ثم اندلعت فيها النيران. وقفز جنديان من بين الهشيم. وراح احدهما يركض بجنون ولكن لسبب غريب لم تكن الغابة وجهته بل كان يركض على قارعة الطريق. وعندما جندله فاسكا برشاشته رفع الجندي يديه بارتباك وسقط على وجهه في الأخدود. وتحصن الجندي الثاني وراء السيارة المحترقة وراح يطلق النار على ايريكوف ورفيقه كيفما اتفق بدون هدف، مغطياً بذلك خوفه. ولكن ايريكوف زحف الى جانب وأرداه قتيلاً. غير ان الحياة لم تكن قد فارقته عندما وصل الى جانبه، اذ كان مستلقياً على ظهره ووجهه مخضب بالدماء يفركه بيديه الملوثتين كأنما كان يغسله.

وأتى فاسكا بعد أن فتش السيارة وقال بعد أن رأى الجندي على ذلك الحال: «تباً له! لقد تمزق وجهه وتهشم ومع ذلك فانه لا يزال يتنفس، ابن الزنا..» ثم أردف بهدوء، «ان هذه أول دفعة نكيلها لهم انتقاماً لحبيبتك أيها الرفيق الملازم.»

فصاح به ايريكوف عابساً: «اخرس!..» وسحب مسدسه وأفرغ ثلاث رصاصات في الكتلة الدموية.

وكان اللهب في هذه الاثناء قد انتشر في السيارة وبدأ الهشيم في الاحتراق. وكان عليهما ان يسرعا. فقطعا الخندق وكانا على وشك الدخول في الغابة عندما لمحا فجأة شيئاً يلتمع بين شجيرات العرعر، التمع مرة، ثم مرة أخرى.

وصاح فاسكا وهو يقبع مختبئاً: «قف!» وصوب رشاشته.

واحتمى ايريكوف خلف شجرة ورفع سلاحه أيضاً.

ولكن فاسكا راح يهتف بتهكم: «اخرجي، اخرجي، يا..» وأخذ يمعن النظر بين الشجيرات ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة ملتوية وأعلن بمرح زائد، «انها كلبة، يا

Twitter: @ketab_n

صديقي الملازم. حسناً، لتحل علي اللعنة - انها كلبة!» وتقدم دون وجل نحو الشجيرات وهتف آمراً: «اخرجي يا آنسة! ان هذا ليس مكاناً للعب!» ثم راح ينخش بكعب بندقيته بين الشجيرات.

وخرجت الفتاة من بين العليقات. وكانت فتاة صغيرة نحيفة في الزي العسكري الالماني الخاص بممرضات الصليب الأحمر. ورجعت القهقرى واستندت الى شجرة صغيرة من البتولا وطوقت جذعها من الخلف بذراعيها المرتعشتين، ثم أخذت تهبط وظهرها مستنداً الى شجرة البتولا، ترفع نفسها على أصابع رجليها كأنما كانت ترغب في أن تثبت نفسها في الشجرة، أن تذوب فيها وتختفي، وجسمها يتثنى ذات اليمين وذات الشمال، ولكن شعرها القصير القاتم المشعث لم يكن يتحرك. وكانت عيناها البندقيتان النديتان والواسعتان بشكل غير مألوف تتطلعان برعب صبياني الى ايريكوف حتى انه اشاح بوجهه جانباً للحظة. وعندما نظر اليها ثانية لم تفارقها نظراته. ومن الجلي انها كانت قد آذت نفسها عندما سقطت من السيارة لأن ركبتها اليسرى كانت بارزة من ثوبها الأخضر الملطخ وقد استحال لونها الى زرقة قاتمة. وكان على عنقها النحيل خدش قرمزي كبير، وخدش مماثل آخر امتد على وجنتها من الصدغ حتى الذقن.

ساد الصمت بين الثلاثة، وأز اللهب وهو يطلق كميات من الشرر، وأنار الغابة والطريق والعليقات، وجثتي الجنديين، والأشخاص الثلاثة الصامتين المواجهين الواحد منهم الآخر، وأسبغ عليهم من نوره حلة بلون النبيذ وتحقق الثلاثة ان سكوتهم لم يكن سوى نتيجة ما أتت به قلوبهم وعقولهم من عمل جنوني رهيب.

ولم تستطع الفتاة احتمال هذا الصمت فانزوت جانباً ترتعد مغمضة عينيها، وتدحرجت على وجنتها دمعة وحيدة يائسة اصطبغت بلون اللهب تاركة على بشرتها أثراً لامعاً براقاً.

وصاح ايريكوف آمراً وهو يشير بفوهة بندقيته باتجاه الغابة: «إلى الامام!» لم تفهم الفتاة ما قال. فألقى فاسكا بقبضتيه على كتفيها ودفعها باتجاه الدرب الذي لم تكن معالمه بادية تقريباً. وراحت الفتاة تسير طائعة وهي تعرج قليلاً وتنظر الى الخلف خائفة. وسبقها فاسكا آخذاً المقدمة وتبعها ايريكوف في المؤخرة.

Twitter: @ketab_n

وساروا لفترة طويلة والسكوت يخيم عليهم وهدوء الغابة يقلقهم، وبدا كأنما لم يكن هناك لقاء مع الالمان اطلاقاً، ولا سيارة محترقة ولا صدام ولا قعقعة سلاح. لم يحدث هنالك شيء سوى إضافة شخص ثالث غير ضروري البتة، رفيق عظيم قضى على جميع المخططات والتحسبات.

وإذ تحققت الفتاة بأن ايريكوف كان القائد، وان حياتها موقوفة عليه، راحت تلتفت وراءها بين الفينة والفينة محاولة ان تفسر وضعها بكلمات مضطربة متلجلجة، بأنها ليست سوى ممرضة وانها مزمعة على الذهاب في الاسبوع المقبل - دون إبطاء - في فرصة لرؤية والديها في برلين، وانها لم تسبب مضرة لأي انسان في حياتها على الاطلاق. ولكنها عندما كانت ترى عيني ايريكوف وحملقته الباردة الخالية من الادراك كانت تجفل وترتد خائبة وتسكت. واعادت الكرة مرات ومرات محاولة ايضاح وتفسير كل شيء منذ البداية.

والتفت فاسكا ايضاً في عدة فرص وسأل ماذا عساهما يفعلان بالفتاة الألمانية. ولكن طالما ان ايريكوف نفسه لم يكن يعلم ماذا يفعل بها لم يكن له الخيار سوى الأمر بالسير قدماً. ولم يكن بوسعه اطلاق سراحها لأنه لم تكن لديه السلطة على ذلك ولا الرغبة أيضاً وكذلك لم يستطع أن يرسلها الى المعسكر مع فاسكا لسببين، أولاً: سيغدو من العسير عليه تنفيذ المهمة الملقاة عليه وحيداً، وثانياً: ستكون الفتاة عرضة ليتلقفها الجنود المتطوعون بين أيديهم.

وبدأ المطر يتساقط في هدوء فسمع لوقوعه على أوراق الاشجار حفيف رتيب، وأخذ التعب من الفتاة فراحت تعرج بوضوح أكثر من ذي قبل. ثم توقفوا وجلسوا تحت صنوبرة ضخمة وارفة شبيهة بالخيمة.

وقال فاسكا بحيرة: «الى اين نسوقها - لا أدري. انظر الى ركبتها! انها لن تستطيع الصمود ميلاً آخر.»

وبالفعل كانت ركبة الفتاة قد تورمت واسودت اكثر فأكثر. ولكن احساس الخوف كان طاغياً على احساس الألم، فلم تشعر بركبتها الموجوعة. ان جميع انتباهها كان منصرفاً نحو وجه ايريكوف حيث كان جالساً ورأسه منحن ينكث الأرض بكعب بندقيته بهدوء.

Twitter: @ketab_n

وأتى فاسكا بشرحات من الخبـز واللحم القديـد وناول السجينـة حصة كبيـرة وقال: «خذي، كلي. .» ولكنها هزت رأسها ونظرت الى ايريكوف بعذاب وأمل.

وعلى حين غرة سمع صـوت هادىء حـزين آت من بعيد فتملكت ايـريكوف الرعشة ورفع رأسه. وتجاوب التغريد مرة تلو المرة. لقد كان العصفور ذاته يغرد.

والتفت ايريكوف نحو فاسكا شاحباً وأمره بهدوء محاولاً ألا ينظر الى السجينة: «يا شاويش، اقتلها. .»

فسقط الخبـز من يدي فـاسكا لـدهشته وعـدم توقعـه هذا الأمـر المفـاجىء. وتساءل: «من؟ هي؟».

وقال ايريكوف: «من إذن؟ ليس أنا بالطبع! و ـ أسرع! سر بها وكأنك تريد أن تأخذها الى المعسكر. . سر نحو مائتي خطوة. . ثم اطلق عليها النار من الخلف!»

ونهض فاسكا ببطء وهو لا يزال غير متفهم تماماً معنى هذا الأمر.

وصاح ايريكوف: «اسرع!»

وأجاب فاسكا: «أمرك، يا رفيقي الملازم. .»

وعيط ايريكوف مرة أخرى «اسرع!»

والتقت نظراته بنظرات الفتاة لبرهة لو طالت اكثر ـ من يدري. .؟

ولكن فـاسكا أخـذ يجرهـا من ذراعها نحـو الغابـة ويقول لهـا: «المعسكر. . تعالي. . . المعسكر. . .»

وقاومت الفتاة وهي تصيح قائلة شيئاً بالالمانية لايـريكوف، ولكنـه كان واقفـاً الآن معطياً ظهره اياها وهو منحنٍ قليلاً ومنفرج الساقين. وبدا كأنمـا هو نفسـه كان ينتظر الرصاصة ان تخترق قفاه.

وصاح مرة أخرى على فاسكا: «عجل! خذها من هنا بسرعة!»

وراح فاسكا يغمغم بالالمانية: «تعالي. . . المعسكر. . .»

Twitter: @ketab_n

ولكن الفتاة نثرت يدها من قبضته وجلست على الأرض وراحت تنظر الى فاسكا باستعطاف ورجاء ولكن فاسكا تحاشى نظراتها وسحبها من كتفها قائلاً: «تعالي. . . تعالي. . » وفجأة راح يصرخ بجنون: «انهضي حالاً، يا كلبة!» واخذ يدفعها قسراً. وبعدئذ تبعته طائعة. وهي تمشي كانسان اعمى، تتعثر وتسقط، خادشة ساقيها العاريتين بالنباتات والاغصان الجافة.

وعندما لم يعد يسمع صوت اقدامها، وعندما غرقت الغابة مرة أخرى في الصمت الذي لم يقطعه سوى خشخشة المطر الذي لم يقلل الصمت باي حال، بل كثفه وزاده وحوله من صمت ميت الى صمت حي غامض يحاول ان يهمس شيئاً، ـ عندئذ فقط سوى ايريكوف حدبة ظهره المنحني. وفتح قبضتيه المتوترتين ونظر حوله. ثم هتف بصوت مسموع بعض كلمات لا معنى لها. وجلس على الرابية.

وتملكه نسيان شبه واع وغريب، ولم يتذكر كم مر عليه من الوقت، اكان ذلك دقيقة أم ساعة. ان كل ما تذكره كان صوراً مجزأة مزدحمة تطغى على بعضها البعض. مرة يرى فتاة صغيرة يدها ممدودة وعلى راحتها كومة صغيرة من الحصى المتعدد الألوان، ومرة أخرى يرى شخص فتاة ضعيفة تضغط بظهرها على شجرة البتولا ودمعة على خدها، وأخيراً يرى زمرة من الجنود الألمان مزدحمين حول شيء فظيع جسد ممدد دون حياء على الأعشاب. . ولكنه عندما استعاد رشده لم يكن يعي سوى الصمت والفراغ. لم يكن في وسعه أن يدرك حالاً اين هو وما الذي كان يجري حوله.

كانت غيوم قاتمة تنساب فوق رؤوس الأشجار المتمايلة، ورذاذ المطر المتواصل تحول الى قطرات متماسكة متباعدة. قطرات منفردة تنزل كالمطارق تنقر بهدوء وانتظام على أوراق الأشجار الساقطة الغضة التي كانت تغطي الرابية.

وبغتة تذكر ايريكوف أمره الفظيع الرهيب. وفي نفس اللحظة، كأنما لكي يستعيد الحقيقة المخيفة بأن أمره قد أعطي فعلاً، سمع صوت طلقة. طلقة وحيدة عالية بشكل غير طبيعي مزقت سكون الغابة، وملأت حالاً كل شيء حوله بعذاب شديد لا يطاق. وكان مصدرها من وهدة قريبة.

وجذب فاسكا نفسه بالعليقات وصعد في الوهدة، وتقدم يتمايل بجسارة نحو

Twitter: @ketab_n

ايريكوف وهو يتحاشى مرور الأماكن المرتفعة بحذر. وعندما وصل دفع بقبعته الى قفاه ثم راح يفك أزرار قميصه الخاكي الملوث على مهل الى أن بان صدره المشعر الأسود الذي كساه العرق. وبعد أن عتم نظرة عينيه الوقحتين.. قدم تقريره بهدوء قائلاً: آه ما ابدع ما كانت عليه تلك الفتاة الألمانية قبل موتها.. ثم كسر عسلوجاً من العليقات التي أمامه وراح ينظف الوحل العالق بركبتيه بانشغال. ثم أضاف بنفس الهدوء: «ان هذا ما يفعلونه بنا، ونحن نفعله بهم يا رفيقي الملازم، وهكذا تجري الأمور..»

ولكن ايريكوف وقف على رجليه مترنحاً، وهتف بصوت مبحوح كاد لا يسمع: «فاسكا..»

وقال فاسكا: «ماذا؟» وكان لا يزال محدودباً ولكنه رفع رأسه فقط لتلتقي عيناه بعيني ايريكوف اللتين كانتا الآن واسعتين بشكل غير طبيعي، وباردتين، وسوى ظهره ببطء ثم قصم العسلوج بين أصابعه وسأل مرة أخرى: «ماذا؟»

وصاح ايريكوف: «فاسكا، اذهب وقف بجانب الصنوبرة..»

وسأل فاسكا السؤال غير المطلوب: «ولماذا؟»

وقال ايريكوف: «لكي أراك كيف تبدو قبل موتك.. قف بجانب الشجرة!»

وكان فاسكا على وشك الانقضاض على سلاحه الذي كان ملقى على الأرض عندما دفعه ايريكوف من صدره بكل قوته، فسقطت القبعة عن رأس فاسكا عندما اختل توازنه، وانفرجت ساقاه فراح يلوح بذراعيه بحركة خرقاء مترنحاً الى الوراء نحواً من خمس خطوات، وحاول ان يتماسك ويقف ولكنه لم يستطع ذلك فسقط على ظهره، وفي نفس اللحظة قبض ايريكوف بيده اليسرى على ياقة قميصه ثم على حنجرته، ورفعه بعد ذلك على قدميه وألصقه على جذع الصنوبرة الكبيرة. وكانت يد الملازم اليمنى تحاول انتزاع المسدس من قرابه بينما كان فاسكا قد القى بقبضتيه الاثنتين على اليد التي كانت تخنقه محاولاً أن ينتزعها عن حلقه.

ودخلت أول رصاصة تحت عينه تماماً، في عظمة الوجنة. فتراخى جسمه وتهدل كثوب على علاقة في يد أيريكوف اليسرى التي كانت ما تزال تخنقه. ودخلت

Twitter: @ketab_n

الرصاصة الثانية في عينه ثم افلته ايريكوف من يده فزلق جسم فاسكا على جذع الشجرة وانسل الى الأمام معوج الساقين وتجمد قابعاً ورأسه منكس على صدره. وبقيت على جذع الشجرة حيث كان رأس فاسكا قبل هنيهة بقعة مشوهة تسيل منها الدماء.

وعندما ألقى ايريكوف نظرة بليدة على الجثة رمى بمسدسه عليها. وكان سلاح فاسكا وجرابه ملقيين على الأرض فركلهما ايريكوف بقدمه. وبضربة قصيرة قوية على جذع الشجرة كسر البندقية الرشاشة وبعثر شظاياها. ثم راح يتوغل في الغابة دون أي هدف حاسر الرأس مشعث الشعر دون جدوى.

وسار لا يرى شيئاً، يلتفت آناً الى اليمين وآناً الى الشمال. ولربما كان يدور حول نفس المكان دون أن يعي ذلك، ثم طرح نفسه وتمدد بين الطحالب الرطبة وعفر وجهه في ثناياها. لقد سقط هناك فجأة وبدون أي حس، ثم راح يبكي عنوة ويخبط الأرض بقبضتيه وسكت بعد ذلك فجأة ايضاً، وهدأ، وانقطعت تنهداته.

وأتى الليل، وخيم الظلام على الغابة الحالمة، ولكن الرجل بقي منطرحاً دون حراك وساقاه متباعدتان ووجهه بين الطحالب الرطبة الباردة المنبعثة الرائحة. ولم تكن هنالك أية عواطف أو أفكار أو دموع في عينيه المفتوحتين اللتين كانتا تلتمعان في الظلام - بل كان فيهما سبات وركود، ذلك الركود الرهيب الذي يكتنف الانسان عندما يبتلعه فراغ مظلم.

وعلا القمر في السماء وفاض على الغابة المظلمة بنور أخضر ثم راح يعلو ويعلو مثلما فعل ذلك مليوناً من المرات من قبل.

Twitter: @ketab_n

خلاص رهيب

بقلم: جاك لندن
امريكي (١٨٧٦ ـ ١٩١٦)

وكانت هذه خاتمة المطاف.

كان «سونبكاو» قد قطع درباً طويلاً في المرارة والاهوال. يجن دوماً كحمامة الى العواصم الاوروبية، ولكن الدرب انقطع هنا بغتة، في اقصى مكان من الدنيـا، في امريكا الروسية حيث قبع على الثلج ويداه موثقتان خلف ظهره ينتظر العذاب. وراح يحملق باستغراب امامه ينظر الى قوزاقي هائل الجثة منبطح على الثلج يئن من الالم. كـان الرجـال قد انهوا دورهم في تعـذيبه فـأسلموه الى النسـاء اللواتي برهنت آهـاته وصرخاته على ان شيطانيتهن في التعذيب فاقت شيطانية الرجال.

راح سونبكاو ينظر أمامه ويرتعد. ولم يكن خائفاً من الموت. انه لم يحمل حياته بين يديه طيلة هذا الزمن على هذا الدرب الطويل المضني من وارسو حتى «نيولاتـو» ليرتعد امام الموت. غير انه لم يستسغ العذاب لأنه كان يجرحه في الصميم. والاهانة بحد ذاتها لم تكن ناجمة عن الألم الذي كان عليه ان يتحمله، بل عن المشهد الكئيب الذي سيجعله منه الألم، إذ انه سيضطر الى الاستعطاف والتوسل والخنوع، تماماً كما فعل «ايفان الكبير» والآخرون الذين لاقوا حتفهم قبله. ولم يرق له هذا. ان الطريقة الوحيدة لخلاصه إذن هي ان يموت بشجاعة مع نكتة يرويها وابتسامـة تليها. امـا ان

Twitter: @ketab_n

يفقد السيطرة على نفسه لتضطرب روحه بغصص وآلام الجسد. ويزعق ويولول كقرد ليصبح أشبه بحيوان حقير ـ كان هذا اكثر مما يطيقه.

لم يكن هناك اي أمل في الخلاص. منذ البداية، منذ ان حلم بذلك الحلم اللاهب باستقلال بولندا غدا دمية بين يدي القدر. ومنذ البداية، منذ ان كان في وارسو، وفي بترسبورغ، وفي مناجم سيبيريا، وفي كمشاتكا، وفي قوارب لصوص الفراء العطبة، كان القدر يسوقه الى هذه النهاية. نهاية حفرت له منذ البدء في اسس الكون ـ وهو الذي كان شاباً حالماً وشاعراً وفناناً. لقد حتم له القدر، حتى قبل ان يحلم به، ان يعيش ـ وهو الكتلة المرتعشة في الحساسية ـ عيشة عاتية ملؤها الوحشية الصارخة، وأن يموت في أرض قصية معتمة في هذا الركن المظلم من آخر تخوم الدنيا.

وتنهد. لقد كان الشيء الملقى امامه يدعى «ايفان الكبير» ـ ايفان الكبير المارد. عديم الأعصاب، الذي قد من حديد، القوزاقي النهاب سلاب البحار، الذي كان في بلادة الثور: له جهاز بليد من الاعصاب، بحيث ان ما يؤلم الرجل العادي كان لديه مجرد دغدغة، لا اكثر. لقد ساقه حظه الى الوقوع بين ايدي هنود «نيولاتو» ليقتفوا اثر اعصابه حتى وصلوا الى الجذور من روحه المرتعشة... هذا ما كانوا يقومون به بالتأكيد. لقد كان امراً خارقاً ان يقاسي انسان الى هذه الدرجة، ويعيش! ولذا فقد كان ايفان يدفع ثمن انحطاط اعصابه. ودام احتماله للعذاب اضعاف المدة التي احتملها الآخرون ممن سبقوه.

وشعر سونبكاو بعدم استطاعته تحمل العذاب الذي كان يقاسيه ذلك القوزاقي اكثر من هذا. فلماذا لا يموت ويخلص؟ لا شك انه سيصاب بالجنون اذا لم ينقطع صراخ ذلك المسكين. ولكن اذا ما انقطع صراخه فسيأتي دوره هو، حيث كان «يكاغا» بانتظاره يكشر له عن اسنانه متشوقاً ـ «يكاغا» الذي ألهب وجهه بالسياط وطرده بالركل من الحصن في الاسبوع المنصرم فقط ـ ولا ريب من أن يكاغا كان يهيء له أنواعاً من العذاب مستحدثة تفتت الاعصاب. ولا بد ان ذلك العذاب الذي يصرخ منه ايفان كان نتيجة احدى هذه الطرق في التعذيب. وانقلبت النساء الهنيات اللواتي كن يقمن بالمهمة على ظهورن بكثير من الضحك وهن يصفقن بأيديهن من السرور.. ورأى سونبكاو الجرم البشع الذي اقترفنه فراح يضحك بهستيرية. وامتلك

Twitter: @ketab_n

الحضور العجب من ضحكته، ولكن سونبكاو لم يكن في وسعه التوقف.

وأدرك ان هذا لن يجديه شيئاً. تمالك نفسه فأخذت ارتعاشاته التشنجية تخف تدريجياً. وحاول جاهداً في ان يفكر في اشياء اخرى. فراح يراجع سفر حياته. فتذكر والدته ووالده. ومهره الصغير المرقط واستاذه الفرنسي الذي علمه الرقص وأعطاه خلسة نسخة مهترئة من كتابات فولتير. ومرة أخرى رأى باريس ولندن الكئيبة وفينا المرحة وروما. ثم تصور أمامه تلك الحلقة من الشباب الهوج الذين كانوا يحلمون، مثله، ببولندة مستقلة، وبملك بولندي على العرش في وارسو. آه من تلك الايام! إذ من هناك بدأ الدرب الطويل. وكان هو آخر تلك الزمرة. لان القدر القى على عاتقه عد تلك الارواح الباسلة التي سقطت الواحدة منها تلو الأخرى مبتدئاً بذينك الاثنين اللذين اعدما في سانت بترسبورغ. هنا مات أحدهم من الضرب بيد السجان. وهناك سقط آخر على جانب ذلك الدرب الطويل الملطخ بدماء المنفيين الذين ساروا لشهور لا نهاية لها تساء معاملتهم ويضربون من حرسهم القوزاق. كانت الوحشية مسيطرة: وحشية حيوانية فجة. فمات بعضهم من الحمى ومنهم من لاقى حتفه في المناجم، ومنهم من فارق الحياة تحت السياط. ومات الاثنان الأخيران بعد خلاصهما في معركة ضد القوزاق، وخلص هو وحيداً حيث وصل الى كمشاتكا بأوراق ونقود مسروقة من مسافر تركه بين الثلوج.

وحشية اثر وحشية. طيلة هذه السنين. بينما ذهنه شارد بين الاستديوهات والمسارح وردهات الفنون والمتاحف، احدقت به الوحشية من كل جانب. لقد اشترى حياته بالدم، ولم يتورع عن قتل اي انسان حتى انه قتل ذلك المسافر بغية الحصول على جواز سفره، وبرهن على انه رجل ذو مواهب متعددة بمبارزته ضابطين روسيين في يوم واحد. كان عليه ان يثبت جدارته لكي يأخذ مكانه بين لصوص الفراء ووراءه كل ذلك الدرب الطويل ذي الألف من السنين، الذي امتد عبر مجاهل سيبيريا وروسيا. ولم يكن باستطاعته ان ينجو بحياته من ذلك الطريق الوحيدة لنجاته كانت ممتدة امامه عبر البحر الجليدي المظلم بين مضيق بيرنغ وآلاسكا. والطريق برمته يمتد من وحشية قاسية الى وحشية أقسى. فعلى مراكب لصوص الفراء النخرة المتآكلة الخالية من الطعام والماء والمصفوعة بعواصف لا تنتهي من ذلك البحر العجاج المتلاطم انقلب الرجال الى حيوانات مفترسة. ثلاث مرات أقلعوا من كمشاتكا، محاولين الخلاص،

Twitter: @ketab_n

وثلاث مرات عـاد اليها اولئـك الذين بقـوا على قيـد الحياة ونجـوا من الاهوال التي اعترضت سبيلهم، لم يكن هناك منفـذ آخر للخلاص. ولم يكن بوسعه أن يرجع من نفس الطريق الذي سلكه ايضاً، لأن المناجم ولهب السياط كانت تنتظره.

وأقلع للمرة الرابعة نحو الشرق وكان مع أولئك الذين اكتشفوا جـزر «سيل» الخرافية، ولكنه لم يرجع معهم لكي يقاسمهم ثروة الفراء في ولائم كمشاتكا الخليعة الصـاخبة. لقـد أقسم بأنـه لن يرجع طـلاقاً، إذ كـان يعلم أنـه اذا اراد البلوغ الى العواصم الاوروبية العزيزة، عليه ان يثابر قدماً ولا يلتفت الى الوراء. ولهذا استبدل المركب وبقي في الأرض الجديدة المظلمة. كان رفقاؤه خليطاً من صيادين سلافيـين ومغامرين روسيين ومغول وتتر وسيبيريين بدائيين فشقوا طريقاً دمـوياً في هـذا العالم الجديد من المتوحشين، وأفنوا قرى كاملة بالذبح والتقتيل لرفضهم تقديم جزيتهم من الفراء. ولكنهم بدورهم غدواضحايا شركات البواخر حيث امعنوا فيهم تقتيلاً. فكان هو وفنلندي آخر الوحيدين اللذين خلصا بحياتهما من مذبحة كبيـرة. وامضيا شتـاءً كاملاً في عزلة وجوع على جزيرة صغيرة، ولم تكن نجاتهما فـي الربيـع بواسـطة احد مراكب الفراء إلا اعجوبة نادرة. ولكن الوحشية الفظيعـة ما فتئت تحيط بـه من كل جانب. واذ هو ينتقل من مركب الى مركب، رافضاً دومـاً النكوص عـلى الاعقاب، عثر على مركب وجهته الجنوب. غير ان الساحل الألاسكي بطوله كان يعج بجحافل المتوحشين. فاما الرياح كانت تهددهم بالهلاك وإما كان هـلاكهم على ايـدي هؤلاء البدائيين ذوي الوجوه الملونة بأصباغ الحرب. كانوا يتصدون لهم بزوارقهم ويهاجمونهم زاعقين، وهم في أشد ما يكون من الشوق لتعلم خصائص البارود الدموية، البارود الذي استعمله لصوص البحار. لقد طاردهم سكان مجاهل تخوم الدنيا الملونو الوجود بأصباغ الحرب ودفعوا بهم الى الوراء. وفي النهاية، عندما خلص مركب واحد وقتل جميع الباقين، تخلى الربان عن وجهته وأمر بالاقلاع رجوعاً الى الشمال.

وانقضت السنـــون، وخـدم تحت امــرة تـونبكــوف عنــدمــا ابتنى معقــل ميخائيلوفسكي. هناك رأى القبائل تتجمع للمقايضة بجلود أيائل سيبيريا المرقـطة، والعاج، وجلود أفيال البحر من الشواطىء القطبية، والقناديل الحجرية الغريبة، وهي تمر بطريق التجارة بين قبيلة وقبيلة ولا احد يعلم من أين أتت.

Twitter: @ketab_n

لقد كان عظيماً ذلك الصقع الذي خرج منه هؤلاء المتوحشين. وتعلم سونبكاو التهديد والمداجاة والرشوة، ثم غدا ضابطاً برتبة ملازم تحت إمرة ملاخوف الذي كانت تجري في عروقه دماء روسية، وكان قائداً لشرذمة جهنمية من اشرس المغامرين الخليطين الذين أموا كمشاتكا على الاطلاق. فراحوا يشقون طريقهم عبر متاهات دلتا نهر الكويلياك العظيمة مبتدئين بالتلال المنخفضة على شاطئه الشمالي ثم أخذوا يكافحون وهم في قوارب جلدية مثقلة حتى حفافيها بالذخيرة والسلع التجارية، تيار النهر الجارف حيث كان عرضه يتراوح ما بين ميلين وعشرة اميال وعمق مجراه عدة قامات، واخذ ملاخوف على عاتقه بناء حصن نيولاتو، ولكن العمل فيه كان قسرياً، وجدرانه التي كانت صفوفاً من جذوع الاشجار المقطوعة انتصبت على أنين وتأوهات هنود نيولاتو، فمزقت السياط ظهورهم وارغمهم نهابو البحار على السير في العمل بيد من حديد.

وابتدأت الثلوج بالانحسار قبل انتهاء الحصن. ثم أطل الفصل لتجارة الفراء، فضربت العصابة جزية ثقيلة على القبيلة وساموهم العذاب بضربهم باللكمات وإلهاب ظهورهم بالسياط لارغامهم على دفع الجزية. وأخذوا الاطفال رهائن وعاملوهم بوحشية وبربرية يتقنها لصوص الفراء جيداً.

ومهما يكن من أمر فقد حل اليوم الذي جنوا فيه ثمار ما اراقوه من دماء. هاجمتهم القبائل البربرية وهدموا الحصن، وعلى ضوء احتراقه قتل نصف لصوص الفراء، ونصفهم الآخر وضع تحت العذاب، ولم يبق منهم في آخر الامر سوى سونبكاو وايفان الكبير، هذا اذا كان يجوز اطلاق اسم ايفان الكبير على تلك الكتلة الدموية المنكمشة الملقاة على الثلج وهي تئن، ورأى سوبنكاو «يكاغا» يبتسم له ابتسامة مكشرة ولا يزال أثر السوط بادياً على وجهه. لم يكن بوسع سونبكاو لومه، ولكنه نفر من فكرة ما قد يفعله به يكاغا. وفكر في استعطاف الزعيم الاكبر «مكاموك» ولكن خبرته اكدت له عبث هذا الاسترحام. وفكر ايضاً في قطع وثاقه لكي يموت مناضلاً وتكون نهايته سريعة، ولكن السيور التي اوثقته والتي هي من جلود الوعول كانت اقوى مما تتصور، غير انه لبث يعمل التفكير في استنباط وسيلة ملائمة حتى عنت له فكرة، فراح يومىء نحو الزعيم مكاموك وطلب ترجماناً يعرف اللهجة المحلية وراح يخاطبه:

Twitter: @ketab_n

«ايها الزعيم مكاموك، ليس الموت مقصدي ولا هو في نيتي. انا رجل عظيم، وانه لمن الحماقة أن أنشد الموت. واذا اردت الصدق، فانني لن اموت، انا لست من طينة هؤلاء الجيف.»

قال هذا وألقى نظرة على الكتلة المتحشرجة بالانين والتي كانت تدعى في السابق ايفان الكبير، وحركها بابهام قدمه باحتقار وتابع كلامه:

«اني أعقل من ان انشد الموت. في جعبتي عقار عظيم لا يعرفه احد سواي، وبما انني لست عازماً على الموت فاني على استعداد على المقايضة معك مقابل هذا العقار.»

فقال مكاموك آمراً: «وما هو هذا العقار؟»

قال سونبكاو: «عقار غريب»

وراح يحاور نفسه برهة كمن يصعب عليه البوح بسره. ثم قال: «ساعلمك بمزيته، انك اذا طليت قليلاً منه على الجلد فانه سيغدو صلباً كالصخر، لا بل كالصلب، بحيث ان امضى سلاح لن يقوى على خدشه، ان اقوى ضربة من سلاح قاطع ستغدو هباءً عليه. ماذا تمنحني مقابل البوح بسر هذا الدواء؟»

فاجابه مكاموك بواسطة الترجمان: «اني سأهبك حياتك.»

وضحك سونبكاو باحتقار.

«وستكون عبداً في بيتي حتى تموت.»

وضحك البولندي باحتقار اكثر وقال:

«فك رباط يدي ورجلي اولاً ثم دعنا نتكلم.»

وأعطى الزعيم إشارة، وعندما غدا سونبكاو طليقاً لف لفافة من التبغ وأشعلها. قال مكاموك: «حديث هراء، ليس هناك عقار كهذا ولا يمكن ان يكون. إن الحد القاطع هو اقوى من اي عقار.»

كان الزعيم غير مصدق، ولكنه بعد برهة غدا مزعزع اليقين عندما خطرت بباله الاعمال الشيطانية الكثيرة التي قام بها لصوص الفراء امام ناظريه وكانت كلها

Twitter: @ketab_n

ناجحة. ولذا فلم يكن بوسعه الجزم بصورة مطلقة، واعلن: «سأهبك الحياة، ولن تكون عبداً أيضاً»

«اريد اكثر من هذا.»

لقد لعب سونبكاو لعبته ببرودة كما لو انه كان يقايض على جلد ثعلب، واردف: «انه عقار عظيم جداً. ولقد أنقذ حياتي مراراً عديدة؛ ولذا فاني اريد مقابل هذا مزلجة وكلاباً وستة من صياديك ليتجولوا معي على حافة النهر وتعطيني الأمان ليوم واحد خارج معقل ميخائيلوفسكي.»

فقال مكاموك: «لا بل يجب ان تمكث هنا لنرقب شيطناتك.»

وهز سونبكاو كتفيه وبقي صامتاً. ثم نفث دخان لفافته في الهواء القرير بفعل الصقيع، وراح يتمعن باستغراب بما تبقى من القوزاقي الكبير.

وقال مكاموك بغتة وهو يشير نحو عنق البولندي حيث كانت ندبة بارزة من ضربة سكين كان قد نالها في مشاجرة قام بها في كمشاتكا: «ما هذه الندبة ايها اللص؟ يبدو ان عقارك لم يفدك، وان الحد القاطع كان اقوى منه.»

واجاب سونبكاو ببطء وتمعن: «إن صاحب الضربة كان رجلاً قوياً، اقوى منك، لا بل اقوى من صياديك.»

ومد رجله ومس القوزاقي برأس نعله ـ وكان منظره بشعاً مريعاً وهو فاقد الوعي والشعور ـ ومع ذلك فقد كانت الحياة التي مزقها الألم متعلقة به تأبى الخروج. وتابع:

«وكان العقار ضعيفاً ايضاً، لأن المكان كان خالياً من بعض الأعشاب المعينة والتي اراها تنمو بكثرة في هذه المنطقة. فلا بد ان يكون العقار هنا اكثر قوة وفعالية.»

فقال مكاموك: «حسناً إذن. سآذن لك بالتجوال على حافة النهر. وسأعطيك المزلجة والكلاب والصيادين الستة.»

ولكن سونبكاو اجابه ببرود: «لقد تباطأت بالقبول واهنت عقاري بتلكؤك. ولهذا فاني اطلب المزيد. اني اطلب مئة فروة من فراء القنادس (وابتسم مكاموك

Twitter: @ketab_n

ابتسامة استهزاء لهذا) وكذلك ارغب في مئة رطل من السَمك المجفف (وهز مكاموك برأسه لان السمك المجفف كان وفيراً ورخيصاً.) وعوضاً عن مزلجة واحدة اريد مزلجتين - واحدة لي، والأخرى لفرائي وسمكي. وكذلك يجب اعادة بندقيتي. فاذا كنت لا تقبل بهذا فان طلباتي ستزداد مع كل لحظة تمر.»

وهمس يكاغا شيئاً في أذن الزعيم.

فسأله الزعيم: «ولكن من أين لي ان اعرف ما اذا كان عقارك نافعاً وصحيحاً؟»

«إن هذا الأمر بسيط، اولاً سأذهب بين الاحراش.»

وهمس يكاغا مرة أخرى في اذن مكاموك الذي بدا الشك على محياه.

غير ان سونبكاو تابع قائلاً: «بامكانك ان ترسل عشرين صياداً معي. وكما تعلم، اولاً علي أن آتي بالحبوب والاعشاب والجذور التي سأهيىء منها العقار. وبعدئذ، بعد ان تمنحني المزلجتين وتحملها بالسمك وجلود القنادس، ثم تهبني بندقيتي، وتأمر الصيادين الستة بمواكبتي - عندئذ، عندما يغدو كل شيء جاهزاً، سأطلي عنقي بالعقار، هكذا، وأطرح رأسي على تلك القرمة. وبعد هذا يستطيع أقوى صياديك ان يتناول الفأس ويضرب بها على عنقي ثلاث ضربات. واذا شئت، بوسعك انت ان تضرب الضربات الثلاث.»

فغر مكاموك فاهه دهشة وقد ثمل من هذا الكلام الذي دل ولا شك على ابرع عملية سحرية يقوم بها لص من لصوص الفراء.

ولكن البولندي أضاف بسرعة: «غير أني قبل كل شيء يجب ان أعيد طلاء العقار بين كل ضربة وضربة. فالفأس ثقيلة وحادة، ولا اريد أي خطأ في المسألة.»

وصاح مكاموك بحماس: «لك كل ما تطلب، فباشر بصنع عقارك باسرع ما يمكن.»

وكتم سونبكاو سروره البالغ، ولا غرو فقد كان يقامر مقامرة يائسة، ويجب الا تكون هناك أية هفوة. وتكلم بتكابر وعنجهية: «لقد كنت بطيئاً بالقبول يا مكاموك

Twitter: @ketab_n

فألحقت الاهانة بعقاري. ولكي تمحو هذه الاهانة يجب ان تمنحني ابنتك ايضاً.»
وأشار الى فتاة عليلة حولاء العين لها ناب ناتىء كناب الذئب، فغضب مكاموك، ولكن البولندي مكث رابط الجنان وراح يلف لفافة جديدة من التبغ. وقال كمن يهدد:

«اسرع! انك اذا تباطأت فاني ساطلب المزيد.»

وفي برهة الصمت التي تلت امحى المشهد القطبي الكئيب الموحش من امام ناظريه. ورأى مرة أخرى بعين خياله ارض وطنه متمثلاً امامه، واذ هو يرمق الفتاة ذات الناب تذكر فتاة أخرى، مغنية وراقصة، تعرف عليها في باريس وهو في شرخ الشباب.

وقال مكاموك: «وماذا تريد بالفتاة؟»

فأجاب سونبكاو وهو يتفحص الفتاة بعينيه: «لكي ترافقني في سفرتي على النهر. ولا شك انها ستكون زوجة ممتازة. وانه لشرف عظيم يليق بعقاري ان اتزوج فتاة تجري في عروقها دماؤك.»

وتذكر المغنية الراقصة مرة أخرى، وراح يتمتم بصوت مسموع اغنية كانت قد علمتها اياه وهو يراجع بعين خياله مشاهد ايام حياته الماضية وكأنها صور في كتاب، ولكنه جفل فجأة عندما قطع عليه صوت الزعيم حبل الصمت قائلاً:

«سيكون لك هذا ايضاً. وسترافقك الفتاة على النهر. ولكن ليكن مفهوماً لديك بأنني انا نفسي سأضرب الضربات الثلاث بالفأس على عنقك.»

فأجاب سونبكاو بلهجة كادت تفضح اهتياجه: «ولكن بين كل ضربة وضربة سأطلي العقار ثانية.»

«لك ذلك، وها هم الصيادون الستة الذين سيرافقونك ويحرسونك كي لا تهرب. اذهب الى الغابة واجمع ما حلا لك من الاعشاب.»

وما كاد البولندي وحرسه يختفون بين اشجار التنوب الفضية حتى قال يكاغا بصوت هامس: «ومع كل ذلك، وبعد ان تتعلم سر الدواء، فانك تستطيع القضاء

Twitter: @ketab_n

عليه بسهولة.»

وقال مكاموك يناقشه: «ولكن كيف استطيع القضاء عليه؟ ان دواءه سيحول دون هذا.»

فأجاب يكاغا: «مهما كان الامر فانه سيبقى موضعاً من جسمه لا يلحقه الدواء، فنتمكن من القضاء عليه من ذلك المكان. وقد يكون من اذنيه. نغرز حربة في احداهما لتخرج من الثانية. او لربما نستطيع تنفيذ ذلك من عينيه. ولا بد ان الدواء سيكون حريقاً فلا يستطيع طلاء عينيه به.»

وهز الزعيم رأسه موافقاً وقال: «انك رجل حكيم يا يكاغا، فاذا خلت جعبته من شيطنات أخرى فاننا سنقضي عليه لا محالة.»

ولم يضع سونبكاو وقته سدى في جمع العناصر المتطلبة لدوائه، وانتقى مهما وقعت عليه يداه من اوراق التنوب الفضية الشبيهة بالابر، واللحاء الداخلي من جذوع اشجار الصفصاف. وقطع اخرى من لحاء شجرة البتول، وكمية من الثمار الطحلبية التي أمر الصيادين بان يحفروا الثلج ويستخرجوها من تحته. ثم اكمل مجموعته ببضع عشرات من الجذور المتجمدة وقفل راجعاً الى المخيم.

وقبع مكاموك ويكاغا الى جانبه وهما يرمقان كمية وأنواع العناصر والاعشاب التي اسقطها في قدر ماؤه يغلي. وقال موضحاً: «يجب أخذ الحيطة بوضع ثمار الطحلب اولاً.» وتوقف برهة ثم هتف: «آه، نعم، شيء آخر اصبع رجل. هات يا يكاغا ودعني اقطع اصبعك!»

ولكن يكاغا سحب يداه خلف ظهره وعبس.

وقال سونبكاو وكأنه يرجوه: «اصبعاً صغيراً فقط!»

وقال مكاموك: «يا يكاغا، اعطه اصبعك!»

فقال يكاغا: «هنالك اصابع كثيرة هنا مبعثرة في كل جانب.» واشار الى اصابع الكتل البشرية الممرغة بين الثلج ـ جثث عشرات الأشخاص الذين عذبوا حتى الموت.

Twitter: @ketab_n

ولكن البولندي اعترض قائلاً: «يجب ان يكون الاصبع اصبع انسـان حي.» فقال يكاغا: «انك ستنال اصبعاً حياً لرجل حي.» وخطى نحو القوزاقي وقطع اصبعاً من اصابعه، ثم هتف وهو يقذف بالاصبع الدامي على الثلج امام قدمي البولندي: «انه لم يمت بعد، وهو اصبع ضخم وجيد!»

فاسقطه سونبكاو في النار تحت القدر، ثم راح يغني، وكانت الاغنية اغنية حب فرنسية شرع يغنيها بوقار عظيم فوق السائل الذي كان يغلي، ثم قال موضحاً: «ان العقار بدون هذه الكلمات التي اتلوها عديم الفائدة. فـالكلمات هي اقـوى عنصر فيه. هاكم! لقد غدا جاهزاً.»

وقال مكاموك آمراً: «الفظ الكلمات ببطء لكي اتعلمها.»

فقال سونبكاو: «لن يكون هذا قبل التجربة. وبعدما يتـراجع الفـأس مخذولاً ثلاث مرات عن عنقي. عندئذ سأعلمك سر هذه الكلمات»

وتساءل مكاموك قلقاً: «ولكن ماذا اذا كان الدواء ليس صالحاً؟»

فالتفت اليه سونبكاو بحقد قائلاً: «ان دوائي دائماً صالح، واذا لم يكن صالحاً افعل لي ما فعلت بالآخرين. اقطعني إرباً إرباً كما يحلو لك. فالدواء قد بـرد الآن. فدعني اطلي به عنقي واكرر بعض الكلمات عليه كي يزداد قوة على قوة.»

ثم راح يتلو ببطء ووقار عظيمين بيتاً من النشيد الوطني الفرنسي بينما كان يطلي ذلك السائل الخبيث على عنقه باحكام.

وبغتة انطلقت صرخة داوية قطعت عليه تمثيل روايته، اذ نهض القوزاقي المارد بـدفقة أخيـرة من حيويتـه الهائلة واستـوى راكعاً عـلى ركبتيـه. وعلت الضحكـات والصيحات والتصفيق من الهنود المشاهدين عندما راح ايفان الكبير يقذف بنفسه يميناً وشمالاً على الثلج بانتفاضات قوية هائلة.

فانتاب سونبكاو الغثيان من هذا المشهد المريع، ولكنه امتلك نفسه وبدا عليه وكأنه قد غضب مما حدث وقال:

«ان هذا لن يكون. اجهزوا عليه وبعدئذ سنقـوم بالتجـربة. هيـا يا يكـاغا،

Twitter: @ketab_n

أصمته واقطع عنا هذه الجلبة!»

وفي أثناء تنفيذ ما طلب التفت سونبكاو الى مكاموك وقال: «تذكر، عليك ان تضرب قوياً. ان هذا ليس عمل اطفال. هاك الفأس واضرب به القرمة حتى أراك تضرب كالرجال.»

فضرب مكاموك ضربتين على القرمة بعزم ومضاء، فاقتطع منها قطعة كبيرة.

فقال سونبكاو: «هذا بديع!» ثم راح يجيل الطرف حوله، في الحلقة من الوجوه المتوحشة التي بدت وكأنها تجسد جدار الوحشية الذي أحاط به منذ اللحظة التي ألقى فيها البوليس القيصري القبض عليه في وارسو، ثم صاح قائلاً: «خذ فأسك يا مكاموك وتهيأ، اني سأضطجع، وعندما ارفع بيدي، اضرب، واضرب بكل ما اوتيت من عزم، وخذ الحيطة بألا يقف احد وراءك. العقار جيد، وقد يرتد الفأس عن عنقي ويطير من بين يديك.»

والقى نظرة على المزلجتين وقد شدت الكلاب اليهما وحملت بالفراء والسمك، وبندقيته ملقاة فوق جلود القنادس. وكان الصيادون الستة الذين سيقومون بحراسته واقفين بجانب العربتين، وهتف:

«واين الفتاة؟ جيئوا بها لتصعد فوق العربة وتنتظرني قبل بدء التجربة.»

وعندما نفذ مطلبه اضطجع سونبكاو على الثلج وأراح رأسه على القرمة كطفل ينشد النوم. وفي الحق لقد عاش سنين كئيبة عديدة حتى أصابه السأم والتعب. وقال بتهكم: «اني اسخر منك ومن قوتك يا مكاموك اضرب، واصرب قوياً.»

ورفع يده. ولوح مكاموك الفأس، فأس كبيرة لتقطيع الحطب، والتمع فولاذها البراق عالياً في الهواء القرير المشبع بالصقيع وتوقفت مرفوعة لبرهة ملحوظة فوق رأس مكاموك ثم هوت بعزم على عنق سونبكاو العاري. فحزت اللحم وبرت العظم وغارت بعيداً في اعماق القرمة. واندهل المتوحشون عندما رأوا الرأس يقفز متدحرجاً مسافة ذراع عن الجذع المتدفق بالدماء.

وساد بين القوم صمت وحيرة عظيمان. ثم أخذت الحقيقة تنكشف لعقولهم

Twitter: @ketab_n

شيئاً فشيئاً، فعلموا انه لم يكن هناك عقار ولا اي شيء من هذا القبيل. لقد فاقهم البولندي دهاء وسخر منهم. فكان الوحيد الذي نجا من التعذيب من بين السجناء. لقد كانت تلك خطة نفذها باحكام.

وانطلقت فرقعات عظيمة من الضحكات في الهواء، وطأطأ مكاموك رأسه من الخجل والعار: لقد هزىء بـه لص الفراء حيـاً، وافقده سمعتـه وهيبته الى الأبـد، وجعل منه اضحوكة بين بني قومه بعد ان اقدم على قطع رأسه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سبات بين الثلوج

بقلم: جاك لندن
امريكي (١٨٧٦ - ١٩١٦)

طلع النهار شديد البرد قارساً وسار الرجل صاعداً مرتفعاً ترابياً عالياً. حيث كان الدرب الطويل بين شجيرات التنوب الفضية ينساب بوضوح نحو المشرق. ألقى الرجل خلفه نظرة على الطريق من حيث اتى. ورأى نهر اليوكون العريض وقد امتد مختفياً تحت ثلاث أقدام من الجليد. وفوق هذا الجليد تراكمت ثلاث أقدام أخرى من الثلوج. كان كل شيء حوله أبيض من الشمال والجنوب حتى نهاية امتداد بصره. وبدأ الدرب كخيط دقيق داكن يلتوي وينحني حول جزيرة من شجيرات التنوب الفضية نحو الجنوب، وطرفه الثاني يلتوي ويتيه في الشمال ويختفي وراء جزيرة اخرى من أشجار التنوب. كان هذا الدرب، الدرب الرئيسي الذي يؤدي بعد خمسمئة ميل الى ممر شيلكوت والمياه المالحة، ويؤدي شمالاً بعد سبعين ميلاً إلى دوسون، وألف ميل إلى نيولاتو، واخيراً الى سان ميشيل على بحر بهرنغ على بعد ألف وخمسمئة ميل. ولكن هذا الدرب الغامض الرفيع الطويل، واحتجاب الشمس عن السماء، والبرد الهائل القارس - كل هذا لم يحدث في نفس الرجل أي أثر. ولا عزو، فقد كان من قبيلة الشيشاكو، وهو غريب في هذه المنطقة. وعيبه انه عديم الخيال. ومع انه كان نبيهاً ويقظاً في شؤون الحياة، فانه لم يكن كذلك في مغازيها وخطورتها. فخمسون

Twitter: @ketab_n

درجة تحت الصفر تعني خمسين درجة من الصقيع، ولكن حقيقة كهذه انما تعني مجرد برد لا يبعث على الراحة يستوجب الوقاية منه باستعمال القفازات لليدين والغطاء للأذنين والجوارب واللفافات للرجلين والساقين.

وعندما هم الرجل بمتابعة سيره بصق وهو تائه الفكر، فحدثت فرقعة حادة اجفلته، وبصق ثانية فتفرقع اللعاب في الهواء مرة أخرى قبل ان يقع على الثلج. كان يعلم ان البرودة عندما تكون درجتها خمسين تحت الصفر يتفرقع اللعاب على الثلج ولكن لعابه تفرقع في الهواء.

لا ريب ان الدرجة كانت أكثر انخفاضاً من ذلك بكثير. لم يكن ذلك بذي اهمية لديه، بل كان جل اهتمامه منصباً على لقاء صحبه الذين كان على موعد معهم عند المفرق الشمالي من خليج هندرسن إذ وصلوا هناك عبر الخط الفاصل في نهر اليوكون، بينما سلك هو كل هذه الطريق الملتفة الطويلة لكي يلقي نظرة على الامكانيات التي يستطيع بها الحصول على الحطب في/ الربيع من الجزر الواقعة في نهر اليوكون. انه سيصل المخيم بعد السادسة مساءً بعد أن يحل الظلام بقليل حيث الصحب والنيران المتوقدة والطعام الساخن الحار. وضغط بيده على صرة نافرة تحت معطفه، صرة ملفوفة بمنديل حشاها تحت قميصه على جلده، وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة لحفظ «البقصم» من التجمد الى أن يحين موعد تناوله عند الغداء.

توغل الرجل بين اشجار التنوب الكبيرة. وكان الدرب يكاد لا يرى بعد أن ارتفعت الثلوج قدماً أخرى منذ ان مرت آخر مزلجة عليه. غير أنه كان مستغرباً من شدة البرد كما كان الحال مع كلبه القوي الشرس، الذي يسير جنباً في أعقابه منقبضاً من وطأته القارسة. لقد انبأته غريزته بأن الوقت لم يكن وقت ترحال، وخصوصاً إذا بلغت البرودة خمساً وسبعين درجة تحت الصفر وحصيلتها مئة وسبع درجات من الجليد. وكانت الرطوبة المتجمدة من لهاثه قد استقرت على فرائه كدقيق ناعم من الصقيع، وابيض لحاه وخطمه وجفناه بفعل نفسه المتجمد. وكان شارباه ولحيته الحمراء قد تجمدت ايضاً ولكن بصلابة اكثر، وأصبحت كتلة من الجليد تنمو مع كل نفس حار رطب ينفثه. وكان يلوك تبغاً أيضاً ولكن الكمامة الجليدية أطبقت على شفتيه، فلم تمكنه من بصق لعابه جيداً فغدا يسيل على جانبي فمه حتى أصبحت له

Twitter: @ketab_n

لحية من الجليد بلون وصلابة الكهرمان تنمو وتطول بالتدريج.

تابع الرجل سيره في سهل منبسط من الأحـراج لعدة أميـال. ثم نزل المـرتفع الترابي الى حوض جدول صغير متجمد. وكان هذا خليج هندرسن. فعرف انه يبعد الآن عشرة اميال عن مكان تشعب الخليج وألقى نظرة على ساعته فرآها العاشرة. ولما كان يقطع أربعة أميال في الساعة أدرك أنه سيصل الى المكان الذي يتشعب منه الخليج في الثانية عشرة والنصف. فعزم على أن يحتفل بالحادث بتناوله غـذاءه هناك. ومهـما يكن من أمر فان فكرة واحدة ما فتئت تتردد في ذهنه. وذلك ان البرد شديـد وانه لم يختبر برداً قارساً كهذا من قبل. فراح بين حين وحين يدلك عظام وجنتيه وأنفه بظاهر يده المقفزة. ثم أخذ يقوم بهذه العملية بيديه الاثنتـين بالتنـاوب وبحركـة آلية، وفي اللحظة التي يتوقف فيها كان الخدر يدب فيهـا وأيقن انها ستشل من الصقيـع. ومع ذلك فإنه لم يأبه لذلـك كثيراً. نعم، انـه امر مؤلم ولا ريب، ولكنـه ليس على تلك الدرجة من الخطورة.

كان الرجل يعلم أن الخليج متجمد حتى قعره، ويعلم أيضاً أن هناك عيوناً تنبع من جوانب التلال وتشق طريقها تحت الثلوج وفوق الجليد. إن اشد حالات البرودة لم تكن لتجمد هذه العيون. ويدرك أي خطر يكمن فيها. لقد كانت فخاخاً تخفي بركاً من الماء تحت الثلج يتراوح ارتفاعه ما بين ثلاث بوصات وثلاث أقدام. وأحياناً كانت هذه البرك تختفي تحت قشرة رقيقة من الجليـد مغطاة بـالثلج. وأحيانـاً كانت هنـاك طبقات متعاقبة من الماء والقشرة الجليدية يظل المنـزلق فيها يغـور ويغور ويبتـل حتى خاصرتيه. وصادف الرجل إحدى هذه الحفر المائيـة فانثنى عنهـا في اللحظة الأخيـرة هلعاً. لقد أحس بالانهيار تحت رجليه وسمع صوت تكسر الطبقة الجليـدية الـرقيقة المحجوبة بالثلج. كان يعلم أن في بلل قدميه في طقس كهذا خطراً جسيماً. وانه يعني على الأقل التأخير، والاضطرار للتوقف، وإشعال النار، وتعـرية قـدميه لكي يجفف جوربيه ولفائف ساقيه.

وصادف الرجل في غضون السـاعتين التاليتين العديد من الفخاخ. فالثلج على هذه البرك الخفية عادة له مظهر منخفض صريح ينبيء بالخطر. ومرة شك في احدى هذه الحفرَ المائية فأرغم كلبه على السير أمامه. ولم يشأ الكلب السير فدفعه الرجل قسراً

Twitter: @ketab_n

فعدا الكلب مسرعاً على الموقع الأبيض الأملس، ثم هوى فجأة وتخبط على جانب ثم خلص الى موطىء ثابت بعد أن بلل مخلبيه وساقيه الاماميتين. ولكن سرعان ما تحول الماء العالق بهما الى جليد. فراح يجهد نفسه بلعقه عن ساقيه بسرعة ثم ارتمى على الثلج وأخذ يعض الماء الذي تجمد بين براثنه يخرجه منها. وأدرك الرجل أي خطر يتعرض له الكلب إذا ما بقيت تلك الشظايا الجليدية بين براثنه، فنزع قفاز يده اليمنى وساعده في ذلك. لم يعرض أصابعه لأكثر من دقيقة واحدة، ودهش لسرعة الخذر الذي دب فيها! لا شك أن هذا كان برداً غير عادي. وأدخل يده في القفاز بسرعة وراح يخبطها بشراسة على صدره.

وصل الرجل الى موقع تشعب الخليج في الثانية عشرة والنصف تماماً. وسر للسرعة التي وصل فيها هناك، وإذا ما واظب عليها، فلا شك في انه سيلحق بصحبه في الساعة السادسة مساءً. وفك أزرار معطفه وقميصه وأخرج الصرة التي تحتوي على غدائه. ومع ان العملية لم تستغرق أكثر من ربع دقيقة. فان الخذر اطبق على اصابعه المكشوفة. وعوضاً عن أن يلبس قفازه ضرب بأصابعه عدة ضربات شديدة على ساقه، ثم جلس على قرمة مغطاة بالثلج ليأكل. ان الحرارة التي يبعثها ضرب أصابعه بساقه اضمحلت بسرعة أفزعته. ولم يسعفه حظه بتناول قضمة واحدة من البقصم. فضرب اصابعه ضربات متتالية على ساقه وأدخلها في القفاز ثم نزع قفاز يده الأخرى لكي يستطيع الأكل بها. وحاول ان يقضم قضمة مرة أخرى ولكن كمامة الجليد منعته عن ذلك. لقد نسي أن يوقد ناراً ويذيب الجليد. وضحك من حماقته. وبينما هو في هذا الحال شعر بالتيبس الذي أخذ يدب في أصابعه المكشوفة. وشعر ايضاً بأن الحرارة التي كانت سارية في أصابع قدميه عندما جلس ليأكل قد أخذت بالتلاشي.

لبس قفازه مرة أخرى بسرعة ونهض. وجزع قليلاً. وراح يخبط برجليه على الأرض الى ان عادت الحرارة اليهما. وقال ان البرد شديد ولا ريب. ثم راح يخطو خطوات واسعة ويخبط الأرض بقدميه ويحرك ذراعيه الى أن عاودته الطمأنينة برجوع الحرارة الى كيانه ثم أخرج ثقاباً وأوقد ناراً من عساليج جمعها من الفسائل النابتة تحت الأشجار، واذاب الجليد عن وجهه امام وهجها ثم أكل ما لديه من بقصم في حماها.

ولما أتم الرجل أكله عبأ غليونه وراح يدخن متمهلاً مطمئناً. ثم لبس قفازيه

Twitter: @ketab_n

وأحكم الغطاء على أذنيه وسدد خطاه على الدرب نحو الشمال. أما الكلب فقد خاب أمله وحن للرجوع الى النار. ولا عجب، فقد كان الوقت وقت الانزواء والنوم في حفرة تحت الثلج والانتظار حتى ينتشر ستار من الغيوم على وجه الفضاء الخارجي الذي هبط منه هذاآلبرد.

وقذف الرجل بكمية من التبغ في فمه يلوكها، وتهيأ لأن تنمو له لحية جديدة بلون الكهرمان. وسرعان ما تحولت انفاسه الرطبة الى جليد أبيض منه شارباه وحاجباه وجفناه. وبدا له انه لم تكن هنالك عيون كثيرة تعترض سبيله. وانقضت فترة نصف ساعة لم ير في اثنائها أي اثر لها. وبعدئذ حدث ما كان يخشاه. وسقط في حفرة مائية غير بادية للعيان، حيث كان سطح الثلج ناعماً أملس فظنه صلباً. . لم تكن الحفرة عميقة ولكنه بلل نفسه فيها حتى ركبتيه! وغضب لذلك ولعن حظه العاثر. لقد امل في ان يلحق بصحبه في السادسة مساءً، وهذا سيعيقه ساعة من الزمن على الأقل، لأن عليه أن يشغل ناراً ويجفف جوربيه ولفائف ساقيه ولا مناص من ذلك. فصعد المرتفع الترابي وجمع من بين جذوع شجيرات التنوب رواسب من العساليج المتبقية من فيضان السنة المنصرمة، وجمع كذلك كمية من الأغصان والاعشاب الجافة وطرح القطع الكبيرة منها على صفحة الثلج لتكون قاعدة للنار وتمنع انطفاءها عند بدء التهابها . اما النار فقد حصل عليها باشعال قطعة من لحاء «البتولا» التي اخرجها من جيبه والتي اشتعلت باسرع من اشتعال الورق. ثم راح يغذيها بالأعشاب الجافة والعيدان الصغيرة. وعمل ببطء وحذر وهو شاعر بفداحة الخطر الذي هو فيه، وعندما قوي اشتعال النار تدريجياً زاد من كمية العساليج يغذيها بها. جثم على الثلج وانهمك بقطع العساليج من الشجيرات وراح يلقي بها في النار اولاً باول. كان يعلم انه يجب ألا يكون هناك سبيل للفشل عندما تكون درجة الطقس خمساً وسبعين تحت الصفر، ورجلاه مبللتان. فلو كانت قدماه جافتين لاستطاع ان يعدو مسافة نصف ميل ويستعيد دورته الدموية. ولكن الدورة الدموية يستحيل ارجاعها الى قدمين مبللتين بالعدو وفي طقس درجته خمس وسبعون تحت الصفر. مهما ركض فان قدميه المبتلتين ستتجمدان وتتصلبان اكثر فأكثر.

ومهما يكن من امر فانه بعملية إقامة الموقد واشعال النار اضطر الى نزع قفازيه، فتخدرت أصابعه من جراء ذلك وتيبست. لقد كان في أثناء سيره يواظب على قطع

Twitter: @ketab_n

اربعة اميال في الساعة، فكان قلبه يضخ الدم حاراً في كيانه ولكنه وقد توقف الآن هبطت عملية الضخ وفترت. وضرب البرد بحدته قمة الكوكب المكشوفة، وهو، بوجوده على تلك القمة المكشوفة تلقى ثقل الضربة بكاملها، وانتكس دمه أمامها، وكما كان كلبه حياً كذلك كان دمه، وكالكلب أراد ان يختبىء ويقي نفسه من البرد المخيف، وتجمدت قدماه بسرعة اكثر، وتخدرت اصابعه المكشوفة ولو انها لم تتجمد بعد ولكن انفه وخديه كانت قد تجمدت فعلاً بينما استحوذت القشعريرة على جسده بأكمله.

كان الرجل لا يزال مطمئناً لأن النار ازدادت قوة، وهو يطعمها اغصاناً بسمك اصابعه، وفي لحظات سيتمكن من اطعامها باغصان بسمك معصمه. وبعدئذ سيكون في وسعه نزع لفائف ساقيه وجوربيه وفي اثناء تجفيفها سيدفىء رجليه العاريتين امام النار، وهذا طبعاً بعد ان يفركهما بالثلج. كان متفائلاً، ولكن سرعان ما تملكه الاستغراب على السرعة التي كانت وجنتاه وأنفه تتجمد، ولم يكن ليظن بان اصابعه ستصبح عديمة الحياة بهذه السرعة. لقد كانت عديمة الحياة فعلاً لأنه كاد لا يستطيع تحريكها لتمسك بعسلوج واحد، واضحت وكأنها منفصلة عن جسده.

بدا كل هذا وكأن لا وزن له. وها النار يشتد توقدها ويتطاير الشرر منها ولهبها المتراقص يعد بالحياة. وشرع بفك لفائف ساقيه ونزع خفيه اللذين كانا مكسوين بالجليد. كان الجوربان السميكان كغمدين حديدين وصلا حتى ركبتيه. اما اللفائف التي كانت من جلد الأيل فقد اصبحت كقضبان فولاذية ملوية ومعقدة. وراح لبرهة يعالجها باصابعه المخدرة، ولكنه ما لبث حتى تأكد من حماقة ما يفعل، وسحب سكينه المغمدة. ولكنه قبل ان يقطع السيور حلت الكارثة، وكان الذنب ذنبه أو بالأحرى غلطته. كان عليه ألا يشعل النار تحت شجرة التنوب، بل كان عليه ان يشعلها في العراء، ولكنه فعل ذلك توخياً للسهولة والسرعة في قطع العساليج وإلقائها في النار مباشرة، غير ان الشجرة التي أوقد النار تحتها كانت أغصانها محملة بوفر ثقيل من الثلج. وكان كلما قصم غصناً يشيع اهتزازاً غير ملحوظ في الشجرة، ولكنه كاف لاحلال الكارثة، واخيراً، وبعد اهتزازات خفية متتالية انزلق حمل الثلج عن اعلى غصن فيها وسقط على الأغصان التي تحته. فاندلق حملها! واستمرت هذه العملية حتى

Twitter: @ketab_n

عمت الشجرة بأكملها وانهارت دون انذار على الرجل والنار، وطمست النار ولم يبق مكانها سوى كومة من الثلج.

صدم الرجل وشعر كمن حكم عليه بالموت. فجلس لبرهة يحملق في المكان الذي كانت فيه النار. وتملكه هدوء عظيم، وأدرك ان عليه ان يوقد ناراً اخرى وعليه ألا يخفق هذه المرة. وراح في الحال يعمل موقداً جديداً ولكن في العراء هذه المرة، حيث لا تتمكن شجرة غادرة من اطفائها. فانهمك في جمع الاعشاب الجافة والعساليج الصغيرة، ولم يكن ليستطيع ضم اصابعه الى بعضها ليتمكن من استعمالها. فجمع ما استطاع جمعه من العساليج النخرة والطحالب الخضراء غير الصالحة باستعماله كفيه مجتمعتين. وعمل بصبر وأناة الى ان جمع كمية من الاغصان الكبيرة نوعاً، ليغذي النار بها بعد احتدامها. وكان كلبه طيلة الوقت يرقبه مقعياً وعيناه شاردتان بحنو غريب.

وعندما اصبح كل شيء جاهزاً وضع يده في جيبه يبغي قطعة من لحاء البتولا. كان يعلم انها موجودة في جيبه. ومع انه لم يستطع ان يلمسها باصابعه، فقد سمع خشخشتها وهو يبحث عنها. وافرغ كل جهده للامساك بها ولكن عبثاً كانت محاولته. وكان يعي ان كل لحظة تمر تتجمد قدماه فيها اكثر فأكثر. وكانت هذه الفكرة تلقي الرعب في قلبه ولكنه قاومها بكل عزمه واحتفظ بهدوئه . ولبس قفازيه مستعملاً اسنانه ثم حرك ذراعيه وضرب بيديه على جنبيه بكل ما أوتي من عزم. فعل كل هذا والكلب مقع على الثلج ينظر إليه وأذناه منتصبتان. وفيما كان الرجل يقوم بحركاته هذه داخلته موجة عظيمة من الحسد عندما رأى الحيوان دافئاً مطمئناً في فرائه. . .

شعر الرجل بعد وقت قصير باول الاشارات الى عودة الاحساس في اصابعه المشلولة، ثم قوي هذا الاحساس حتى غدا ألماً لاذعاً. فاغتبط الرجل ونزع قفاز يده اليمنى واخرج اللحاء من جيبه، ولكن سرعان ما تخدرت اصابعه المكشوفة مرة أخرى غير انه تمكن من ان يخرج رزمة عيدان الثقاب ايضاً ولو ان البرد الهائل طرد الحياة من اصابعه بعد ذلك. وعندما حاول ان ينزع واحداً من عيدان الثقاب من الرزمة سقطت كلها على الثلج. وصب جهده على ان يلتقطها من الثلج ولكنه لم يفلح فأصابعه الميتة لم تنثن، ثم غدا حريصاً جداً وطرد فكرة تجمد قدميه وأنفه ووجنتيه من رأسه وكرس كل عنايته لعيدان الثقاب، وأخذ يرقب، مستعملاً حاسة النظر مكان حاسة اللمس،

Twitter: @ketab_n

وعندما رأى اصابعه على جانبي الرزمة حاول ان يطبقها عليها ولكنها لم تطعه، ثم ألبس القفاز على يده اليمنى وراح يخبطها بشراسة على ركبتيه وبعدئذ غرف الرزمة بكلتا يديه المقفزتين، غارفاً معها كمية من الثلج، ووضعها في حضنه. ولكن الموقف لم يتحسن.

وبعد جهد هائل استطاع ان يمسك رزمة العيدان برسغيه، وهكذا اوصلها الى فمه. وتشقق الجليد وتصدع عندما فتح فمه بمجهود عنيف ومر بأسنانه على الرزمة يريد فصل احد العيدان عنها. ونجح في التقاط عود واحد ولكنه سقط في حضنه. ولم يصبح احسن حالاً، ولم يتمكن من التقاطه، ثم استنبط وسيلة جديدة. التقطه باسنانه وفركه على ساقه. فعل ذلك عشرين مرة حتى نجح في اشعاله. وعندما اشتعل دفع به الى اللحاء، ولكن الكبريت المحترق دخل في منخريه ورئتيه مما جعله يسعل سعالاً حاداً. فسقط عود الثقاب على الارض وانطفأ. وضرب يديه ببعضهما ولكنه فشل في إثارة اي احساس فيهما. وبغتة نزع قفازيه باسنانه وامسك برزمة الثقاب برسغيه، ولما كانت عضلات ذراعيه سليمة من الانجماد مكنته من ضغط رسغيه باحكام عليها. وفرك الرزمة بأكملها على ساقه، فتوهج سبعون عوداً من الثقاب في شعلة واحدة. واحتفظ برأسه جانباً ليقي نفسه من الغاز الخانق، ودفع بالشعلة الى اللحاء يشعله بها، وإذ هو في هذه الحال شعر باحساس في يده. كان لحمه يحترق، واستطاع ان يشم الرائحة. وتطور الاحساس الى ألم وغدا وجعاً. ومع كل هذا فقد تحمله وهو ممسك بعيدان الثقاب بشكل أخرق ليشعل اللحاء الذي لم يكن ليشتعل لأن رسغيه ويديه المحترقتين كانت حائلاً بين اللهيب واللحاء.

وعندما غدا في نهاية الأمر لا يستطيع تحمل الألم فصل يديه عن بعضهما فسقطت العيدان المشتعلة بين الثلج ولكن اللحاء كان قد اشتعل، فراح يلقي بالاعشاب الجافة برسغيه. فكانت الطحالب الخضراء والقطع العفنة من العساليج تتعلق بما يلتقطه فكان يزيلها باسنانه ما استطاع الى ذلك سبيلاً. وصب على الشعلة كل اهتمامه لأنها كانت بمثابة الحياة منه، ويجب ان لا تنطفىء. غير ان انكماش دمه جعله الآن يرتعش وغدا يتصرف بخرق اكثر من ذي قبل. وعندما سقطت قطعة كبيرة من الطحلب الأخضر على كومة النار الصغيرة وحاول ان يزيلها بأصابعه دفع كيانه المرتعش بأصابعه الى قلب النار وبحركة خرقاء فرط عقدها، وتشتت العساليج

Twitter: @ketab_n

وتبعثرت. وحاول أن يجمعهـا ولكن بالـرغم من جهده العنيف فـإن ارتعاشـه شتتها بصورة مؤسفة. فتصاعد الدخان منها ثم انطفأت. وأجال طرفه حـوله وقلبـه يتفطر حزناً وألماً، فوقعت عيناه على الكلب وهو مقع على الثلج في الناحية الأخرى من كومة النار المبعثرة يقوم بحركات قلقة برجليه الأماميتين، ناقلاً ثقله من احداهما الى الاخرى وينظر اليه بشوق وحنان. وحالما وقعت عينا الرجـل على الكلب استبـدت فيه فكـرة هوجاء وتذكر حكاية ذلك الرجل الذي وقع في براثن عاصفة ثلجية فقتل عجلاً ودخل في احشائه ونجا. فعزم على قتل الكلب ودفن يديه المتيبستين في جسده الحار الى أن يزول الخدر منهما. وسيتمكن بعدئـذ من اشعال نـار أخرى، ونـادى الكلب. ولكن نداءه كان مشوباً بنغمة غريبة من الخوف أفزعت الحيوان وجعلته يتنسم الخطر، فلم يحرك ساكناً. ونهض الرجل على يـديه وركبتيـه وزحف نحو الكلب. فـأثار تصـرف الرجل على هذا الحال شكوك الكلب فأخذ يتهرب منه بلطف مفتعل.

جثم الرجل على الثلج وسعى جهده للاحتفاظ بهدوئه. ثم لبس قفازيه بأسنانه ونهض على قدميه. وراح ينظر الى الأرض ليتـأكد من وقـوفه لأن فقـدان الاحساس بقدميه جعله منفصلاً عن الأرض. غير ان هيأته المنتصبـة طردت خيـوط الشك من ذهن الكلب وعندما تكلم الرجل بصورة آمرة وخرج الكلام من فمه كفرقعة السوط أبدى الكلب طاعته واخلاصه وتقدم نحوه. وعندما غدا على مسافة قريبـة منه فقـد الـرجل زمـام نفسه ومـد ذراعيه بسـرعة البـرق وأطبقهما عـلى الكلب. ودهش أشد الدهشة عندما اكتشف بأن يديه لا تستطيعان القبض عليه وان اصابعه لا احسـاس فيها ولا حياة. وكان قد غرب عن باله أنها متجمدة. لقد فعل هذا بسرعة وقبل ان يتمكن الحيوان من الافلات. طوق جسمه بذراعيه ثم جلس على الثلج. وبقي على هذه الحال ممسكاً بالكلب الذي ظل يعوي ويئن ويحاول الافلات من بين ذراعيه.

كـان ذاك كل مـا استطاع الـرجل فعله. أمسـك بالكلب بـين ذراعيـه وبقي جالساً. وتحقق من أنه لن يستطيع قتل الكلب. ولم تكن هناك طريقـة لذلـك انه لم يستطع حتى سحب سكينه المغمدة ولا أن يخنق الحيوان أيضاً بيديـه عديمتي الحيـاة. وأخيراً أفلت الكلب، فراح يعدو بعيداً وذيله بين رجليه، وتـوقف على بعـد اربعين قدماً ثم أخذ يتفحص الرجل باستغراب واذناه منتصبتان.

Twitter: @ketab_n

القى الرجل نظرة على يديه الاثنتين ليتأكد ما اذا كانتا لا تزالان في موضعهما. فرأهما معلقتين بطرفي ساعديه. ثم شرع في تحريك ذراعيه في كل ناحية وضرب يديه المقفزتين على جنبيه. فعل هذا بعنف لخمس دقائق فضخ قلبه الدم كافياً في جسمه الى ان أوقف رجفته. ولكنه لم يشعر أي احساس في يديه. فكان انطباعه عنهما انهما حجران ثقيلان في طرفي ذراعيه.

وبغتة سرى في كيانه خوف من الموت. خوف بطيء معذب. وغدا هذا الخوف مؤلماً حاداً عندما تحقق بأن المسألة لم تعد مسألة تجمد اصابع يديه او قدميه، أو فقدانهما، بل اضحت مسألة حياة او موت والخطر يناصبه العداء. وهلع لهذا هلعاً شديداً، وفجأة راح يعدو صاعداً حوض الخليج سالكاً الدرب القديم الباهت المعالم. راح يعدو بغباء دون تبصر، وقد تملكه رعب لم يعرفه طيلة حياته. وكان كلبه يعدو وراءه أيضاً. وفيما هو يتخبط بين الثلوج أخذ يرى الاشياء ثانية شيئاً فشيئاً، رأى ضفتي الخليج، والاحراج المزدحمة، وأشجار الحور العارية والسماء. لقد جعله الركض يشعر بتحسن ولم يعد يرتجف. واذا ما ظل يعدو، من يدري، قد يذوب الصقيع عن قدميه، وإذا ما ركض ما فيه الكفاية فقد يصل المخيم والاصحاب. ومما لا شك فيه انه سيخسر بعض اصابعه وجزءاً من وجهه ولكن الاصدقاء سيعتنون به وينقذون ما يتبقى منه. وفي الوقت نفسه جعلت فكرة اخرى تدور في ذهنه وتوحي له بأنه لن يصل المخيم والاصحاب أبداً. هنالك اميال عديدة بينهما، وهذا التجمد قد استحوذ عليه ولسوف يتصلب قريباً ويموت، ولكنه دفع بهذه الفكرة الى خلفية ذهنه ورفض ان يتمعن فيها. غير انها كانت تدفع بنفسها الى الامام وتطالبه بالاستماع اليها، وهو يلقي بها بدوره الى الوراء. وكافح ليفكر في اشياء أخرى. ثم شرع يفكر مستغرباً كيف يستطيع الركض على قدميه المتجمدتين اللتين لم يكن يشعر بهما عندما تمسان الارض. وبدا له كأنه يطفو على وجه الارض وان لا اتصال هناك بينه وبينها.

لا ريب ان فكرته عن الركض حتى يصل المخيم والاصحاب كانت فكرة لا بأس بها، ولكن كان يعيبها شيء واحد: كانت تعوزه قوة الثبات والاستمرار. لقد تعثر في ركضه عدة مرات، وفي المرة الاخيرة ترنح وتثنى وسقط. وعندما حاول ان ينهض خاب سعيه. وصمم على الجلوس والاستراحة ليتابع سيره في المرة القادمة سيراً عادياً. وعندما جلس واستعاد هدوءه لاحظ بأنه يشعر بالدفء والراحة. ولم يكن

Twitter: @ketab_n

يرتجف حتى بدا له ان دفقاً من الحرارة قد شاع في صدره وجذعه. ومع ذلك عندما مس أنفه وخديه لم يكن هناك اي احساس فيهما. والركض لن يفيدها بشيء. ثم هاجمته فكرة بأن اجزاء اخرى من جسمه قد اخذت تتجمد وحاول أن يقضي عليها وينساها بالتفكير في شيء آخر. كان واعياً بالاحساس المخيف الذي سببته هذه الفكرة. كان خائفاً من الخوف ولكن الفكرة اكدت نفسها بعناد حتى جعلته يتصور أن جسمه قد تجمد كله. وكان هذا كثيراً عليه. فراح يعدو كالمخبول على الدرب الطويل. ولما أراد ان يبطىء في ركضته عاودته فكرة التجمد فجعلته يمعن في الركض اكثر من ذي قبل.

كان الكلب طيلة الوقت يركض في اعقاب الرجل. وعندما سقط للمرة الثانية لوى الكلب ذيله على رجليه الاماميتين وأقعى امامه متلهفاً بحذر. دفء الحيوان اغضب الرجل، وسرت القشعريرة في جسمه أكثر من ذي قبل. وبدأ يخسر المعركة مع الصقيع الذي جعل يدب في جسده من كل جانب. ان مجرد التفكير فيه ليحثه على الركض، ولكنه لم يركض اكثر من مئة قدم عندما ترنح الى الامام وسقط على وجهه. وكان ذلك آخر خوف له، وعندما استعاد انفاسه وسيطرته على نفسه، استوى جالساً وخامرته الفكرة بأنه سيجابه الموت بشمم. ومهما يكن فإن الفكرة لم تخطر له بهذه الصورة بل اوحت له أنه بتصرفه هذا انما يجعل اضحوكة من نفسه. يعدو ويتخبط كعصفور مذبوح. وإذا كان قد قدر له أن يموت متجمداً فمن الأفضل أن يجابه الموت بلياقة. وبحلول هذه الطمأنينة الجديدة في نفسه تملكته اول بوادر الخمول والوسن. وفكر انه لجميل ان ينام نومة يغرق فيها حتى يموت. لقد كان الامر كمن يتناول مخدراً. والتجمد لم يكن رديئاً الى تلك الدرجة التي يظنها الناس. ولا ريب ان هناك طرقاً أخرى للموت اردأ من هذا بكثير.

وتصور بأن الاصحاب قد وجدوا جثمانه في اليوم التالي. وبغتة وجد نفسه معهم، آتين على الدرب الطويل يفتشون عنه. وعندما داروا حول منعطف على الدرب، وهو لا زال معهم، وجدوه، كما وجد هو نفسه، ملقى بين الثلوج. انه لم يعد يمت الى نفسه بصلة. لانه عندئذ كان منفصلاً عن نفسه، واقفاً مع الصحب ينظر الى نفسه بين الثلوج. وفكر: ان البرد شديد قارس، وعندما يعود إلى البيت سيخبر اصدقاءه عن شدة برودته.

Twitter: @ketab_n

وبعدئذ استولى عليه سبات بدا له امتع نـوم عرفه في حياتـه. ووقف الكلب تجاهه ينتظر. وقارب اليوم القصير على الغروب في أطول وابطأ غسق عرفه. ولم تكن هناك دلائل تشير الى قرب تهيئة نار، وعلاوة على هذا لم يمر في اختبار الكلب اطلاقاً ان عرف رجلاً يجلس هكذا على الثلج ولا يوقد ناراً. وعندمـا طال الغسق سيـطر عليه شوق شديد الى النار فراح يحرك قدميه الاماميتين ويتململ ويعوي ويعول برفق. ثم ارخى اذنيه وهو يتوقع ان يوبخه الرجل. ولكن الرجل بقي صامتاً. وبعد برهة اخذ يعوي بصوت عال. ثم اقترب من الرجل فشم رائحة الموت. فانتصب شعر الحيوان لهذا وتراجع. وراح يعوي تحت النجوم التي كانت تتراقص وتقفز وتتلألأ في السماء الباردة، ثم استدار، وراح يعدو على الدرب الطويل المؤدي الى المخيم والاصحاب، والطعام والنار.

Twitter: @ketab_n

القتيل في الغاب

بقلم: رينوسوكي اكوتاكاوا
ياباني (١٨٩٢ - ١٩٢٧)

شهادة حطاب امام المفوض السامي لشرطة التحقيق:

نعم يا سيدي. أنا الذي وجدت الجثة. ففي هذا الصباح، ذهبت كعادتي أتحطب كعادتي اليومية من حطب الشربين فوجدت الجثة في فجوة بين الجبال في الاجمة. أما موقع الفجوة بالتدقيق فيبعد حوالي المئة والخمسين متراً عن طريق ياماشينا. والمكان برمته عبارة عن اجمة مدحورة من شجيرات الشربين والخيزران.

كانت الجثة ملقاة على ظهرها وهي في عباءة حريرية زرقاء وعلى رأسها كساء مغضن من طراز كيوطو. وكان الصدر ممزقاً بطعنة سيف وحيدة. أما وريقات الخيزران الساقطة حول الجثة فقد كانت مخضبة ببراعم من الدم. كلا، لم يكن الدم يسيل آنئذٍ، بل كان الجرح قد جف على ما أعتقد، ونعرة التصقت عليه بشدة بحيث لم تلاحظ وقع خطواتي.

كلا يا سيدي، لم يكن هناك سيف او أي شيء آخر من هذا القبيل، ان كل ما وجدته كان قطعة حبل عند ساق شجرة الشربين القريبة. و. . . بالاضافة الى الحبل وجدت مشطاً. هذا كل ما هناك، من الواضح أن القتيل قد قاوم بعنف قبيل

Twitter: @ketab_n

مصرعه، لأن الحشائش ووريقات الخيزران الساقطة حول الجثة كانت مداسة وغائرة في الأرض في كل جانب.

- «هل هناك حصان بالقرب من المكان؟»

كلا يا سيدي ان المكان عسير على الانسان ولوجه، فكيف بحصان.

شهادة كاهن بوذي مسافر أمام المفوض السامي:

الوقت؟ بالطبع يا سيدي. لقد كان حوالي الظهر أمس، وكان الرجل التعس على الطريق المؤدية من سيكياما إلى ياماشينا، وكان سائراً باتجاه سيكياما وبصحبته امرأة ممتطية معه على الجواد، فعلمت انها زوجته. وكان برقع يتدلى من رأسها ويحجب وجهها عن الأنظار. وكل ما رأيته منها كان لون ثوبها، الذي كان بنفسجياً فاقعاً. أما جوادهما فقد كان أشقر ضارباً الى الحمرة وله غرة جميلة. طول السيدة؟ آه، نعم فقد كان نحواً من أربع أقدام وخمس بوصات. غير اني لكوني كاهناً بوذياً لم أعر اهتماماً كبيراً لتفاصيلها الأخرى. أجل، كان الرجل يحمل سيفاً وفي حوزته قوس وسهام. وعلى ما أذكر كان هنالك نحو من عشرين سهماً في كنانته.

لم أكن أتوقع ان يحتم له القدر هذه النهاية. حقاً ان الحياة البشرية لزائلة زوال ندى الصبح او وميض البرق. ان كلماتي لعاجزة عن التعبير عن مقدار العطف الذي اكنه له.

شهادة شرطي امام المفوض السامي لشرطة التحقيق:

ان الرجل الذي القيت القبض عليه قاطع طريق قبيح الشهرة يدعى تاجو مارو، وعندما القيت القبض عليه كان قد سقط عن حصانه، وكان يئن متألماً على جسر اواتفوجي، اما الوقت فقد كان في الساعات الأولى من الليلة الماضية، وضناً مني بسلامة التحقيق اقر بانني حاولت القبض عليه قبل ايام ولكنه افلت مني لسوء الحظ. كان يلبس عباءة زرقاء داكنة ويحمل سيفاً عادياً كبيراً. وكما ترى، فان في حوزته الآن قوساً وسهاماً. هل تقول ان هذا القوس والسهام هي شبيهة بتلك التي كان يمتلكها الرجل القتيل؟ إذن. لا بد وان يكون تاجو مارو هو القاتل. فالقوس الملفوف بالسيور والجعبة المطلية بطلاء أسود براق والسهام السبعة عشرة المثبت على نهاية كل منها ريشة

Twitter: @ketab_n

من ريش الصقور، كانت كلها في حوزته على ما اعتقد، أجل يا سيدي. ان الحصان اشقر ضارب الى الحمرة وله غرة جميلة وجدته وراء الجسر الحجري يرعى بجانب الطريق فالت العنان. حقاً، ان للعناية الالهية يداً في وقع اللص بجانب الحصان.

ان من بين جميع اللصوص المتسكعين حول كيوطو، هذا اللص تاجو مارو قد اوقع اللوعة والأسى في قلوب جميع نساء البلدة. ففي الخريف الماضي بينما كانت امرأة آتية بين الجبال لزيارة هيكل توريب وجدت مقتولة مع فتاة أخرى. وحامت الشكوك حول تاجو مارو بانه هو القاتل. فاذا كان هذا المجرم هو الذي قتل الرجل فانك لن تستطيع معرفة ماذا فعل بزوجته. فهل لسعادتك ان تتكرم وتنظر في هذه القضية ايضاً؟

شهادة امرأة عجوز امام المفوض السامي لشرطة التحقيق:

نعم يا سيدي، ان هذه هي جثة الرجل الذي تزوج ابنتي. وهو ليس من مدينة كيوطو بل من طبقة الساموراي من بلدة كوكوفو في مقاطعة واكازا، اما اسمه فهو كانازاوانو تاكيهيكو، وله من العمر ست وعشرون سنة. كان ذا طبع وديع لطيف، ولذا فانني لعلى يقين بانه لم يحاول اثارة غضب الآخرين.

ابنتي؟ اسمها ماساكو وعمرها تسعة عشر عاماً، وهي فتاة لعوب شغوفة بالمرح، ولكنني متأكدة بانها لم تعرف رجلاً ما عدا تاكيهيكو، وجهها صغير بيضاوي الشكل اسمر البشرة، ويوجد خال على جانب عينها اليسرى.

غادر تاكيهيكو امس واكازا بصحبة ابنتي. فتباً للحظ السيء الذي يصل بالأمور هذه النهاية المحزنة! ولكن ماذا جرى لابنتي؟ اني ارضخ للاقدار كسيرة القلب على فقدان زوج ابنتي، ولكن مصير ابنتي يقلقني ويعلني، فبحق السماء ارجوك ألا تألوا جهداً للعثور عليها. اني اكره ذلك اللص تاجو مارو ومهما يكن اسمه. ألا يكفي ما حل بصهري من بلاء حتى ان ابنتي... (وغرقت الكلمات الأخيرة بالدموع).

اعتراف تاجو مارو:

اجل انا الذي قتلته. ولكني لم أقتل المرأة. اين ذهبت؟ لست ادري. ولكن رويدك، ليس هناك تعذيب بامكانه ان يدفعني الى الاعتراف بما لا اعرفه. ولكن بما

Twitter: @ketab_n

ان الامور قد آلت الى هذه الحال فأنا لن أخفي عنك شيئاً.

صادفتهما أمس بعيد الظهر بقليل وفي تلك اللحظة هب النسيم ورفع بـرقعها المتدلي على وجهها بحيث جعلني المحه لمحة خاطفة، ثم انسدل البرقع ثـانية بسـرعة وحجب وجهها عن ناظري. ولربما كان ذلك احد الاسباب. إذ بدت لي جميلة، كأنها إلهة، فصممت في تلك اللحظة على ان اخطفها حتى ولو ادى ذلك الى قتلي رجلها.

لماذا؟ لأن القتل عندي ليس بذي أهمية كما تتصور. عندمـا تختطف ايـة امرأة يتحتم على أي حال اغتصابها، اما في حالة القتل فإني استعمل السيف الذي احمله دائماً بجانبي هل أنا الرجل الوحيد الذي يقتل الناس؟ انتم لا تستعجلون سيوفكم. ولكنكم تقتلون الناس بمالكم وسلطانكم. واحياناً تقتلونهم بحجة انكم تعملون لصالحهم، ولكنهم قتلى على كل حال. ومن الصعب القول من هو المخطىء الأعظم. انتم أم أنا. (ابتسامة تهكم).

أجل انه لامر حسن لو انني استطعت خطف المرأة دون اللجوء الى قتل زوجها. ولذا عقدت النية على خطفها عاملاً كل جهدي على ألا أقتله. ولكن تنفيذ خطتي هذه كان أمراً مستحيلاً على قارعة طريق ياماشينا. ولـذلك تـدبرت حيلة اغـريتهما عـلى اللحاق بي بين الجبال.

وكـان هذا سهـلاً للغايـة، إذ بعد ان جعلت من نفسي رفيقـاً لهـما في السفـر اخبرتهما أن هنـالك اكمـة قديمـة بين الجبـال وجدت في حفـرة فيها كنـزاً من المرايـا والسيوف المختلفة. ثم رحت أسرد عليهما كيف انني خبأت هذه الأشياء في اجمة خلف الجبـال، وانني ارغب في بيعها بثمن بخس لكـل من له الـرغبة في اقتنـائها. وبعـد ذلك. . ألا ترى الجشع شيء فظيع؟ بدا على الرجل انه تأثر بكلامي قبل ان يتحقق منه. وبأقل من نصف ساعة توجه الاثنان بجوادهما برفقتي نحو الجبل.

وعندما شارفنا الاجمة اخبرتهما بان الكنـز مدفـون فيها وحثثتهـما على الاسـراع لرؤيته. لم يبد الرجل أي اعتراض ـ لان الجشع كان قد أعمى بصيرته. أما المرأة فقد قالت بانها ستنتظر وهي على ظهر الجواد، وكان من الطبيعي ان تقول هذا وهي امام اجمة كهذه كثيفة الاشجار. اني اصارحك الحقيقـة لقد نفـذت خطتي كـما اشتهيتها. وهكذا دخلت الغاب مع الرجل تاركاً زوجته هناك وحدها.

Twitter: @ketab_n

كانت الاجمة مغروسة بالخيزران لمسافة وجيزة. وبعد نحو خمسين ياردة من سيرنا لاح لنا من بعد ما يشبه دغلاً مفتوحاً من شجيرات الشربين، فعزمت على تنفيذ خطتي في ذلك المكان. وكان اثناء سيرنا الحثيث في الاجمة قد اخبرته مغرراً به بان الكنز مدفون تحت اشجار الشربين. ولما سمع هذا راح يندفع في طريقه بحماس نحو شجرة هيفاء عالية في الغاب. وبعد فترة اخذت شجيرات الخيزران تقل شيئاً فشيئاً، ثم وصلنا الى حيث كانت بضع اشجار شربين نامية في صف مستقيم. وحالما اقتربنا منها امسكت به من الخلف، لانه كان محارباً مدرباً على استعمال السيف، وكان قوياً، ولكنه أخذ على حين غرة فلم تكن لديه حيلة يتدارك بها ما حل به. وللحال اوثقته على جذع الشجرة. من اين اتيت بالحبل؟ حمداً للسماء، لكوني لصاً فان الحبل لا يفارقني مطلقاً، إذ أنا قد اضطر للتسلق على الجدران في أية لحظة. وبالطبع كان من السهل علي ان اوقف صراخه بحشو فمه باوراق الخيزران الساقطة.

وعندما انتهيت منه ذهبت الى زوجته وطلبت منها ان تأتي لتراه، قائلاً لها ان عارضاً قد ألم به فجأة فسقط على الارض مريضاً، ولا حاجة بي للقول بان حيلتي هذه ايضاً انطلت عليها. ففقدتها من يدها وتوغلنا في احشاء الغاب، وقد سقطت قبعتها المصنوعة من الحلفاء عن رأسها. وفي اللحظة التي رأت زوجها على تلك الحال نضت سيفاً صغيراً. إني لم أر من قبل امرأة نارية الطبع بهذا الشكل اطلاقاً. ولولا انني كنت محترساً لنفسي لنلت منها طعنة في خاصرتي. ومع انني زغت عن ضرباتها، فانها استمرت في تسديد الطعنات نحوي محاولة طعني أو حتى قتلي. ولكنني أنا تاجومارو، تدبرت أمري معها بحيث أسقطت سيفها الصغير دون أن أستل سيفي. ان اكثر النساء حيوية ونشاطاً تغدو عديمة المقاومة عندما ينتزع سلاحها منها... على الأقل كنت استطيع ان احظى بها دون اللجوء الى قتل زوجها.

نعم... دون قتل زوجها. لم تكن لدي الرغبة في قتله. وكنت على وشك الفرار في الاجمة تاركاً المرأة لدموعها عندما تعلقت بذراعي ملهوفة جزعة قائلة: «إما ان تموت انت يا تاجومارو، أو أن يموت زوجي، لان الموت غدا اطيب لي من الحياة بعد هذا العار الذي لحق بي بسببكما، ومن منكما الاثنين يبقى حياً، فاني أريد ان اكون زوجة له.» عندئذ امتلكتني رغبة جامحة في قتله (اهتياج سوداوي.)

Twitter: @ketab_n

اني إذ افضي اليك بهذا لا شك انني ابدو غليظ القلب اكثر منك، ولكن ما ذلك إلا لانك لم تر وجهها، وخاصة عينيها الملتهبتين في تلك اللحظة. أما أنا وقد رأيتها وجهاً لوجه اردت ان اتخذها زوجة لي حتى لو صعقتني الصاعقة. أجل، اردت أن اجعلها زوجتي. . . واستولت هذه الرغبة الوحيدة على جميع كياني، ولم تكن مجرد شهوة عابرة كما قد تظن، ففي ذلك الحين لو لم تكن لدي رغبة سوى الشهوة لما ترددت في طرحها أرضاً واركنت الى الفرار، ولما احتجت ايضاً الى تلطيخ سيفي بدم زوجها ولكن في اللحظة التي تطلعت الى وجهها في الاجمة الداكنة، صممت على ألا افارقها قبل قتله.

غير انني لم أشأ اللجوء الى وسائل غير عادلة لكي اتخلص منه. ففككت وثاقه وطلبت منه ان يقارعني السيف بالسيف. ـ والحبل الذي وجدتموه عند ساق الشجرة هو الحبل الذي قطعته آنئذ. ـ فاستل سيفه وقد استبد به الحنق. وهاجمني بشراسة، بسرعة البرق، دون ان يتفوه بكلمة واحدة. ولا أرى بي حاجة لأخبرك كيف انتهت المعركة بيننا. ففي الضربة الثالثة والعشرين. . . أرجوك ان تتذكر هذا، إذا انني لا ازال متأثراً بهذه الحقيقة. ليس من أحد تحت الشمس استطاع ان يبادلني بسيفه عشرين ضربة. (ابتسامة الزهو).

وعندما سقط ارضاً، التفت نحوها بعد ان نكست سيفي الملطخ بدمه. ولكن يا لدهشتي لم ارها في مكانها، وعجبت الى اين عساها ولت هاربة. ورحت ابحث عنها في الدغل بين اشجار الشربين، ثم اصخت بسمعي ولكني لم اسمع سوى الانين صادراً من حنجرة الرجل المحتضر.

يبدو انها حالما ابتدأنا المنازلة راحت تعدو في الاجمة تطلب النجدة. وعندما فكرت بهذا رأيت بأن القضية باتت قضية حياة أو موت بالنسبة إلي، وهكذا بعد ان جردته من سيفه وقوسه وسهامه فررت الى الطريق الجبلية. فرأيت حصانها هناك لا يزال يرعى بهدوء.

لن أضيع وقتك بأن اسرد التفاصيل الأخيرة. ولكن قبل ان ادخل البلدة كنت قد تخلصت من السيف. هذا كل اعترافي. اني أعلم بأن رأسي سيعلق بالسلاسل مهما كان الامر. ولهذا فان لك ان تنزل بي اقسى ما هناك من عقوبة. (هيئة تحد وكبرياء).

Twitter: @ketab_n

اعتراف المرأة التي كانت ذاهبة الى هيكل سيميزو:

لقد ضحك الرجل صاحب العباءة الحريرية الزرقاء. بعد ان ارغمني على الاستسلام له، ضحك ضحكة استهزاء وسخرية وهو ينظر الى زوجي الموثوق الذي ولا ريب، كان الامر قد هاله الى حد مرعب، وكلما كان يحاول مناضلاً فك وثاقه كان الحبل ينغرز في جسده اكثر فاكثر. فهرعت الى نجدته وانا اتعثر، بل اني حاولت ان انجده عندما عرقلني الرجل أرضاً. وفي تلك اللحظة رأيت نوراً يشع من عيني زوجي. شيء يفوق التعبير... إن ما رأيته في عينيه ليجعلني أرتعب حتى الآن. تلك النظرة الآتية من عيني زوجي الذي لم يكن يستطيع الكلام اخبرتني عن كل ما في قلبه. والوميض الذي شع منهما لم يكن وميض غضب أو حزن... بل كان نوراً باهتاً فاتراً، نظرة اشمئزاز واحتقار. ولقد صعقت في تلك النظرة اكثر من لطمة اللص فصرخت رغماً عني واغمي علي.

وعندما صحوت وجدت ان صاحب العباءة الحريرية الزرقاء قد ذهب. ولم أجد سوى زوجي الذي كان ما يزال موثوقاً الى ساق الشجرة. فنهضت عن اوراق الخيزران الساقطة على الأرض بصعوبة، وتفرست في وجهه، ولكن التعبير في عينيه كان لا يزال كما قبل: فتحت الازدراء الذي كان يشع منهما، كانت تكمن البغضاء والحزن والغضب... اني لا أدري كيف اعبر عما كان يختلج في قلبي آنذاك، ومهما يكن فاني وقفت على رجلي وانا اترنح وذهبت الى نصرته.

قلت له: «يا تاكيجيرو، بما ان الامور قد آلت الى هذا المآل، لم يعد في طاقتي العيش معك، اني مصممة على ان اموت... ولكن يجب ان تموت انت ايضاً، لقد رأيت بعينيك ما لحق بي من العار، ولذا لا استطيع ان اتركك حياً.»

هذا كل ما استطعت قوله، ولكنه ظل يرمقني باشمئزاز واحتقار، ثم رحت افتش عن سيفه وانا كسيرة القلب. ولكن يبدو ان اللص كان قد اخذه لانني لم أعثر عليه ولا على القوس والسهام في أي مكان في الأجمة. غير انه لحسن الحظ كان سيفي الصغير ملقى امام رجلي وعندما رفعت السيف فوق رأسي قلت له مرة ثانية: «اعطني حياتك الآن، وسأتبعك في الحال.»

Twitter: @ketab_n

وعندما سمع هذه الكلمات حرك شفتيه بصعوبة، وحيث ان فمه كـان محشواً بأوراق الخيزران، بالطبع لم يكن ليسمع صوته اطلاقاً. ولكن من لمحة واحدة عرفت ما كان يريد ان يقوله. نظرته المليئة بالاحتقار قالت لي: «اقتليني.» واغمدت سيفي الصغير في ثوبه الليلكي في صدره. وانا ما بين واعية ولا واعية.

يبدو انه اغمي علي عندئذ مرة ثانية. وعندما استعدت رشدي ونـظرت حولي كان قد لفظ انفاسه الأخيرة ـ وهو لا يـزال في وثاقـه، وكان هنـالك شعـاع من نور الشمس قد نفذ من خلال اغصان اشجار الشربين والخيزران المتعاقدة واضـاء وجهه الشاحب. ثم رحت افك الحبل من حول جسده الميت وانا اشرق بدموعي وتنهداتي. و. . . ماذا جرى لي بعدئذ، لم تعد بي طاقة لاخبرك به الآن. ومهما يكن فانه لم تبق بي آنذاك قوة لكي أموت. طعنت حنجرتي بسيفي الصغير، والقيت بنفسي في بركـة في اسفل الجبل. وحاولت قتل نفسي بشتى الطرق. وإذ عجزت عن القضاء على حياتي فاني لا زلت اعيش عيشة العار (ابتسامة حزينة). واذا غدوت هكذا عديمة القيمة لا بد اني استحق الهجر حتى من اكثر الناس رحمة. لقد قتلت زوجي وانهك لص عرضي ماذا تراني فاعلة بعد الآن؟ ماذا . . (تنهدات تتزايد شدة تدريجياً).

القتيل يروي حكايته:

بعد ان اعتدى اللص على عفاف زوجتي جلس هنـاك وراح يطيب خـاطرهـا بكلمات رقيقة، وبالطبع لم اكن انا استطيع الكلام، كان جسمي كله موثوقاً بشدة الى جذع الشجرة، غير اني شرعت اغمزها بعيني عدة مرات محاولاً بذلك أن أقول لها: «لا تصدقي هذا اللص» أو ان اجعلها تفهم شيئاً من مقصدي هذا. ولكنها جلست هناك على اوراق الخيزران مضعضعة الكيان وهي تنظر الى حضنها طيلة الوقت. وبدا عليها انها كانت منصرفة الى الاصغاء الى كلماتـه. وبينما كـانت الغيرة تنهشني كـان اللص مستمراً في كلامه اللبق ينتقل من موضوع الى آخـر. وفي آخر الامـر قدم لهـا اقتراحه الجريء الوقح قائلاً: «إن مرة واحدة تتلطخ فيها فضيلتك يغدو من المحـال بعدها الاستمرار في العيش مع زوجك. أليس من الأفضل لك ان تصبحي زوجتي؟ ان حبي لك هو الذي جعلني اتصرف بغلاظة تجاهك.»

وبينما كان المجرم يتكلم رفعت زوجتي وجهها وكأنها في غيبوبة، فبانت لي جميلة

Twitter: @ketab_n

في تلك اللحظة جمالاً لم اره فيها من قبل مطلقاً. فما الذي قالته زوجتي الجميلة جواباً على ما يكان يحدثها به اللص وانا جالس هناك موثوقاً اتحرق؟ كنت مشوشاً ولكني لم افكر اطلاقاً في جوابها دون ان اتميز من الغيظ والغيرة. لقد كان ما قالته له: «اذن، خذني معك اينما تذهب.»

ولم تكن هذه خطيئتها كلها، اذ بينما كانت ذاهبة معه وكأنها في حلم، ويدها في يد اللص انقلبت شاحبة فجأة واشارت نحوي وانا موثوق الى ساق شجرة الشربين وقالت له: «اقتله! انا لن استطيع الزواج منك طالما هو على قيد الحياة.» ثم صاحت عدة مرات وكأنها اصيبت بلوثة جنون: «اقتله! اقتله!» ان كلماتها هذه لا تزال تلاحقني حتى الآن وتنذر بقذفي في هاوية الظلمة التي لا قعر لها رأساً على عقب، فهل صدرت بغضاء كهذه من فم مخلوق بشري من قبل على الاطلاق؟ وهل خدشت كلمات لعينة كهذه اذن انسان ولو حتى مرة واحدة؟ حتى ولو مرة واحدة... (صيحة احتقار فجائية). وعند سماع اللص هذه الكلمات غدا هو نفسه شاحباً. وصاحت وهي متعلقة بذراعه: «اقتله!» ولكنه اذ كان يرمقها بحدة، لم يحر جواباً... وقبل ان يفسح لي المجال للتفكير فيما عساه يجيبها خبطها خبطة طرحتها بين اوراق الخيزران على الارض. (صيحة احتقار مرة ثانية). ثم نظر الي وهو يكتف ذراعيه بهدوء وقال: «ماذا تريدني ان افعل بها؟ أأقتلها ام اهبها الحياة؟ ما عليك الا ان تعطيني إشارة من رأسك. هل اقتلها؟» ان من اجل كلماته هذه بودي لو اغفر له جريمته.

وفيما انا اتردد في اعطاء رأيي صرخت بملء فيها وولت هاربة تعدو في اعماق الغاب. ومد اللص يديه محاولاً الامساك بها ولكنه فشل حتى بامساك ردن ثوبها.

وبعد فرارها اتى اللص وجردني من سيفي وقوسي وسهامي. ثم بضربة واحدة من السيف قطع وثاقي. ولا زلت اتذكر العبارة التي فاه بها وكأنه يناجي نفسه: «وبعد هذا سيأتي دوري انا.» ثم اختفى في الاجمة وساد السكون حولي بعد ذلك... بل اني سمعت صوت بكاء. وإذ فككت ما تبقى حولي من الحبال، اصخت بسمعي. فعلمت ان البكاء لم يكن الا بكائي انا. (سكوت طويل)

نهضت بجسمي المنهوك عن جذع الشجرة فاذا بالسيف الذي اسقطته زوجتي ملقى امامي يلتمع. فالتقطته عن الأرض وطعنت به صدري. فصعدت كتلة دموية

Twitter: @ketab_n

الى فمي. ولكني لم أشعر بألم. وعندما سرت البرودة في صدري خيم السكون حولي كسكون الأموات في قبورهم. يا له من سكون شامل! لم تكن هنـاك زقزقـة عصفور واحد تسمع في السماء فوق هذا القبر المهمل في بطن الجبـال. ولم يكن هناك سـوى شعاع ضوء وحيد فريد تباطأ على قمم اشجار الشربين ورؤوس الجبال. ولكن ما عتم هذا الضوء حتى اخذ يخبو شيئاً فشيئاً الى ان غـابت اشجار الشـربين والخيـزران عن ناظري ومكثت منطرحاً هناك واكتنفني سكون عميق.

ثم استرق احدهم الخطى نحوي، وحاولت ان ارى من الذي يكون. ولكن الظلمة كانت تتلبد حولي. شخص ما. . . ذلك الشخص سحب السيف الصغير من صدري برفق بيده غير المنظورة. وفي نفس الوقت تدفق الدم مرة اخرى من فمي، ثم غصت في ظلمة الاعماق.

* هذه القصة جعل منها المخرج الياباني كوروساو فلماً شهيراً بعنوان «راشومون».

Twitter: @ketab_n

وداعاً يا كورديرا

بقلم: ليوبولدو آلاس
اسباني (١٨٥٢ ـ ١٩٠١)

كانوا ثلاثة ـ دائماً نفس الثلاثة: روزا وبنيين وكورديرا.

كان مرج «سومونتي» رقعة مثلثة من الخضرة المخملية انتشرت كسجادة عند سفح التلة، امتد ضلعها السفلي بعيداً حتى التقى بخط السكة الحديدية الآتي من افييرو الى جيجون، ووقف عامود التلغراف كسارية العلم في زاوية الحقل، يمثل بمنظره لروزا وبنيين العالم البعيد: عالم مجهول غامض يجب ان يبقى مرهوباً ومنسياً ابداً.

فبعد أن قلّب بنيين الامر جدياً، وهو يرقب العامود الهادىء المسالم يوماً بعد يوم، توصل نهائياً الى الاعتقاد بانه ليس الا شجرة جافة، وان الكؤوس الزجاجية المعلقة في اعلاه ما هي الا نوع من الفاكهة الغريبة. وبهذا اكتسب من الثقة ما يكفيه لكي يتسلق عليه حتى يكاد يمس الاسلاك. الا انه في تسلقه لم تدرك يده الكؤوس مطلقاً، لأنها ذكرته بشكلها ببعض الاواني المقدسة، ولم يستطع ان ينفض عنه شعور الرهبة الا بعد ان كان ينزلق ويثبت رجليه ثانية على الأرض الخضراء بأمان.

غير ان روزا، وهي الأقل جرأة ولكنها اكثر عشقاً للمجهول، كانت تقنع

Twitter: @ketab_n

بالجلوس تحت عامود التلغراف لساعات طويلة، تصغي الى الريح وهي تجتذب من الأسلاك اغنية صافية ساحرة وتمزجها بتنهدات صادرة من قلب اشجار الصنوبر.

ففي بعض الاحيان كانت هذه الاهتزازات تسمع وكأنها موسيقى، ولكنها كانت لروزا اشبه بهمسات ترحل عبر الاسلاك من مجهول الى مجهول. لم يكن لديها شيء من حب الاستطلاع لتعرف ماذا يقول الناس من طرفي الدنيا المتقابلين، الواحد منهم للآخر. لم يهمها ذلك بكثير او قليل. انما هي تصغي الى الصوت لنغمته الجميلة وغموضه الغريب.

ولكن لاكورديرا، وقد بلغت من العمر انضجه، كانت واقعية اكثر من رفيقيها. لقد انزوت عن العالم، وجعلت تتأمل عامود التلغراف من بعيد، وتفكر بأنه شيء عديم الحياة لا يصلح لشيء الا ان تحك نفسها به.

كانت لاكورديرا بقرة رأت من الدنيا كثيراً. كانت تجثم في الحقل ساعات طويلة تقتل وقتها بالتأمل، عوضاً عن أن تقيت نفسها، وتتمتع بهدوء الحياة وزرقة السماء محاولة طيلة الوقت ان تحسّن عقلها.

كانت دائماً تشارك الولدين اللذين عهد اليهما بحراستها أثناء العابهما. ولو استطاعت لضحكت لتلك الفكرة! روزا وبنيين مكلفان بالاعتناء بها - هي لاكورديرا! لحفظها داخل المرعى ومنعها من القفز فوق السياج والشرود بمحاذاة الخط الحديدي كأنها جد ميالة للقفز والشرود. وما الذي يحدو بها الى التدخل بشؤون الخط الحديدي؟

لقد كان من دواعي غبطتها ان ترعى بهدوء وتنتقي بعناية اشهى القضمات، دون ان ترفع رأسها لتنظر حولها باستطلاع عديم الفائدة، وبعد ذلك تضطجع اما للتأمل او لتتذوق نعمة عدم المشبقة. غير ان راحتها الفكرية تنغصت كثيراً عندما دشن الخط الحديدي وكاد يصيبها الجنون من الهلع عندما رأت القطار وهو يجتاز مجعجعاً لأول مرة. قفزت فوق الحائط الحجري الى الحقل المجاور واشتركت مع بقية الماشية بحركاتها الجنونية... ودام فزعها لعدة أيام متتالية، يتضاءل قليلاً ثم يعود عليها بشدة كلما خرجت الآلة المتحركة من فم النفق.

Twitter: @ketab_n

رويداً رويداً اخذت تتحقق ان القطار عديم الاذى: خطر يمر دائماً بسلام، مصيبة تتوعد ولكنها لا تنزل. ولذلك اخذت تقلل من حيطتها، وما عادت تدفع برأسها الى الاسفل في موقف الدفاع عن نفسها. ثم أخذت تنظر الى القطار بدون أن تجشم نفسها حتى مشقة النهوض، وفي النهاية فقدت نفورها منه بالمرة ولم تعد تنظر اليه اطلاقاً.

ولكن جدة القطار احدثت في نفسي روزا وبنيين تأثيرات اشد واعمق. فقد اخذا في البدء ينفعلان بفرح ممزوج برهبة غريبة جعلتهما يرقصان بوحشية ويطلقان صرخات عالية. ثم تحول هذا الشيء الى اشبه بملهاة هادئة تتكرر عدة مرات في اليوم كلما راقبوا الحية الحديدية الهائلة وهي تنساب بسرعة بحملها من الناس الغرباء.

ولكن عمود التلغراف والسكة الحديدية وما كان ينجم عنهما من احداث انما كانت قصيرة الامد سرعان ما تتلاشى في بحر تلك الوحدة التي تحيط بمرج «سومونتي» فلا يرى احد من الاحياء ولا يسمع صوت من العالم الخارجي.

وفي الصباح تلو الصباح كان الطفلان والبقرة يترقبون مجيء الظهيرة، تحت أشعة الشمس المحرقة وبين طنين الحشرات المتقاطرة، لكي يرجعوا الى البيت. وفي الامساء الطويلة الكئيبة ينتظرون مجيء الليل مرة أخرى.

طالت الظلال وهدأت العصافير وبزغ نجم هنا ونجم هناك في القسم المعتم من السماء، وانعكست في روحي الطفلين وداعة الطبيعة المستكينة. وفي أثناء جلوسهما قرب لاكورديرا كانا يلوذان بأذيال صمت حالم، لا يشوبه الا رنين ناعم من جرس البقرة بين الحين والحين.

كشقي ثمرة خضراء، هكذا كان الطفلان يلازم كلاهما الآخر ولا يفارقه. كانا متحدين بحنان قائم على معرفتهما الضئيلة عما كان غريزياً فيهما وعما جعلهما شخصين اثنين. وامتد هذا الحنان الى لاكورديرا البقرة الام، وهي بدورها قابلت على قدر طاقتها حب الولدين اللذين كانا مكلفين بحراستها بحب مماثل على طريقتها التلقائية. وكثيراً ما كانت تعامل بخشونة كلما اشتركت معهما في العابهما الصبيانية، ولكنها في كل مرة تظهر صبراً وتسامحاً عجيبين وعطفاً تبديه بكثير من التفكير والهدوء.

Twitter: @ketab_n

غير ان انطون دي شينتا، والد الطفلين، لم يكن قد امتلك مرج «سومونتي» الا منذ امد قريب، فتمتعت لاكورديرا بامتياز هذا المرعى الخصيب، بعد ان كانت تضطر الى التجوال في الطرقات العامة للحصول على طعامها من الاعشاب الزهيدة التي تنبت على حواشيها.

ففي تلك الايام العصيبة من الفقر والحرمان كان بنيين وروزا يبحثان لها عن احسن البقع الملائمة، ويحميانها بوسائل شتى من سوء المعاملة التي تتعرض لها الحيوانات المضطرة الى البحث عن قوتها في الاراضي العامة. وفي ايام الزريبة الهزيلة، عندما كان العلف نادراً واللفت مفقوداً، كانت البقرة مدينة للطفلين عن الف لفتة صغيرة سهلت عليها الحياة وجعلتها أمراً يطاق. وفي تلك الفترة المليئة بالبطولة الواقعة بين ولادتها عجولها وبين فطامها، عندما كان ينبعث ذلك السؤال الذي لا مفر منه عن كمية الحليب الذي يجب ان تحصل عليه عائلة دي شنيتا، ومدى ضرورته بصغارها، كنت تجد بنيين وروزا دائماً يقفان بجانب لاكورديرا. كثيراً ما كانا يطلقان سراح العجل الصغير لينطلق بفرح جنوني متعثراً بكل ما يصادفه في طريقه، بحثاً عن الطعام والحماية تحت جسم والدته الرحب، بينما كانت هذه تلتفت برأسها نحو الطفلين بنظرة ملؤها حنان وامتنان.

ان روابط كهذه لا يمكن ان تفصم وذكريات كهذه لا يمكن ان تمحى. ولكن انطون دي شينتا توصل الى الجزم بان اليوم الذي ولد فيه كان يوماً اسود، وان احلامه الذهبية بتوسيع زريبته تدريجياً لن تتحقق. انه باقتنائه تلك البقرة الوحيدة بألف اقتصاد وحرمان لم يجد نفسه عاجزاً عن اقتناء بقرة أخرى فحسب، بل وجد نفسه في النهاية عاجزاً حتى عن دفع الايجار، لقد رأى في لاكورديرا ملكه الوحيد يعتمد عليه، ولكنه تحقق من انها يجب أن تباع رغم اعتبارها احدى افراد العائلة، ورغم وصية زوجته وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة بأن «تلك البقرة عماد حياتهم في المستقبل.»

فبينما كانت الأم مضطجعة على فراش الموت في غرفة فصلت عن الزريبة بحاجز حيك من سيقان السنابل الجافة، حولت انظارها المجهدة نحو لاكورديرا، كأنها ترجوها بصمت ان تكون أماً ثانية للطفلين، وان تمنحهما ذلك الحنان الذي لا يفهمه ابوهما. فقرر انطون دي شنيتا كل ذلك ولم يقل للطفلين عن حاجته الملحة لبيع

Twitter: @ketab_n

البقرة.

وفي صباح احد الايام، وكان اليوم سبتاً، نهض باكراً وانتهز فرصة نوم روزا وبنيين، وشرع بقلب مثقل يسوق لاكورديرا امامه ميمماً وجهه شطر جيجون.

ولما نهض الطفلان كانا في حيرة من امر غياب والدهما المفاجىء، ولكنهما شعرا متيقنين بان البقرة رافقته غير طائعة.

ولما ارجع والدهما الحيوان في المساء وهو مرهق مكسو بالغبار - ولم يعطهما سبباً لغيابه احسا بوقوع الخطر.

لم تبع البقرة، اذ انه بمنطق الحنان والمودة المصطنعين كان قد وضع السعر عالياً لكي لا يستطيع احد دفعه. فكان يتجهم لكل مشتر منتظر واثقاً من انه سيصل المبلغ الذي قرره بعناد. وكان يهدىء من اضطراب ضميره بقوله لنفسه انه متأكد من رغبته في البيع. انما الذنب ذنب الآخرين الذين لا يدفعون الثمن الذي تستحقه لاكورديرا. وهكذا قفل عائداً الى البيت يرافقه عدد من جيرانه المزارعين، الذين كانوا يسوقون مواشيهم امامهم بمشقة تتوقف شدتها على قصر او طول العشرة التي بين الحيوان وسيده.

اما بنيين وروزا فمن اليوم الذي بدآ يشكان فيه بان هنالك أمراًمؤلماً ينتظرهما لم يرتع لهما فكر. وسرعان ما تحققت اسوأ مخاوفهما عندما ظهر صاحب البيت وهو يتوعدهم باخلاء المكان.

ولذلك يجب ان تباع لاكورديرا ولربما بيعت بثمن فطور فقط.

وفي يوم السبت التالي رافق بنيين والده الى سوق بلدة مجاورة، حيث نظر الولد الى القصابين المسلحين بأسلحة الذبح بفزع بالغ وبيع الحيوان الى احد هؤلاء، وبعد ان وسمت البقرة بالحديد والنار ارجعت الى زريبتها وجرسها يجلجل طول الطريق بحزن.

كان انطون صامتاً وكانت عينا الولد حمراوين منتفختين. وعند سماع روزا خبر البيع رمت ذراعيها حول عنق لاكورديرا! واجهشت بالبكاء.

Twitter: @ketab_n

وكانت بضعة الايام التالية اياماً ملؤها الحزن والاسى في مرج «سومونتي» بينما كانت لاكورديرا، وهي تجهل المصير الذي ينتظرها، هادئة وديعة، كما حلا لها ان تبقى كذلك حتى اللحظة التي سيهوي عليها الساطور بضربته الوحشية.

ولكن بنيين وروزا لم يكن في وسعهما ان يفعلا شيئاً الا الاضطجاع على العشب في صمت متواصل، لا امل لهما في أية تعزية في المستقبل. وكانا ينظران نظرة كراهية الى اسلاك التلغراف والقطارات المارة الموصولة بذلك العالم البعيد كل البعد عن ادراكهما ـ العالم الذي سوف يسلبهما رفيقتهما وصديقتهما الوحيدة.

وبعد بضعة ايام حصل الفراق واتى القصاب حاملاً النقود المتفق عليها. وسأله انطون هل يرغب في جرعة من النبيذ، وارغمه على سماع فضائل البقرة الممتازة. لم يستطع الاب ان يصدق ان لاكورديرا ستذهب الى سيد آخر لن يعاملها معاملة حسنة، فأخذ يعدد ميزاتها البيتية ومقدرتها على در الحليب وصلابتها تحت النير، والآخر يبتسم وهو يفكر بالمصير الذي ينتظرها.

وقف بنيين وروزا وايديهما متشابكة ينظران الى العدو عن بعد ويفكران بحزن بالماضي وذكرياته الملأى بكورديرا. وقبل ان تساق نهائياً بيد القصاب ارتميا على عنقها وغطياه بالقبل. ثم تبعها الطفلان في الطريق الضيقة المنحدرة، وشكلا مع البقرة المتأففة وسائقها غير المبالي جماعة كئيبة. وفي النهاية توقفا عن المسير واخذا يرقبان البقرة وهي تختفي تدريجياً في ظلال شجيرات العليق المتاخمة.

وهكذا اختفت أمهما بالرضاعة الى الأبد.

انفجرت روزا بالبكاء وهي تصرخ: «وداعاً يا كورديرا، وداعاً يا كورديرا، يا امي».

وكرر بنيين، وصوته يختنق بالعاطفة: «وداعاً»، ثم ضاع ندبه الحزين بين اصوات الليل الاخرى.

وفي صباح اليوم التالي الباكر ذهب بنيين وروزا الى مرج «سومونتي»، فلم تكن وحشته في يوم من الأيام شديدة الوطأة عليهما كذلك اليوم، وبدا لهما كأنه صحراء قاحلة.

Twitter: @ketab_n

وفجأة ظهر دخان عند فم النفق ثم اتى القطار. فشاهدا قطيعاً من الابقار وقد حشد حشداً مكتظاً في عربة تشبه الصندوق اخترقت جوانبه نوافذ ضيقة.

فهز الطفلان قبضتهما نحو القطار وهما اكثر ايقاناً من اي وقت مضى بنهم العالم وجشعه. «انهم يأخذونها الى الذبح». «الوداع يا كورديرا». «الوداع يا كورديرا».

والقى بنين وروزا نظرة كراهية نحو القطار وعامود التلغراف، رمزي العالم القاسي الذي سلبهما رفيقة سنوات عدة لمجرد اشباع شهواته الشرهة.

«وداعاً يا كورديرا».

«وداعاً يا كورديرا».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

محـــار . . .

بقلم: انطون تشيخوف
روسي (١٨٦٠ - ١٩٠٤)

لا اظنني بحاجة الى اجهاد ذاكرتي لاستعادة ذكرى تلك الامسيـة من امسيات الخريف وغسقها الماطر عندما وقفت مـع والدي في احـد شوارع العـاصمة المـزدحمة وشعرت بدوار غريب يهاجمني. لم اكن اعاني الماً ولكن رجليّ خانتاني ومال رأسي واهناً الى جانب، والتصقت الكلمات بحلقي، وشعرت بانني ساسقط حالاً على الرصيف ويغمى علي.

وبجانبي على الرصيف وقف والدي في معـطف صيفي بال وعـلى رأسه قبعـة مخططة بالمربعات اشرأب منها خيط ابيض. وكانت قدماه في غالـوشين كبيـرين دونما نظام او ترتيب.

فهذا الرجل الفقير المحدود الفهم، بمعطفه الصيفي الذي كان انيقاً في يوم من الأيام، كان حبي له يزداد كلما ازداد معطفه قذارة ورثاثة. لقد اتى العاصمة قبل ذلك بخمسة أشهر مفتشاً عن عمل ككاتب، فقضى الاشهر الخمسـة وهو يـذرع شوارع المدينة كالمتشردين. وفي ذلـك اليوم ولاول مـرة جمع شتـات عزيمتـه ومد يـده يطلب الاحسان في الشارع.

Twitter: @ketab_n

نهض امامنا بيت كبير من ثلاثة طوابق علقت عليه لافتة زرقاء كتب عليها «مطعم» وكان رأسي مائلاً بضعف الى جانب واحد عندما القيت نظرة دون طوع مني على نوافذ المطعم الساطعة فرأيت وراءها اشخاصاً بشرية جذابة، وعلى اليمين منهم فرقة موسيقية وترية، وصورتين زيتيتين وقناديل معلقة. وإذ حاولت عيناي اختراق ذلك الجو المبهم وقعتا على رقعة بيضاء. كانت الرقعة ساكنة لا تتحرك برزت استقامة زواياها المربعة بقوة على الجدار الكبير البني اللون. وعندما اجهدت ناظري استطعت ان اتبين ان الرقعة اعلان معلق على الحائط، وان هناك شيئاً مطبوعاً عليها. اما ما هو ذلك الشيء فهذا ما لم اتمكن من رؤ يته.

لعلني بقيت انظر الى ذلك الاعلان زهاء نصف ساعة على الاقل كان بياضه الناصع يومىء الي باستمرار حتى ظننت انه يسحرني. حاولت ان اقرأ الكلمة ولكن محاولاتي ذهبت عبثاً.

غير ان الدوار في النهاية بلغ ازمته القصوى فسمعت ضوضاء حركة المرور ترتفع كالرعد واستطعت ان اميز من بين الروائح المنبعثة من الشارع الف رائحة ورائحة. وخيل الي ان اضواء المطاعم وقناديل الشارع تسطع كالبرق. وجعلت ادرك الاشياء التي ما كنت ادركها من قبل وقرأت الاعلان: «محار».

كلمة غريبة. لقد اصبح لي من العمر في هذه الدنيا ثماني سنوات وثلاثة أشهر لم اسمع خلالها بهذه الكلمة مطلقاً. فما الذي تعنيه؟ هل كانت لقب صاحب المكان؟ كلا لأن اللافتات التي تحمل اسماء اصحاب الفنادق انما تعلق في الخارج لا على الجدران الداخلية.

سألت والدي بصوت أجش وانا احاول ان ادير وجهي شطر وجهه؛ «ابي ما المحار؟»

لم يسمعني ابي. لقد كان ينظر الى تدفق الجمهور ويتتبع كل مار بعينيه فاستطعت ان احكم من قسمات وجهه انه كان يتشوق لمكالمة المارين ولكن الكلمات المشؤ ومة الثقيلة ثقل الرصاص تعلقت بشفتيه المرتعشتين ولم تكن لتنتزع نفسها من بينهما. غير انه اوقف احد المارين بان لمس كمه ولكن عندما التفت اليه الرجل تلجلج والدي وقال «ارجو عفوك» واسقط في يده مرتبكاً.

Twitter: @ketab_n

فكررت: «بابا ما معنى محار؟»

قال: «انه نوع من الحيوان... يعيش في البحر.»

وفي طرفة عين استطعت ان اصور هذا الحيوان الغريب الغامض في ذهني، فاستنتجت ان شكله يجب ان يكون شيئاً بين السمكة وبين السرطان. وبما انه يؤتى به من البحر فلا شك انه يجهز في اطباق شهية بالحساء المبتل بالبهارات العبقة واوراق الغار. او انه يقدم بارداً مع الفجل البري... واخذت اتصور بوضوح شديد كيف يؤتى بهذا السمك من السوق ومن ثم يزج به في القدر... بسرعة لاننا كلنا جائعون... جائعون جداً. وفاحت من مطبخ المطعم رائحة السمك المطبوخ ومرق السرطان.

بدأت هذه الرائحة تدغدغ حلقي ومنخري، ثم شعرت بها تسري في جميع كياني. لقد انبعثت من المطعم، من والدي، من رقعة الاعلان البيضاء، من كمي. انبعثت من كل هؤلاء، وبقوة، حتى وجدت نفسي امضغ. امضغ وابلع كأنما فمي مليء بذلك الحيوان الغريب الذي يعيش في البحر...

كانت اللذة اكثر من ان تتحملها طاقتي. ولكي امنع نفسي من السقوط امسكت بردن والدي واتكأت على معطفه الصيفي البليل. واخذ ابي يرتجف: لقد كان مقروراً...

سألته: «ابي ايجوز اكل المحار في ايام الصوم؟»

فاجابني: «انك تأكله حياً... وهو يعيش في الصدف... كالسلاحف ولكن بين صدفتين.»

اذن هذا هو معنى المحار! واستطاعت مخيلتي ان ترسمه بكل بشاعته. تصورت نيواناً كالضفدعة، قابعاً في صدفة، يرمقني بعينين كبيرتين براقتين ويحرك فكيه المقرفتين. اي شيء في الحياة يمكن ان يكون مخيفاً اكثر من ذلك لصبي لم يعش في الدنيا سوى ثماني سنوات وثلاثة اشهر فقط؟ يقولون ان الافرنسيات يأكلن الضفادع ولكن الاولاد - لا يأكلونها مطلقاً! ومن ثم تخيلت هذا السمك يحمل من السوق بصدفته ومخالبه وعينيه البراقتين وذِيله اللامع... والاولاد يخبئون انفسهم، والطباخ

Twitter: @ketab_n

يمسكه من براثنه وهو مغمض العينين يتقزز، ثم يضعه في طبق، فيأخذه الكبار ويأكلونه... حياً، وهو يفح ويحاول ان يعض شفاههم.

عبست مشمئزاً. ولكن ما لأسناني قد بدأت تمضغ ثانية؟ كان الحيوان مقرفاً ومكروهاً ومخيفاً، ولكنني اكلته... اكلته بشراهة وانا واجف لئلا اتذوق طعمه او اشم رائحته. كنت آكل في خيالي، واعصابي متوترة وقلبي يخفق بشدة... اتيت على حيوان واحد وللحال رأيت عينين براقتين اخريين لثان... ولثالث... فاكلت هذين ايضاً. واخيراً اكلت المناشف والاطباق وغالوشات والدي واللافتة البيضاء... اكلت كل ما وقع عليه بصري، لانني شعرت ان الاكل وحده سيشفيني مما كنت اشكو. رأيت وميضاً مخيفاً يشع من عيني المحار البراقتين، مما جعلني ادوخ وارتعد لمجرد التفكير به، ولكنني اردت ان آكل، ان آكل. !

ومددت يدي وانفجر صراخ من بين شفتي: «اعطوني بعض المحار! اعطوني بعض المحار!»

وبغتة سمعت صوت ابي الاجش المخنوق: «قرشاً ايها السادة. اني استحي ان امد يدي، ولكن والله ما عدت استطيع ان اتحمل اكثر من هذا.»

وصرخت وانا اتعلق بذيل معطفه: «اعطوني بعض المحار!»

فسمعت صوتاً بقربي يقول «اذن انت تريد ان تأكل محاراً! انت ايها الصعلوك الصغير؟»

وقف امامي رجلان كل بقبعة حريرية، واخذا ينظران الي وهما يضحكان. وقال احدهما يخاطب الآخر «اتعني حقاً ما تقول؟ اهذا القزم الصغير يأكل المحار؟ حقاً، شيء عظيم! ولكن كيف يأكله؟»

ثم اذكر ان يداً قوية دفعتني الى داخل المطعم البراق الساطع الانوار، وفي الحال اجتمع حولي اناس اخذوا يرمقونني باستغراب وتفكه. جلست الى مائدة واكلت شيئاً زلقاً رطباً عفناً. اكلته بنهم دون مضغ، غير متجرىء ان انظر واعرف ما الذي انا آكله. وخيل الي انني فتحت عيني فرأيت في الحال الأعين البراقة والمخالب والاسنان الحادة.

Twitter: @ketab_n

اخذت في البدء امضغ شيئاً صلباً فاحدث القضم صوتاً.

فضحك الجمهور: «عجباً انه يـأكل الاصـداف ! يا حمار، ارأيت احداً يـأكل اصداف المحار؟»

انني لا اذكر بعد ذلك سوى عطشي الهائل. استلقيت على سريري. وكان ابي يذرع الغرفة ذهاباً واياباً وهو يؤشر بيديه.

قال: «انني اصبت بزكام!... واشعر ان هناك شيئاً غريباً في رأسي... كأنما في داخله شيء. ولكن لعل السبب... هو انني لم اذق الطعام اليوم. لقد كنت شاذاً جداً... وبليداً. رأيت اولئك السادة يدفعون مبالغ كبيرة ثمناً للمحار. لماذا لم اذهب اليهم واطلب منهم شيئاً... كسلفة؟ لا ريب انهم كانوا سيلبون طلبي لو فعلت.»

ولما قرب الصباح ونمت، حلمت بضفدعة جالسة في صدفة وعيناها تنتفضان. وفي منتصف النهار ايقظني العطش. ولما طلبت ابي كـان لا يزال يـذرع الغرفـة جيئة وذهاباً ويؤشر بيديه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سارق الحصان

بقلم: ارسكن كولدويل
امريكي (١٩٠٣ -   )

انا لم اسرق حصان لدموزلي. ولقد حاول الناس في كل مكان ان يجعلوا مني لصاً، ولكن كل من له أقل معرفة بي سيخبركم تواً بأنني لم اقع في مأزق كهذا من قبل في حياتي. السيد جون ترنر سيخبركم بكل شيء عني لأنني خدمته سنين عديدة لا أستطيع حصرها بالضبط حتى ليخيل الي انني كنت في خدمته طيلة حياتي مذ كنت ولداً صغيراً. والسيد جون يعرف اني لم أسرق حصاناً. ولهذا اقول انني لم اسرق حصان لدموزلي الذي أقسم اليمين بانني سرقته.

ليلة أمس الاول اخبرني السيد جون أن امتطي فرسه بتسي. قلت له اني أرغب في مشوار قصير لقضاء حاجة لي، فاجاب: خذ بتسي وامتطها ولا ضير عليك من ذلك. وهذا كان شأني بامتطاء الفرس في كل ليلة احد منذ سنتين حتى الآن. واخبرني السيد جون ان آخذ السرج ايضاً، ولكني قلت له ان امتطاء السرج لا يهمني، لانني احب ركوب الخيل وهي بااللجام والعنان، ولا شيء خلاف ذلك، وهي احسن طريقة للركوب. ومهما يكن فان المكان الذي ازمعت الذهاب اليه لم أشأ في ان يكون تحتي هناك سرج يصر ويصرف. ولم يكن السوء في نيتي. ان المسألة كلها قضية شخصية لا يحق لأي امرىء ان يلوموني عليها. كنت امتطي السرج كل ليلة احد

Twitter: @ketab_n

تقريباً، ولكن ليلة أمس الاول كانت ليلة الخميس، وهذا كان السبب في انني لم أمتط السرج.

سيخبـركم السيد جـون بانني لست من أولئـك الـذين يـذهبـون ويقعـون في المشاكل. اسألوا السيد جون عني فهو يعرفني طيلة حيـاتي، وأنا لم اسبب لـه أو لأي شخص آخر ازعاجاً على الاطلاق.

عندما أخرجت بتسي من الاسطبـل في تلك الليلة بعد العشـاء، قدم السيـد جون الى ساحة المزرعة وسألني مرة أخرى ما اذا كنت ارغب في أخذ السرج، والفرس بتسي بارزة العظام قليلاً، ولكنني لم آبه لذلك واخبرت السيد جون بانني سأمتطيهـا عارية الظهر عن طيب خاطر. فقال لي: افعل ما يحلو لك ان كنت ترغب في ان تشطر الى شطرين. خذ الفرس ولا بأس عليك. وكان واقفاً هناك طيلة الوقت وهو يداعب عرف بتسي محاولاً ان يعرف الى اين اريد الذهاب دون ان يسألني سؤالاً صريحاً عن ذلك. ولكنه كان يعرف الى اين كنت ذاهباً لأنه يعرف كل شيء عني. واحسب انه كان يبغي الضحك مني قليلاً، ولكنني لم امكنه من ذلك لانني لم اكشف له عن وجهة ذهابي. وهكذا اخبرني ان لا بأس من ان اركب الفرس بدون سرج اذا كنت ارغب في ذلك. ثم فتحت البوابـة الكبيرة ونـزلت الطريق ممتـطياً الفـرس وميمماً وجهي نحـو مفترق الطرق.

هـذا كان ليلة امس الاول ـ ليلة الخميس. وكـان الظلام قـد خيم منذ فتـرة وجيزة، وكان باستطاعتي ان ارى السيد جون واقفاً عند بـوابة السـاحة الكبيـرة وهو يرقبني وانا ذاهب على ظهر الفرس. وكنت في ذلك اليوم احرث في ارض جديدة وكان التعب قد أخذ مني كل مأخذ، فلم احث الفرس لتعدو بي مثلما كنت افعل كل ليلة احـد. سرت بـالفرس الهوينـا، وتـركت بتسي تسير عـلى رسلهـا لانني لم اكن عـلى استعجال كثير. وكان علي ان اقتل من الوقت ساعتين لان المسافة التي كـان علي ان اقطعها لم تزد عن الثلاثة اميال الا بقليل. وهذا كان السبب في انني سرت بـالفرس متئداً.

يعلم الجميع انني كنت اذهب لمقابلة ابنة لدموزلي الصغرى نعومي. وفي تلك الليلة كنت ذاهباً مرة اخرى لمقابلتها ولكن كان علي الا اكون هناك حتى حوالي التاسعة

Twitter: @ketab_n

والنصف، ولم يكن لدموزلي ليتركني ان اقابلها الا مرة في الاسبوع ـ في ليلة الاحد فقط. وليلة امس الاول كانت ليلة الخميس. ولقد حدث وزرتها ثلاث او اربع مرات من قبل في كل ليلة خميس بحيث لم يكن لدموزلي يعلم عن هذه الزيارات شيئاً. نعومي هي التي اخبرتني ان اذهب لزيارتها في ليلة الخميس. وهذا كان السبب في ذهابي الى هناك لان لدموزلي نهاني عن الذهاب الى بيته الا مرة واحدة في الاسبوع. بيد ان نعومي طلبت الي ان آتي وكانت تخرج لمقابلتي عند الارجوحة تحت الأشجار في ساحة مخزن الغلال.

لم تكن في قلبي ضغينة تجاه لدموزلي بأي شكل من الاشكال. والسيد جون بامكانه ان يخبركم عن هذا. ولكني لا أحب لدموزلي بنوع خاص، وهذا امر متوقع، وهو يعرف لماذا لا احبه. ان مرة واحدة في الاسبوع ليست كافية لرؤية فتاة تحبها كثيراً مثلما احب نعومي. وفي يقيني انها تحبني قليلاً ايضاً والا لما طلبت مني ان اذهب واراها في كل ليلة خميس بينما نهاني والدها عن فعل ذلك. وبظن لدموزلي انني اذا ما ذهبت للقياها اكثر من مرة واحدة في الاسبوع ستدخل فكرة الزواج في رأسينا وسننفذها بدون ان تتاح له الفرصة للتدخل. وهذا ما حدا به لان ينهاني عن المجيء الى بيته الا مرة واحدة في الاسبوع.

انه يدبر الآن امر زجي في سجن الاصلاح لمدة عشرين سنة لسرقتي جواده لايتفوت. واحسب انه يعلم جيداً ويقيناً بانني لم اسرق الحصان، ولكنه يخمن ان فرصة حسنة قد واتته لازاحتي عن الطريق حتى يغدو بامكانه ان يزوج نعومي لشخص آخر. هذه هي الطريقة التي احسب ان قضيتي تسير بموجبها، لأن كل امرىء سمع عني شيئاً في هذه البقعة من الريف يعلم باني لست لص جياد. ان السيد جون ترنر سيخبركم ذلك عني. والسيد جون يعرفني اكثر من ذلك. لقد عملت في خدمته منذ أمد طويل حتى انه جرب مرة ان يجعلني احد افراد العائلة. بيد اني لم أدعه يفعل ذلك.

وهكذا حدث اني في ليلة امس الاول ـ ليلة الخميس، خرجت من البيت ممتطياً بتسي وهي عارية الظهر. فصرفت بعضاً من الوقت في الوادي الذي ينحدر من الطريق ويبعد نحو ميل من منزلنا. وعندما تطلعت الى ساعتي رأيتها قد بلغت التاسعة

Twitter: @ketab_n

تماماً. عندئذ ركبت بتسي وتوجهت نحو مسكن لدموزلي. كان كل شيء ساكناً هادئاً حول البيت ومخزن الغلال. وكان الوقت آنئذ هو الوقت الذي يأوي فيه لدزمولي الى فراشه تماماً. فتوجهت بفرسي نحو بوابة ساحة مخزن الغلال مباشرة كما كنت افعل دائماً في ليالي الخميس. رأيت نوراً يشع من غرفة نعومي حيث تنام مع أختها الكبرى ماري لي. وكنا دوماً نتكل على فكرة انه لربما تكون ماري لي بصحبة شخص ما خارج البيت او تكون قد استعدت للنوم في التاسعة والنصف وذهبت الى الفراش. ولما ارسلت انظاري عبر النافذة استطعت ان ارى نعومي مضطجعة على سريرها واختها ماري لي واقفة بجانبها تتكلم معها عن بعض الامور. وبدا لي ذلك انه امر سيىء لا نه عندما تحاول ماري لي ان تدفع باختها نعومي الى الفراش قبلها فذلك يعني انه لن يكون في وسع نعومي ان تخرج من الغرفة قبل ساعة اخرى او اكثر حتى تنام ماري لي فتستطيع الخروج. كان يتحتم عليها ان تنتظر ماري لي حتى تنام ومن ثم تنهض وتلبس ثيابها في الظلام قبل ان تستطيع النزول الى الفسحة الامامية وتلاقيني عند الارجوحة تحت الاشجار.

بقيت هناك على ظهر بتسي زهاء عشر أو خمس عشرة دقيقة منتظراً كيف سيؤول الامر بنعومي مع اختها. واحسب اننا لو كشفنا سرنا لماري لي لتصرفت حسناً تجاهنا ولكن لسبب ما لم يقر رأي نعومي على قرار خوفاً من مغبة المغامرة. وكان من المحتمل جداً ان تتصرف تصرفاً سيئاً وتفشي سرنا إلى لدموزلي. فلم نشأ ان نجازف.

وبعد انقضاء فترة من الوقت رأيت نعومي تنهض وتبدأ في خلع ملابسها. وعرفت للتو أن ذلك يعني انتظار ساعة أخرى او اكثر حتى تتمكن من الهبوط لملاقاتي. وكان القمر قد بدأ يطلع وغدا المكان يبدو بهياً كالنهار في ساحة الغلال. وكان من عادتي ان افتح البوابة واترك العنان لبتسي طليقاً في الساحة. ولكنني خشيت فعل ذلك في ليلة أمس الاول. فلو نهض لدموزلي ليشرب جرعة ماء او ليقضي حاجة ثم القى بطريق الصدفة نظرة على مخزن الغلال ورأى حصاناً واقفاً هناك فسيبدو له انه احد احصنته فيأتي ليأويه في اسطبله، او انه سيخطر بباله انني انا الذي أقف هناك. ومهما يكن من أمر فانه عندما يرى بتسي سيعرف حتماً انها ليست فرسه، وهناك الطامة. لهذا فتحت باب مخزن الغلال وقدت بتسي الى داخله ووضعتها في اول مربط خال

Twitter: @ketab_n

استطعت ان اجده في الظلام. وخشيت من اشعال عود ثقاب لانه من اين لي ان اعلم ما اذا لم يكن لدموزلي واقفاً في تلك اللحظة امام النافذة وهو ينظر الى الخارج فيرى وميض النور؟ ربطت بتسي في المربط واغلقت الباب وخرجت انتظر نعومي حتى تجد لنفسها فرصة فتخرج لمقابلتي عند الارجوحة في الساحة.

كانت الساعة حوالي الثانية عشرة والنصف او الواحدة عندما استعددت للرجوع الى البيت. وكان القمر قد كسته الغيوم فبان معتماً اكثر من اي شيء آخر في ساحة مخزن الغلال. ولم اكن استطيع رؤية يدي امامي لشدة الظلام. وخشيت ان اشعل النور عندئذ ايضاً، فتحسست طريقي الى ان بلغت باب الاسطبل وفتحته ثم ولجت الى الداخل لاقود بتسي واخرجها. لم يكن في وسعي ان ارى شيئاً، ولما بلغت يدي عنقها ظننت انها اسقطت لجامها كما كانت معتادة ان تفعل عندما يطول بها الوقوف اكثر مما تحب. وخفت من ركوبها الى البيت بدون مقود او ما شابه لاني خشيت ان تنفر وتشرد في الساحة ثم تبدأ المشاكسة والهرج فتوقظ لدموزلي. فتحسست الارض باحثاً عن اللجام ولكني لم اتمكن من العثور عليه في اي مكان. ثم رجعت الى المربط ثانية وتحسسته ظاناً اني انا الذي نزعته بنفسي عندما كنت مضطراً في البداية، فوجدت هناك رسناً معلقاً فوضعته على رأسها وقدتها الى الخارج. وكانت الظلمة لا تزال سائدة حتى اني لم اقدر ان أرى شيئاً. فكان علي ان اتحسس طريقي الى الخارج عبر ساحة مخزن الغلال حتى البوابة الكبيرة. وعندما بلغت الطريق رميت بساقي فوق الفرس وتوجهت نحو البيت دون ان اضيع وقتاً اكثر في منزل لدموزلي. وبدا لي انها تخب بطريقة مضحكة قليلاً وتتمايل كالارجوحة مما جعلني انزلق من جانب الى جانب ولم يكن عليها سرج لأمسك بقربوسه. لقد اضمحلت قواي بالمجهود الذي بذلته كي افلت من هناك ولا اقع في قبضة احد. ولم اعر هذا ايضاً اي اهتمام. ولكني وصلت الى البيت على ما يرام ونزعت الرسن عن رأس الفرس ووضعتها في مربطها. وكان هذا حوالي الواحدة او الثانية بعد منتصف الليل.

وفي الصباح التالي بعد الافطار، وبينما كنت اهيىء نفسي لشد البغال والبدء في حراثة الارض الجديدة قدم لدموزلي مع ثلاثة او اربعة رجال آخرين وبينهم المختار، جاؤوا من البلدة على صهوات الجياد، ثم ترجلوا وربطوا جيادهم على الحاجز. فخرج السيد جون وطبطب بيده على ظهر المختار ثم راح يقص عليه حكاية طريفة. ومكثوا

Twitter: @ketab_n

على هذا الحال زهاء نصف ساعة ثم سأل المختار السيد جون عني فأجابه بأنني كنت اتأهب للذهاب الى الارض الجديدة حيث كنا قد زرعنا حصيلة من الذرة في ذلك الربيع. عندئذ قال المختار ان لديه امراً بالقاء القبض علي. فسأله السيد جون ماذا عسى ان يكون الأمر، وما اذا كانت المسألة مزاحاً او شيئاً من هذا القبيل! فأخبره المختار ان المسألة هي بسبب سرقة حصان لدموزلي لايتفوت. فضحك السيد جون منه ظاناً ان المسألة لا تزال مسألة مزاح، ولكن المختار ابرز الوثيقة وقدمها له، بيد ان السيد جون ما برح غير مصدق وقال ان هناك ولا شك غلطاً وانه يستحيل ان اسرق حصاناً. ان السيد جون يعلم اني لست لص جياد، واني لم اتورط من قبل في حياتي في أية مشكلة على الاطلاق.

ساقوني الى البلدة مباشرة ووضعوني في الزنزانة في سجن المختار. اني على يقين باني لم اسرق حصان لدموزلي، ولذا لم اكن خائفاً مقدار ذرة. بيد انهم بعدما أتوا بي الى البلدة رجعوا جميعهم الى منزلي حيث تفحص المختار مخزن الغلال فوجد حصان لدموزلي الابيض واقفاً في مربط الفرس بتسي. فقال السيد جون لا شك ان الاشياء كلها قد اختلطت مع بعضها البعض وتشوشت لانه يعلم باني لم اسرق الحصان واني لن افعل شيئاً من هذا القبيل. ولكن الحصان كان هناك ـ الحصان لايتفوت بعينه، ورسنه معلق على باب المربط. وبعد ذلك ذهبوا الى منزل لدموزلي وقاسوا آثار قدمي في ساحة مخزن الغلال ثم وجدوا لجام بتسي. وقال لدموزلي بانني امتطيت فرس السيد جون الى هناك ثم اطلقتها، وبعدئذ وضعت اللجام على حصانه لايتفوت وركبته راجعاً. غير انهم لم يقولوا ابداً كيف حدث فأتى الرسن الى اسطبل السيد جون. ولم يكن باب مربط لدموزلي مقفلاً كما انه لم يكن محطماً. ويبدو لي الآن انني نسيت ان اغلقه باحكام عندما وضعت بتسي فخرجت بطريقة من الطرق ورجعت الى البيت من تلقاء نفسها في وقت ما من تلك الليلة.

يقول لدموزلي انه سيسجنني عشرين سنة لكي يفوت عليّ فرصة تعكير صفوه بسبب ابنته الصغرى نعومي. انه يبغي تزويجها من مزارع أرمل يقطن وراء مفترق الطرق ويملك عشرين محراثاً تعمل في ارضه كما يمتلك بيتاً ابيض بخمس عشرة غرفة، ويقول السيد جون انه سيتعاقد مع احسن محام في البلد ليقوم بالدفاع عني. ولكن لا

Twitter: @ketab_n

يبدو أن هذا سيفيدني كثيراً لان آثار اقدامي ظاهرة على طول ساحة لدموزلي وحصانه لايتفوت كان في اسطبل السيد جون.

احسب انني استطيع ان اخلص نفسي بطريقة من الطرق اذا ما قر رأيي على ذلك. ولكنني لا أحب ان افعل شيئاً من هذا القبيل لان هذا سيضع نعومي في مأزق حرج اذا ما قلت بانني ذهبت الى هناك كي أراها وانني وضعت بتسي في الاسطبل لأبقيها هادئة. وعند رجوعي الى البيت أخرجت الحصان لايتفوت خطأ بدلاً من بتسي لشدة الظلام ـ ان هذا سيكون أمراً سيئاً وهذا كل ما في الأمر. وسيتحتم على نعومي ان تقول انه كان من عادتها ان تتسلل من البيت في ليالي الخميس وتأتي لمقابلتي بعد ان يكون كل من في البيت قد نام. وهذا ايضاً سيكون امراً في غاية السوء اذ انها لربما تغير رأيها في يوم من الايام وتفضل ان تتزوج من شخص آخر عوضاً عني فيلحق العار باسمها اذا ما اقترن باسمي في هذه القضية ـ وذلك لانها كانت تنسل من البيت تحت جنح الظلام لكي تلاقيني.

ونعومي تعلم اني لست سارق جياد، وتعلم كل ما جرى تماماً ـ اني اخذت حصان لدموزلي لايتفوت بطريق الخطأ بسبب الظلام وتركت باب المربط مغلقاً بغير احكام فخرجت بتسي وذهبت الى البيت من تلقاء نفسها.

وكان لدموزلي يقول لكل من حوله من الناس في المحكمة كيف انه سيتخلص مني بزجي في السجن عشرين سنة حتى يستطيع ان يزوج نعومي الى ذلك المزارع الأرمل الذي يمتلك عشرين محراثاً. ويخيل الي ان لدموزلي يتباهى بهذا لانه اوقعني في الشرك. ولربما سيتمكن من سجني قبل ان تسنح الفرصة لنعومي لتأتي وتقول ما تعرفه عن حق.

ولكن، على كل حال، لست على يقين ما اذا كانت نعومي ستقول ما تعرف اذا ما سنحت لها الفرصة. ويعلم الجميع ما انا الا رجل يعمل بالاجرة في خدمة السيد جون ترنر، وفي ظني انه لربما تأتي نعومي تلقائياً وتقول ما تعرف.

لشد ما أرغب في ان اذهب الى المختار واوضح له كيف حدث هذا التشويش، ومع ذلك لشد ما اكره ان اذكر اسم نعومي في هذه المشكلة المشوشة. فلو كانت ليلة

Twitter: @ketab_n

الحادث ليلة أحد بدلاً من ليلة امس الاول، ليلة الخميس، لاستطعت ـ ولكن القضية ستبدو في نفس السوء على كل حال.

فاذا اتت نعومي الى البلدة لتقول ما تعرف فلن اوقفها عن قول ما تشاء، لان ذلك سيعني انها راغبة في قوله وانها راغبة في الزواج مني.

ولكن اذا بقيت في البيت وفسحت المجال للدموزلي وذلك المزارع الارمل بان يزجا بي في السجن لعشرين سنة، فهذا يعني اني سارضخ لذلك، هذا كل ما في الأمر.

كنت أقول لنعومي دائماً وابداً اني سأفعل كل ما استطيعه في الدنيا من اجلها، واحسب ان هذا هو الوقت الذي عليّ ان أبرهن فيه ان كنت أنا الرجل الـذي يثبت على كلمته ام لا.

Twitter: @ketab_n

السيدّة الأنوف

بقلم : لزلي بونيت

انكليزي

كان فصل الصيف شديد الحرارة مضايقاً بشكل خاص، وكانت شنغتو القديمة، تلك المدينة الضخمة في قلب السهول الغربية ينضح أهلوها بالعرق في داخل أسوارها، والحقول المسقية بالماء خارجها، والتي امتدت حتى لاصقت متاريسها كانت تتراقص في لمعان أخضر ذهبي.

بيد ان الرطوبة المزعجة خفت حدتها نحو الأصيل ولكن الهواء ازداد شدة، ودارت الشمس اللاهبة نفسها بين أبخرة متزايدة في الاسوداد. ثم قصفت عاصفة رعدية آتية من الجبل الغربي الذي وقف كحاجز مكسو بالجليد. وبينما كان الرعد يجمجم عن قرب يثير الخوف، أفرغت شآبيب المطر السابلة من الشوارع.

وفي الشارع الحقير، المدعو بشارع الأحداث السعيدة، لم يكن هنالك أحد سوى لي سنغ يجابه العاصفة وحيداً، وقد جلس ببلاهة على الرصيف المليء بالحفر، مسنداً ظهره الى جدار المطعم، ومزاريب الماء تنصب من السطح على رأسه وكتفيه، وذقنه مدفوعة الى الامام مستقرة على صدره. غير ان قميصه القطني المنقوع بالماء وسرواله الأزرق الحائل اللون اظهرا هيكلاً متناسقاً بديع العضلات. وكانت هنالك

Twitter: @ketab_n

رقعة اعلان ملطخة تتدلى من عنقه، كتبت بأحرف كبيرة رديئة، تعلن بأن لي سنغ قد تناول وجبة من الطعام في المطعم ولكنه عجز عن دفع ثمنه.

وكادت شلالات الماء المنهمرة عليه ان تمحو هذا الاعلان بسرعة، ولكن حالة كهذه كانت شائعة لدرجة لم تكن لتخفى على أحد. وبموجب العرف والعادة كان على لي سنغ ان يقبع هناك الى ان تتسنى لصاحب المطعم الفرصة ليخرج ويحاسبه أو ان يمكث في موضعه، حتى يراه صديق أو أي شخص آخر يعطف عليه، ويخلصه من محنته تلك بدفع ما يحق عليه من حساب.

هذه كانت حالة لي سنغ بينما كانت قطرات المطر الكبيرة تصفع صفحة الشارع المهجور.

ومع ان ما كان بادياً من قسمات وجهه لم يكن ينم عن عدم الارتياح أو الازعاج فأن ذهنه كان محشواً بالافكار التعيسة. كان قد نزل المدينة باكراً في صبيحة ذلك اليوم آتياً من مزرعته الصغيرة التي يدير شؤونها وحيداً، وسار الطريق كله وهو يدحرج عربته اليدوية تسعة كيلومترات كاملة بحملها المترجرج المترهل وعجل العربة المصنوع من الخشب ويدور على جذع خشبي يزعق طيلة الوقت احتجاجاً بشكل يبعث الرعشة في البدن. وكان الخنزير الموثوق في العربة مقلوباً يحتج هو ايضاً طيلة الوقت الى ان اهدأه البخار المتصاعد بفعل الحرارة.

وبعد ان باع لي سنغ حمله في السوق بسعر جيد ساقته الصدف الى ان يبيع عربته اليدوية ايضاً بثمن مغر، مما جعله ينطلق في شوارع المدينة وجيبه عامر بالنقود وشهيته مهيأة لوجبة طيبة.

ولكن، واأسفاه، بعد ان تناول وجبة كبيرة في المطعم ونهض يريد دفع ما عليه من حساب وجد ان نقوده قد فقدت. ولم يدر أين كان ذلك، ولربما انتشلت منه في احد الشوارع المزدحمة. ولم يكن صاحب المطعم يعرف المحاباة للفلاحين الغرباء، فكان هذا هو السبب في انكماشه تحت انصباب المزاريب في الخارج، بينما راح كل انسان يحتمي من العاصفة في مكان امين.

يقال ان كل مصيبة الى زوال، وان يكن زوال المصيبة يفسح المجال لمصيبة

Twitter: @ketab_n

جديدة تحل مكانها. فسرعان ما مرت العاصفة فوق السهول البراقة، وتلمست الشمس منفذاً لها بين السحب الممزقة المنجابة لتبعث دفئها في شوارع شنغتو، وتطرد القشعريرة من اطراف لي سنغ الصبور.

وسار الناس في الشارع الذي اكتسب نضارة مرة اخرى، وعلت صيحات الدلالين وصراخ الحمالين واختلطت باصوات الأولاد الذين كانوا يقودون الشخصيات ذوي الحيثية وغدت تسمع في لغط جميل. واجال لي سنغ طرفه في الشارع دون أمل أو اهتمام فرأى محفة فخمة مزدانة بنقوش جميلة قد توقفت في وسط الطريق. وإذ وقف حاملوها دون حراك سار احدهم، وقد بدا انه قهرمان، وتوجه نحو لي سنغ القابع وعليه سيماء الكبرياء والنفور. ثم راح يسأل لي سنغ بتنازل مقصود قائلاً: «ألا قل لي ايها التعس، ما هو ثمن اطلاق سراحك الذي كتب بهذه الصورة على هذه الرقعة القذرة؟»

وأعلمه لي سنغ بذلك. فهز القرمان بيده كيساً حريرياً مليئاً بالنقود هزة احتقار ودخل المطعم.

وفي هذه الأثناء أخذ لي سنغ يتفحص المحفة باهتمام جديد من بعيد ولكنه لم يستطع ان يرى من الذي بداخلها ولو ان حركة متتالية في احد الستائر جعلته يعتقد بأنه هو نفسه كان مراقباً من داخل المحفة. ولكن ما لبث ان خرج القهرمان يتبعه صاحب المطعم وهو ينحني أمامه انحناءات عميقة متوالية. ولدهشة لي سنغ العظيمة رأى نفسه ايضاً مشمولاً بهذه الانحناءات والابتسامات.

وسار القهرمان نحو لي سنغ وأشار عليه بالنهوض وقال له: «لقد سر السيدة «ين» ان تعطف عليك وتتكرم بدفع ما عليك من حساب. ولهذا يتوجب عليك ان تمثل بين يديها وتشكرها على صنيعها. اتبع المحفة، ولكن حذار من ان تقترب منها بل اتبعها عن بعد كاف يليق بشخص وضيع.»

ثم توجه القهرمان نحو المحفة وتكلم مع من فيها باحترام زائد، وبعد ذلك صاح حاملو المحفة صيحات غريبه ورفعوا حملهم بينما سار لي سنغ وراءهم وقد التصقت ثيابه المنقوعة على جسمه وعلى اطرافه الضخمة.

Twitter: @ketab_n

واخيراً توقفت المحفة خارج بنيان شامخ لا شباك في جداره الخلفي ويطل على شارع صغير يسوده السكون، ونزلت منها سيدة على وجهها نقاب، متدثرة بثياب براقة، وهي تتوكأ على ايدي الخدم، ثم ولجت في باب ضخم من الخشب المطلي بالأسود. وأشار القهرمان الى لي سنغ بالانتظار ثم تبع السيدة. ولكنه ما لبث حتى عاد وأدخل لي سنغ الى الداخل.

لم ير لي سنغ من قبل مكاناً فاحش الغنى كهذا المكان ابداً. وتبع ناصحه الأيمن في ردهات تتوهج بالألوان وتشع بالانوار. وفي النهاية دفعه القهرمان خلال ستر ترن بالجلاجل فرأى نفسه في غرفة أضواؤها معتمة اكثر من سابقاتها ولكنه لمح السيدة واقفة في نهاية الطرف الآخر منها حيث كانت نافذة تلقي عليها شعاعاً بهياً من نور الشمس.

كانت المرأة طويلة هيفاء خفيفة، ويداها الرشيقتان اللتان انطلقتا من كمي ثوبها الطويلين لتسند بهما نهديها ظهرتا هشتين الى حد غريب. كان شعرها الأسود اللماع مرصعاً بزهور من الياقوت يحيط بوجه شاحب في لون العسل، وقد صبغت الوجنات والجبين بحمرة خفيفة. اما عيناها المائلتان الى أعلى فقد كانتا سوداوين براقتين، ومنخراها الدقيقان يرتعشان قليلاً. كانت لابسة جلباباً أزرق ملوناً كذيل الطاووس والثوب الذي تحته يتوهج بالاحمرار. بيد ان وجهها كان يعبر عن احتقار تام.

وقف لي سنغ في مكانه يحرك قدميه متضايقاً وهو في أشد حالات الارتباك. ولكنه استطاع في النهاية ان يحرك لسانه القروي الذي تعثر بكلمات خشنة وقال: «ان هذا الشخص الحقير يقدم شكره المتواضع وصلواته المليئة بالامتنان.»

وقاطعته السيدة قائلة: «ألم يلحق بك ضرر من تعرضك ذاك؟»

وكاد لي سنغ لا يفهم ما عنته السيدة. إذ ان فكرة البلل والضرر الناجم عنه لم تخطر بباله اطلاقاً. وهز رأسه بارتباك وانحنى مرة أخرى.

وسألت السيدة: «هل أنت قوي وبصحة جيدة؟»

واكد لها لي سنغ بانه في تمام العافية. فمشت السيدة نحوه وحفيف ثوبها الحريري يتنهد. ثم وقفت بجانبه وراحت تنظر اليه وتتفحصه. وهتفت بكلمة

Twitter: @ketab_n

استحسان. فركع لي سنغ امامها سريعاً وهو في أشد حالات التواضع. يا للرأس البديع وكيف وقف بثبات على الكتفين العريضين! وعندما نهض على قدميه أخذ يقدم شكره من جديد ثم انسحب خارجاً وهو ينحني طيلة الوقت.

وجد القهرمان ينتظره ليوصله الى الباب الخارجي حيث سلمه هناك الى البواب. فأخذ هذا يرمق لي سنغ بشيء من الاهتمام وهو يقوده الى الخارج. وبعد أن خرج ترك البواب الباب منفرجاً، ثم راح يشيعه بنظراته وهو يسير في الشارع.

وتردد لي سنغ ثم نظر خلفه. واذ به يرى الرجل النحيف الصغير الحجم بلحيته الشيباء الخفيفة ينظر اليه بطريقة غريبة وهو يملأ غليونه الطويل بعناية. ورجع لي سنغ ببطء تجاهه. ورمقه البواب وابتسامة الشيخوخة على شفتيه. ثم أتى بحركة بغليونه وقال: «حسناً، ما الذي استطيع ان افعله من اجلك يا صديقي؟»

وسأله لي سنغ عن سيدته مستطلعاً مرتبكاً. فقال الرجل العجوز:

«ايها الفتى، ان هذا بيت السيدة «ين» العظيمة وكان زوجها اللورد شانغ قد وافاه الأجل منذ سبع سنوات. وكانت السيدة صغيرة السن يافعة آنذاك، ولم تدم زوجة الا سنة واحدة او سنتين. وكان اللورد شانغ أحد عظماء هذه المدينة، شخصية منهمكة بالاعمال الى درجة عظيمة. ولقد كان رجلاً غريباً بغدواته وروحاته، وكتبه وأعماله. أجل، رجلاً غريباً جداً.

ومنذ ذلك الحين، بعد وفاته، غدت سيدتي سيدة أنوفة ووحيدة جداً. وهي مع ذلك تحظى بمنزلة سامية في أعين الحاكم والقاضي وشخصيات مرموقة مماثلة أخرى. بيد انها تعيش في عزلة تامة ولا تسمح لرجل بمعاشرتها مهما يكن. وأيم الحق، لقد سمعتها بنفسي وهي تعبر مشاعرها هذه بقوة. فلك ان تتصور الوضع الآن. لشد ما اصابتني الدهشة عندما رأيتها تستقبلك على هذا النحو وأنت على هذه الخشونة وهذه البلاهة التي تثير النفور.»

فشكره لي سنغ على معلوماته هذه، وان يكن قد شعر بالاهانة من كلماته الأخيرة ثم راح يسير بتؤدة مفكراً الى ان خرج من المدينة. ولكنه عندما وصل مزرعته وكوخه في الامسية الباردة صرف ذهنه كلياً عن هذه الحادثة، وراح يتأمل كيف ان

Twitter: @ketab_n

عليه ان يعمل بجهد اكبر كيما يعوض عن نقوده الضائعة.

وراح لي سنغ يكد في تلك الايام القائظة بكل ما اوتي من عزم، يشتغل جاهداً في قطعته الصغيرة من الارض التي وهبتها السماء له. ونضج الأرز ثم حصد، وبارك الطقس الحسن غلته.

وفي ذات يوم، ولي سنغ يدرس الأرز مع بعض جيرانه، حل عنده بعض الزائرين. كان معاونوه الجيران، وقد اصاب الوهن اعصابهم، يخبطون رزم الأرز وهم يلهثون بعد ان وضعوها على حافة برميل خشبي لكي تسقط السنابل في داخله. كانوا منهمكين في العمل فلم يتمكنوا من رؤ ية الرجلين القادمين الى ان صاح احدهما قائلاً:

«من منكم المزارع لي سنغ؟»

وتوقف العمل وخطا لي سنغ الى الامام وابتسامة مجاملة على شفتيه. وحالاً قبض الرجلان عليه بخشونة ممسكاً كل منهما بذراع. ولكن سنغ نفضهما عنه بقوة والقى بهما على الأرض بعيداً. ونهض الرجلان واقفين وهما يصيحان مهددين. وقال احدهما:

«ايها الجاهل الأثيم! أتهاجم جباة الضريبة؟ انك مدين ايها اللص بستة موازين من الفضة لدائرة الضريبة. وقد ارسلنا الحاكم لنلقي القبض عليك.»

وتراجع معاونو لي سنغ الى الوراء وتقدم هو الى الامام مبتسماً يطلب العفو عما صدر منه من فظاظة، ولبساطته، ظن في نفسه أنه ما عليه الا ان يوضح لهما بأنه ليست هناك اية ضريبة مستحقة عليه. فيتركانه وشأنه.

ولم يصغ اي من الموظفين الى أعتذاره، بل هدداه بالشرطة ان هو اظهر مقاومة. وهكذا أغرياه بالانصياع لهما.

وقادا لي سنغ في الطريق المغبر، عبر حقول ذهبية، باتجاه مدينة شنغتو. وما ان اقتربا منها ودخلا البوابة الشرقية حتى اخذا يصيحان ويعلنان بصوت عال بأنهما قد القيا القبض على مجرم خطير. وللترفيه عن الجمهور الذي احتشد حولهما راحا

Twitter: @ketab_n

يوضحان تفاصيل المنغصات والعذاب الذي سيلاقيه هذا المجرم الهارب من وجه العدالة عن قريب.

وتحمل لي سنغ مصابه بخضوع وحيرة وراح يهرول بين ساجنيه وهو يوزع ابتساماته على المتفرجين، وبغتة سمع ثلاثتهم صيحة اوقفتهم عن المسير، وما ان التفتوا حتى رأوا القهرمان يصيح ويومىء لهم بالوقوف، وبطرفة عين أخلي سبيل لي سنغ الذي أصابته الدهشة ومن ثم رأى نفسه يتبعه في الشارع وهو مشدوه، ولكن ما فتيء حتى التفت اليه القهرمان وخاطبه بلهجة مقبولة أكثر من المرة السابقة وقال له:

«انه لمن حسن حظك ايها الشاب ان تسمع السيدة «ين» بمصابك.»

ولم يكن في وسع لي سنغ الا بأن يوافق على ما قال ولو انه رأى الأمر عجيباً: اذ كيف يتاح لشخصية مرموقة مثلها ان تسمع بنكبته بهذه السرعة؟

وللمرة الثانية في غضون شهر واحد وجد نفسه في الغرفة المعتمة يعرب عن امتنانه ويقدم شكره للسيدة «ين».

كانت السيدة في هذا اليوم في سربال حريري فاتح الزرقة من طراز يليق بفتاة قروية تلبسه في يوم عيد. وخيل الى لي سنغ بأنها أجمل مما كان يتذكرها. غير ان تصرفها، رغم لطف كلماتها، كان لا يزال مشوباً بالكبرياء.

وبعد ان قدم سنغ شكره دعته السيدة الى الجلوس والى تناول كوب من الشاي. وعندما أحضر الشاي جالسته السيدة واحتفت به بنفسها، وفكر ان هذا منتهى التواضع منها، وهنأ نفسه على ذلك وراح يحتسي شايه بمتعة خرقاء. ولكنه ما لبث حتى نهض وجدد شكرانه وقدم اعتذاره قائلاً: بأنه يتوجب عليه الانصراف الآن والعودة الى مزرعته لكي ينهي درس الأرز.

وابتسمت السيدة «ين» ببرود في وجهه اللهوف النحيل وقالت: «بالطبع، لا بد ان درس الأرز قيمته عظيمة لديك.»

وقاده القهرمان كالمرة السالفة. وفي اثناء سيره في الردهة سمع صوت تحطم في

Twitter: @ketab_n

الغرفة التي تركها، وفكر لا بد ان آنية جميلة قد سقطت من يدي السيدة. وتمتم القهرمان ببعض الكلمات واسرع في سيره. وعندما خرج لي سنغ الى الشارع لمح البواب يضحك بصوت منخفض. مع انه لم يكن هناك ما يبعث على الضحك.

لقد قيل مراراً وتكراراً بأنه اذا ما وجهت الأرواح الشريرة همها نحو شخص معين، فإنه يغدو بعد ذلك ضحية لصدمات متتالية، ولهذا، بعد مرور اسبوع من الزمن، كاد ان يندهش لي سنغ عندما هاجمه اربعة من الاوغاد اثناء مروره في حرش في احدى الاماسي وهو عائد من سفره لاحدى القرى المجاورة، وهددوه بسيوف تبعث الرعب في القلب.

ولم يستطع لي سنغ ان يفهم لماذا يهاجم قطاع الطرق شخصاً فقيراً مثله، ثم يختطفونه، ولكنه فكر بأنه ليس من الحكمة ان يناقشهم الآن في هذا الموضوع. ولهذا تركهم يقتادونه بأقل ما يمكن من الضجيج. وقال في نفسه لربما منيت العصابة بموت احدهم ولذا فانهم في حاجة الى شخص قوي يحل مكانه. ثم جعل يفكر اليس الأجدى له لو احترف مهنة كهذه، ويترك مهنة الزراعة حيث الفرد فيها يبقى اضحوكة لكل وغد لئيم.

بيد ان اللصوص لم يفاتحوه بهذا الموضوع. وكان مركزهم بين ابنية خربة تبعد بضعة أميال فقط من اسوار المدينة وعاملوه هناك بشيء من الخشونة ولكنه شاركهم في وجبة عشاء ممتازة ثم ذهب لينام بقليل من الانزعاج ممزوج بثقة بسيطة بان كل شيء سيؤول الى ما يرام.

وفي الصباح تحققت ثقته، إذ لم تمض ساعتان على شروق الشمس إلا ورأى قهرمان السيدة «ين» تتبختر قامته بجلال في وكر العصابة. ولم يسمع ما دار بينهم من حديث ولكنه رأى نفسه بعد ساعة من الزمن يتبع القهرمان متوجهاً نحو شنغتو.

وعند الأصيل كان مرة أخرى في حضرة السيدة الجميلة التي باتت معروفة لديه الآن. كانت في رداء اخضر باهت فضفاض، وشعر لي سنغ بعدم الارتياح، إذ بدا له انه اقلقها في وقت راحتها، بيد انه راح يقدم لها شكره بسهولة اكتسبها من خبرته في المرات السابقة والتي كادت ان توصله الى حد الكمال في هذا المجال. ولكن بدا ان

Twitter: @ketab_n

السيدة نفسها بدأت تفقد ثقتها بنفسها بينما جعل ضيفها يزداد ثقة على ثقة. وعندما رأى وجنتيها تتوردان ثم يخبو لونهما على التوالي، ويدها ترتعش وهي تلمس الزهور المثبتة في شعرها. راح يناجي نفسه بشيء من المتعة: «يبدو لي انها تكاد تكون خائفة مني.»

ومهما يكن من امر لم يكن المجال مجال استغراب وتكهن بل اكتفى بأن اعرب عن امتنانه بسخاء مفرط.

وسألته السيدة كيف كان الحصاد معه وكيف يعيش وكيف يأكل. واسئلة اخرى مشابهة لا هدف منها. وإذ كان يجيبها بصدق وإخلاص كانت ترمقه وهي شاردة اللب.

وفكر لي سنغ: «يبدو لي انها تريد ابقائي هنا.» ثم ضحك من فكرته السخيفة هذه وقال في سره: «لا بد انها تعبة.» وسرعان ما راح يجدد شكره على تخليصها اياه من أسره.

وابتسمت السيدة «ين» ابتسامة ودودة ودعته الى الجلوس. ولكن سنغ اعتذر عن ذلك وقال بانه يتحتم عليه الاسراع بالعودة الى البيت لأن باله مشغول جداً على جاموسته.

وعلقت السيدة على عذره هذا تعليقاً غريباً. وقالت: «بالطبع، اذا كنت تفضل ذلك». ثم راحت في ضحك كثير، وسألته: «هل أنت مغرم بجاموستك؟»

فأجاب سنغ بحرارة: «أجل، جداً.» ثم أخذ ينسحب يريد الخروج وهو ينحني طيلة الوقت. وعندما خرج من بين الستر قذفه احدهم بكوب شاي من الصيني الرقيق تحطم على مؤخرة رأسه.

لم يؤذه ذلك كثيراً وفكر أنه من الافضل له ألا يلتفت الى الوراء، وقال في نفسه: «ان هؤلاء الناس المرموقين طرقهم غريبة والله. ولكن علينا ان نتقبل الرديء مع الجيد.» ثم خرج.

وفي أثناء سيره كان يسائل نفسه مستغرباً لماذا غمزه البواب عندما خرج. لا

Twitter: @ketab_n

شك ان الجرح الصغير الذي احدثه تحطم الكوب على رأسه هو الذي دفعه الى ذلك.

وعندما ألقي القبض على هذا الشاب البسيط بعد نحو ثمانية أيام بتهمة قتل باطلة كاد ألا يشعر بأي اهتمام. وسار مع مأمور التنفيذ الى السجن باعظم ما يكون من رباطة الجأش، وحيا السجان بثقة وكأنه صديق قديم. لقد كان متأكداً بان السماء والسيدة «ين» سيرسلان القهرمان اليه. وهكذا، عندما زاره رئيس السجانين في الصباح التالي ليحييه تحية ذات مغزى، توقع لي سنغ ان يرى وراءه شخصية القهرمان القوية، ولكن لشدة استغرابه وجد السجان وحيداً وعندما رد على اسئلة السجان اللطيفة بأن لا شيء ثمين لديه يقدمه له هدية، اصابته الدهشة عندما وجد نفسه يدفع بخشونة الى الخارج الى فناء معتم كرب حيث قبض عليه مخلوقان لهما هيئة شيطانية، وانهالا على عضلات كتفيه بالضرب السخين باعواد مرنة من الخيزران.

كان سنغ يصيح بكل ما اوتي من قوة، وصوت صراخه يصل الى عنان السماء عندما وصل القهرمان. لقد كان من سوء الحظ ان يؤخر هذا الرجل القدير شخص رآه صدفة في الطريق. ولهذا كان يلهث من شدة استعجاله وعليه إمارات القلق والاهتمام عندما اندفع داخلاً الى الفناء وراح مع رئيس السجانين في جدال عنيف على فعلته.

وصدرت اوامر بصوت عال بايقاف الضرب. ثم سلم سنغ المسكين الى حاميه الرسمي مع الاعتذار والكلمات الطيبة. وإذ هما يسيران نحو القصر الكبير كان القهرمان بادي الانزعاج كثير الكلام على غير عادته في هذه المرة وراح يحث لاهثاً سنغ المتثاقل في سيره: «اسرع ايها السيد المحظوظ، اسرع!»

وذهل سنغ من هذا الاسلوب الغريب الجديد في مخاطبته. وسأله: «ماذا يتوجب علي ان أفعل الآن؟»

فقال القهرمان وعليه سيماء القلق والاستعجال: «يجب ان تستحم قبل كل شيء، ثم يطيب ظهرك، وبعد ذلك تتحلى بلباس لائق. لقد راحت السيدة «ين» تحطم كل شيء يقع تحت بصرها. واني لشديد الخوف على نفسي. ولذا فاني آمل، يا سيدي الطيب، ان استحق وساطتك لديها.»

Twitter: @ketab_n

وعمل سنغ كل ما في طاقته ليجاري القهرمان في سرعته وهما يهرولان، ثم راح يسائل نفسه: «ما الذي تريده مني السيدة «ين» يا ترى؟»

ومرة أخرى واجه الباب الخشبي الأسود المعروف، وقاده القهرمان وهو يخاطبه باحترام زائد، وانحنى له البواب انحناءة عميقة.

وقال لي سنغ في نفسه: «حقاً ان هؤلاء القوم لمجانين!»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ودقت الساعة الثانية عشرة

بقلم: جيمز هلفيك
انكليزي

قال وهو ينهض ليجيب على المكالمة التلفونية: «لماذا تجفلين هكذا كلما رن جرس التلفون؟»

ورمقها من طرف وخرج عابساً. وجلست ماريون متصلبة، وشفتاها المكتنزتان منفرجتان، وعيناها شبه مغلقتين وهي في وضع كله آذان صاغية مع انها كانت تعلم ان ما من أحد يستطيع أن يسمع ما يقال على التلفون من هذا الركن من الشقة.

وهتف هنري وهو يدخل الغرفة ثانية: «ما الذي دها الساعة الدقاقة؟» كان رجلاً ضخماً وسيماً أسود الحاجبين. ألقى نظرة على حنجرتها وصدرها، وبدا له أنها في تلك اللحظة تمالكت نفسها. ثم أرسل بصره من خلال الباب المنفرج على الساعة الدقاقة المزخرفة وهي منتصبة برشاقة على اعمدتها السوداء المذهبة في الممر وقال: «لن يكون في وسعهم إصلاحها إلا بعد السنة الجديدة»

وعندما استدار بظهره نحو مائدة الافطار كانت عيناها تشعان جمالاً وهما ترمقانه.

قالت: «انك تبدو كشرطي من شرطة الخيالة، أو بالاحرى كجواد شرطي

Twitter: @ketab_n

الخيالة، قادراً على الاندفاع، ولكن في حالة الشغب فقط.»

ورماها بنظرة فاحصة. من السخف أن يزعم من يـراها بـأنها لم تكن تتوهـج بأعراض المرأة الواقعة في عشق جديد.

وقـال بخشونـة: «حسناً يـا ماريـون، لم تخبريني بعـد لماذا جفلت عنـدما رن التلفون. يخال المرء أن لك عشيقاً، وانك كنت تتوقعين أن يخابرك»

فأجابت: «لا تكن سخيفاً»

وران صمت ثم قال بخشونة: «ولكنك لم تخبريني بعد لماذا جفلت هكذا. لا بد ان ثمة شيئاً خفياً. ما هو يا ماريون؟ أريد أن أعرف».

وضعت أصابع كلتا يديها على جبينها للحظة في ذهول ثم قالت: «انه... في الواقع لم اخبرك به على الفور. يا هنري، لأنني ظننت انك ستجده سخيفاً، انه حلم حلمته».

فقال ببطء: «أي نوع من الأحلام؟»

وتابعت وخدها ملقى بارتخاء في راحة يدها، وعيناها على المائدة كانما هي تكلم نفسها: «انه أمر يبعث على الحيرة. في الليلة الماضيـة حلمت ان اخي لانس.. أتى وجلس على السرير واخبرني بأنه مات بعد منتصف الليل تماماً. لا بد انه كان حلماً، ولو كنت شاعرة طيلة الوقت بأنني مستيقظة وان اخي لانس كـان حقاً هنـاك. وكان باستطاعتي ان أراك انت ايضاً مضطجعاً غارقاً في النوم كالعادة». وتوقفت برهـة ثم تابعت: «واخبرني لانس اني في هذا الصباح سـأعرف انني رأيتـه رؤية حقيقيـه، لأن شخصاً ما سيكلمني في التلفون من كورونوال ويخبرني بأنه قد وافاه الأجل هناك الليلة الماضية».

وتفرس هنري وجهها ملياً وظهر كأنمـا فقد شيئـاً من اعتداده بنفسـه ثم قال: «حسناً، لم يخابـرك أحد بعـد حتى ولو...» وتـردد قليلاً ثم تـابع: «اعني ان لانس مريض جداً منذ زمن طويل، واعرف انكما متعلقان ببعضكما تعلقاً شديداً، ولكن هل ستصدمين صدمة قاسية؟ اعني إذا مات حقيقة؟»

Twitter: @ketab_n

وراحت تخاطب المائدة كأنها تتكلم في نومها «هذا صحيح ولكنه اخبرني أشياء أخرى في الحلم. .» ثم رفعت رأسها بفتنة وألقت ببصرها عليه عبر المائدة بعينين مليئتين بالرعب وتابعت: «قال لي ان اعتبر هذا انذاراً لنفسي. اخبرني. . .» وانخفض صوتها «بانني لن اعيش حتى ارى السنة الجديدة».

فقال هنري: «لن تعيشي حتى السنة الجديدة؟ ولكن هذا. .»

كان صوتها منخفضاً غير انه كالصراخ. وهمست: «لا، لن اعيش حتى السنة القادمة. اعني غداً ألا تفهم؟ غداً». . . ونظرت الى الساعة برعب «اربع عشرة ساعة ونصف ساعة من الآن» وشهقت بأنفاسها.

واتكأ هنري منحنياً كما لو انه يريد ان يطبطب على يدها ولكنه نهض عوضاً عن ذلك واخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو يفتش على علبة السجاير. وقال: «انظري اني لا اعرف ما اذا كنت تلفقين كل هذا لتضلليني، ولكن اذا كان الأمر عكس ذلك اذا كنت حقيقة حلمت بذلك فانني أرى ان الحلم الرديء يجب ألا يكون باعثاً على الانزعاج. .

واصرت قائلة كمن يتلو ابياتاً من الشعر نصف مفهومة: «قال انني عندما أتلقى نبأ وفاته سيكون ذلك علامة على أنه يتنبأ نبوءة صحيحة من. . . من حيث هو الآن. . .»

وقال هنري: «لن يبرهن ذلك على أي شيء. ومهما يكن من أمر فانك تعرفين أنه مريض يا ماريون، مريض الى درجة خطيرة. وقد كنت متعلقة به جداً طيلة حياتك وانا اعتقد انه يحدث فعلاً احياناً بين الأخوة والأخوات أن يشعر احدهم بتبادل الخواطر بما يجري للآخر».

واستدار من أمام النافذة بلفتة قوية ومد ذراعه بحركة رجاء وقال: «أصغي يا ماريون. انه امر غير معقول. يستحيل ان تصلك انذارات خارقة في شارع عصري كهذا وفي سنة ١٩٦٤. بكل بساطة ان هذا غير ممكن. واخوك لانس هو آخر من يطلب أن تأخذي الحلم جدياً. يجب أن تتحققي من ذلك ولذا دعك من هذا، وأنسيه، أتسمعين؟

Twitter: @ketab_n

ورأى أنها كانت ترتجف، فخطا نحوها ووضع ذراعه حول كتفيها، وبدا أنه قد تخلى عن الظن بأن قصة الحلم كانت خديعة تضلله عن العاشق المحتمل.

فقالت باعياء: «فليكن يا هنري، وارجو ان تكون مصيباً. لا بد انني فقدت صوابي.»

بعدئذ اخذ التلفون يرن ثانية فشدت بيدها بقوة على فمها فخطا هنري وخرج من الغرفة وبقي غائباً لفترة طويلة. وعندما رجع نظرت اليه بايجاز وقالت دون سؤال:

«كانت المكالمة من كورنوال عن لانس. لقد مات.»

فأومأ هنري برأسه وانحنى وهو يجرب ان يضع ذراعيه حولها ولكنها دفعته وذهبت الى النافذة تنظر من خلالها الى اسفل.

أخذ يحوم حولها والرهبة بادية عليه من هول المصادفة، ولكنه بقي يثرثر عن امكانية تبادل الخواطر بين البعدين واراد أن يلغي مواعيده الصباحية لكي يستطيع ان يبقى بجانبها، ولكنها توسلت اليه ان يبقيها كما لو انه لم يحدث شيء، وقالت: «اني اريد ذلك يا هنري لأنني... لأنني سأكون احسن حالاً إذا ما بقيت وحدي لفترة وجيزة.»

وقال بكآبة بعد ان قبلها قرب الباب: «اني آسف على ما قلته اذن... عندما سألتك لماذا كنت تجفلين».

فأجابت: «لا بأس يا هنري» وعندما خرج واغلق باب الشقة الأمامي وراءه وسمعت صوت المصعد وهو ينزل، ركضت كالسهم عبر القاعة نحو التلفون، وادارت القرص على أحد الأرقام. وعندما أجابها صوت رجل قالت «حبيبي، حبيبي» ثم راحت تتنهد للحظة بحالة هستيرية. وكان الصوت في الطرف الآخر مهتاجاً، متشوقاً ناعماً. «ولكن ماذا بك يا حبيبتي يا ملاكي ماذا جرى؟ اخبريني يجب ان تخبرني».

وفي لهثات متقطعة بموجات من هستيريتها احياناً، واحياناً بصوت عشيقها وهو

Twitter: @ketab_n

يتساءل برقة كمن لا يصدق، اخبرته القصة بكاملها. وعندما وصلت الى قصة الحلم أضافت اليها شيئاً لم تخبره من قبل لهنري:

«وسألت لانس يا بيتر وهو جالس هناك على سريري، سألته ما الفائدة من انذاري اذن اذا كان هذا الأمر... اي انني لن أرى السنة الجديدة... سيتم رغم كل شيء. وقلت أليست هناك وسيلة استطيع اللجوء اليها؟ أما من مخرج لذلك؟ فقال لانس: ما من أحد مقضي عليه قضاء مطلقاً ولربما كنت محتاطة جداً فلعلك تستطيعين الافلات من القضاء. وبعدئذ، يا بيتر، نظر إلي بحزن شديد وقال: «ولكن بما انني اعرفك واعرف عواطفك جيداً لا اظن انك ستفعلين ما يجب فعله لكي تنجي».

وانتظرت وهي تصغي الى صمت الطرف الثاني من السلك ثم اردفت: «انه امر يتعلق بنا يا بيتر اني احسه، لا بد انني سأعاقب... بسببنا».

فقال صوت بيتر: «هراء يا حبيبتي، بالله تشجعي».

فقالت بلجاجة: «ولكن الأمر ليس هراء، فقد رأيت هنري هذا الصباح وهو يشك في شيء يكاد يكون يقيناً لديه. وقال ـ وهذا ما قاله حرفياً ـ انك تظهرين كامرأة تنتظر نداءً هاتفياً من عشيقها».

«يا لله... هل قال ذلك؟»

«نعم. وأنا متأكدة ان حلم لانس كان انذاراً لنا وعنا».

فقال صوت بيتر: «ولكن هذا ضرب من الوهم حتى لو كان هنري... حسناً أعني أنه لن يقتلك كما تعرفين وهذا هو ما تشيرين اليه ضمناً أليس كذلك؟»

«أنا لا اعرف ما الذي سيفعله. وكل ما اعرفه هو أنني أشعر بفزع شديد يا بيتر واريد ألا نتقابل اليوم الى ان يزول الخطر وليكن هذا نوعاً من انكار الذات، وكما ترى إذا تنازل احدنا عن الآخر اليوم فسيكون ذلك برهاناً على ان لانس كان مخطئاً عندما قال بأنه يعرف ان عاطفتي تجمح بي، ولذلك دعنا نحول برنامج اليوم لمرة واحدة فقط يا حبيبي ولهذا لن أحضر الى شقتك اليوم...».

Twitter: @ketab_n

وبعد جدال وافق بيتر، ثم غدا صوته ثابتاً مهدئاً. وقال: «لا تقلقي، انها مجرد صدفة لا اكثر وسأكلمك هاتفياً غداً صباحاً لأقول لك كل عام وأنت بخير وستجيبين و. . .».

فقالت: «آه، نعم. اعمل كما قلت يا بيتر ولكن انت اول من يكلمني بالهاتف بعد منتصف الليل. كلمني في الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق الليلة. . . وعندئذ اكون قد رأيت السنة الجديدة وسأطمئن الى ان كل شيء على ما يرام».

فقال صوت بيتر: «ولكن ماذا عن. . .»

فأجابت: «آه، انه دائماً ينام كالحطبة، وسأشجعه على شرب زجاجتين من الخمر البورغاندي على العشاء وسألح عليه بقليل من نبيذ البورت بعد ذلك، وفي العاشرة والنصف سيكون قد غاب عن الدنيا. كلمني في الثانية عشرة وخمس دقائق تماماً وسأنتظر بجانب التلفون. الأفضل ان تكلمني انت لأنه إذا سمعني اثناء ذلك سأقول له انه رقم مغلوط».

كان العشاء قد انتهى لفترة طويلة خلت، وآوى هنري الى فراشه. وجلست ماريون تمعن النظر في نفسها في المرآة. كانت قد صادفت عناءً حتى جعلت هنري ينام في غرفته وهو ما انفك يردد «امتأكدة انت على ما يرام؟» حتى ظنت نفسها انها ستصرخ. ثم بدأت تشعر بموجة من الارتياح، لم يحدث شيء وكان يجب أن لا يحدث شيء. وغداً ستأخذ قطار الساعة العاشرة والنصف صباحاً وستجرى جنازة لانس في اليوم الذي يليه. ومشت نحو النافذة لتسحب الستائر بصورة محكمة، فلفت نظرها السلم الحديدي الخلفي الخاص بالهروب عند الطوارىء، واحتارت من اي مكان يمكن الوصول اليه، امن نافذة غرفة أم من نافذة غرفة هنري؟ فلو حدث فرضاً شيء مثير، شيء فظيع، وهجم عليها هنري. . . تصورت نفسها تنزل مهرولة على هذا السلم وهي في جلباب النوم وهنري يركض وراءها، يحقرها ويشتمها بأقبح الشتائم. . . يا للسخف، وشعرت انها الآن أحسن حالاً بكثير وانها ابتسمت لهذا الخاطر. . .

وفجأة وفي وسط السكون علت رنات ناعمة لم تستطع للحظة ان تستعيد في ذهنها ما عسى هذا ان يكون. ثم عرفت انها الساعة الدقاقة في الممر وهي تعزف

Twitter: @ketab_n

الأرباع الناعمة قبل الساعات، وابتدأت تدق وهي تصغي وتعد بدقة وحذر، تماماً كما كانت تفعل دائماً عندما تكون وحدها او متيقظة في الليل. ودقت الساعة اثنتي عشرة دقة. وجلست هناك لبضع ثوان وعقلها لا يسجل شيئاً سوى الحقيقة وهي ان الساعة كانت الثانية عشرة.

ثم لهثت ووضعت يديها على رأسها وجلست هكذا دون حراك لدقيقة كاملة. وتحركت شفتاها وهمست لنفسها: «يا لله ان كل شيء على ما يرام. انها سنة ١٩٦٤، وانا سالمة، لقد نجوت» وكررت هذه الكلمات لنفسها مرات ومرات كرقية سحرية.

ومشت على رؤوس اصابعها الخطوات القليلة حتى وصلت باب غرفة هنري ووقفت هناك تصغي وهي تبتسم ابتسامة انتصار صغيرة الى تنفسه الرتيب وغدت تحصي الوقت الآن بالثواني. ومشت على رؤوس اصابع قدميها الممر الطويل حتى المائدة ووقفت تنتظر ويدها اليمنى ممدودة مستعدة لخطف سماعة التلفون في اللحظة التي يرن فيها. وجعلت تعد الدقائق حتى بلغت السبعة ثم الثمانية بعد الثانية عشرة. ثم لم تستطع الانتظار اكثر من ذلك فأدارت قرص الأرقام بتلصص على رقم بيتر وانتظرت وهي ترتعد.

وقال صوت بيتر: «هلو؟»

فأجابت: «حبيبي، ماذا دهاك؟ لم احتمل الانتظار، كان المفروض ان تتلفن لي في الثانية عشرة وخمس دقائق ولقد فاتت ذلك الآن».

قال صوت بيتر: «ولكن الساعة الآن ليست الثانية عشرة وخمس دقائق يا حبيبتي. انها الثانية عشرة إلا ربعاً. لقد دقت الآن ساعة بيغ بن واعلنت الأرباع الثلاثة، لا بد وان ساعتك متقدمة يا مدللتي».

وفي تلك اللحظة استدارت ورأت هنري في بيجامته واقفاً وراءها.

ولهثت: «لقد سمعت... وعرفت؟..» واسقطت سماعة التلفون وبعدئذ اندفعت تركض في الممر وليس في تفكيرها سوى الهرب من امامه.

حاول هنري ان يمسك بها وهي تركض ولكنها قاومته بفزع جنوني وتملصت منه

Twitter: @ketab_n

مندفعة نحو باب غرفة نومها وسمعته يركض وراءها، ومرقت كالسهم في الغرفة نحو النافذة وفتحتها ثم وضعت ركبتها على حافتها بحركة خرقـاء ملؤها الـرعب والفزع وقفزت تحاول الامساك بسلم الطوارىء. ووصل هنري النافذة في اللحظة التي سمعها وهي تصرخ عندما اخطأت السلم وسقطت في الظلام على قارعة الطريق.

Twitter: @ketab_n

المنبوذون

بقلم: بريت هارت
امريكي (١٨٣٦ ـ ١٩٠١)

عندما خطا السيد جون أوكهرست، المقامر، أول خطوة في الشارع الرئيسي في ناحية بوكرفلات في صباح اليوم الثالث والعشرين من تشرين الثاني عام ١٨٥٠، كان شاعراً بتغير طرأ على جو الناحية الأخلاقي منذ الليلة السابقة. وكان ثمة رجلان أو ثلاثة يتحدثون بحرارة، الا انهم توقفوا عن الكلام عندما اقترب منهم، وأخذوا يتبادلون نظرات ذات مغزى.. كان هدوء كهدوء يوم الأحد يسود الجو، فبدا ذلك نذير بالشؤم في ناحية لم تتعود فضائل أيام الآحاد.

غير ان وجه السيد أوكهرست الوسيم الهادىء لم ينم الا عن اهتمام بسيط بهذه الدلائل. أما ما اذا كان شاعراً في دخيلة نفسه بأي نذير، فهذا أمر آخر.. قال لنفسه: «اظنهم وراء شخص ما، ولعلي أنا ذلك الشخص!» وأعاد الى جيبه المنديل الذي كان ينفض به غبار بوكرفلات الأحمر عن حذائه الانيق، ثم طرد بهدوء أي افتراض آخر من فكره.

في الواقع كانت ناحية بوكرفلات «وراء شخص» ما فعلاً فقد عانت في الآونة الاخيرة خسارة عدة آلاف من الدولارات، وجوادين ثمينين، ومواطن بارز، فاختلجت فيها اختلاجات الفضيلة... اختلاجات خارجة على القانون، ولا ضابط

Twitter: @ketab_n

لها كتلك الأفعال التي كانت السبب في اثارتها في البداية. وصممت لجنة سرية على تخليص البلدة من جميع الاشخاص المشبوهين، وقد تم ذلك نهائياً، بحق رجلين اثنين كانا معلقين من أغصان جميزة في الوادي الصخري العميق، ومؤقتاً، بحق بضعة اشخاص آخرين غير مرغوب فيهم، وذلك بطردهم وابعادهم عن البلدة. ويؤسفني ان اقول ان بعضاً من هؤلاء كن سيدات. ولكن من الانصاف للجنس الآخر ان نذكر ان افعالهم المعيبة كانت من صلب مهنتهن. وبمقاييس للفساد وكهذه أقيمت بسهولة، تجرأت ناحية بوكرفلات على إقامة نفسها قاضية للبت في الأمر.

كان السيد أوكهرست مصيباً في تخمينه بأنه من ضمن هذه الفئة. فقد طالب عدد من اعضاء اللجنة بشنقه ليكون عبرة للغير، ولكي يستعيدوا منه، على وجه اكيد، المبالغ التي ربحها منهم.

وقال جم ويلر بهذا الصدد: «أنه لما ينافي العدالة أن نسمح لهذا الشاب ـ وهو الغريب عنا كل الغربة ـ بالافلات، حاملاً معه نقودنا.» ولكن عاطفة فجة من الانصاف تعمر في صدور اولئك الذين كان قد اصابهم قسط من الحظ فربحوا من السيد أوكهرست، اعترضت على هذا التحامل الشخصي الضيق، وابطلت مفعوله. وتلقى السيد أوكهرست الحكم عليه بهدوء فلسفي، وبنفس البرود، أحس بتردد قضاته. ولا عجب، فهو ما كان ليكون مقامراً حقيقياً لو أنه رفض حكم القدر. وكانت الحياة في أحسن صورها بالنسبة اليه لعبة غير أكيدة، كما أنه كان معترفاً حق الاعتراف بالنسبة المئوية المألوفة لصالح موزع الورق.

واقتادت شلة من الرجال المسلحين أهل الفساد المبعدين من بوكرفلات الى خارج الناحية. وفيما عدا السيد أوكهرست، الذي عرف عنه انه رجل مستيئس لا يضطرب، والذي ارادوا بالحرس المسلح ارهابه، كان المنفيون يتألفون من امرأة في مقتبل العمر اشتهرت لدى السكان باسم «الدوقة» ومن أخرى اكتسبت لقب «الأم شبتُن»، ومن «العم بيلي»، وهو لص مشبوه وسكير عريق. ولم يثر الموكب تعليقات من المشاهدين ولم يتفوه الحرس بكلمة، الا عندما وصلت الجماعة الى الوادي الضيق الذي كان أبعد نقطة لحدود ناحية بوكرفلات، فتكلم القائد بايجاز وفي الصميم، محرماً العودة على المبعدين، ومنذراً اياهم بالموت إن عادوا.

Twitter: @ketab_n

وما أن اختفى الحراس حتى وجدت مشاعر المبعدين المكبوتة متنفساً في دموع هستيرية قلائل انسكبت من عيني الدوقة، وفي بضع كلمات بذيئة تفوهت بها الأم شبتن، وفي دفق ودواعي من الكلمات الجوفاء من العم بيلي. أما أوكهرست الفلسفي التفكير، فإنه وحده ظل صامتاً. أصغى بهدوء الى رغبة الأم شبتن في انتزاع قلب أحد الناس، والى عبارات الدوقة المتكررة بانها ستموت في الطريق، والى الشتائم المخيفة التي بدت وكأنها تنقذف من العم بيلي وهو ينطلق راكباً. وبالمرح الهين الطيب الذي تتميز به طبقته، أصر أوكهرست على استبدال جواده المسمى «خمس بقع» بالبغل الكئيب الذي كانت الدوقة تمتطيه. ولكن حتى هذه الالتفاتة أخفقت في التقريب بين عواطف الجماعة. وسوت المرأة الفتية بأناقة هزيلة ذابلة هندامها الأشعث، وحدقت الأم شبتن في صاحبة «الخمس بقع» بعين الشر، وأجمل العم بيلي الجماعة بكاملها في لعنة واحدة كاسحة.

كان الطريق الى «ساندي بار» يمتد عبر سلسلة من الجبال الحادة الانحدار. وساندي بار هذا كان مخيماً لم يعرف بعد المؤثرات الاخلاقية السائدة في بوكرفلات، فبدا لذلك وكأنه يرحّب بالمهاجرين. وكان يبعد عن بوكرفلات بمسيرة يوم شاقة. وفي ذلك الفصل المتقدم سرعان ما ودعت القافلة مناطق سفوح التلال الرطبة المعتدلة المناخ ودخلت الجو البارد الجاف الصحي لسلسلة جبال السييرا. وكان الممر ضيقاً وصعباً. وعند الظهيرة، وبعد أن سقطت الدوقة من على ظهر مطيتها وتدحرجت على الارض، أعلنت عن نيتها بعدم متابعة السير، فتوقفت القافلة.

كانت البقعة فريدة في وحشتها، قوية الفعل في النفس. وكان ثمة مسرح طبيعي مستدير من الاحراج محاط من ثلاث جهات بصخور شديدة الميلان من الغرانيت العاري، ينحدر بلطف نحو حافة هوة أخرى تشرف على الوادي. فكان المكان، ولا شك، أنسب بقعة للتخييم، لو كان التخييم أمراً حكيماً. ولكن السيد أوكهرست كان يعلم ان نصف الطريق الى ساندي بار لم يقطعوه بعد، وأن القافلة لم تكن مجهزة بما يسمح بالتواني. فذكر هذه الحقيقة لرفاقه بايجاز، واردف تعليقاً فلسفياً على حماقة «رمي اوراقهم بعد انتهاء اللعب» الا انهم كانوا مزودين بالشراب الذي قام عندهم، في هذه الظروف الطارئة، مقام الطعام، والوقود، والاستراحة، وبعد النظر. وعلى الرغم من تحذيرات أوكهرست، لم يمض وقت طويل الا وكانت الجماعة

Twitter: @ketab_n

قد وقعت تحت تأثيره بدرجات متفاوتة. وتحول العم بيلي عاجلاً من حالة التحدي الى أخرى من الذهول. واصبحت الدوقة مبتذلة العاطفة تذرف الدمع الرخيص، بينما أخذت الأم شبتن في الشخير. وبقي السيد أوكهرست وحده منتصباً يتكىء على صخرة ويرمق الجماعة بهدوء.

كان السيد أوكهرست يعزف عن الخمرة لأنها تتنافى مع مهنة تتطلب البرود وعدم المبالاة وحضور البديهة، ولأنها على حد قوله هو، «فوق طاقته». واذ كان يحدق في رفاقه المنفيين المهددين، وقع فريسة لعذاب الوحدة، وليدة حرفته الوضيعة وعاداته المعيشية ورذائله الشخصية بالذات، وذلك جدّياً لاول مرة. وأخذ يشغل نفسه بنفض الغبار عن ثيابه السوداء، وغسل يديه ووجهه واتيان اعمال اخرى تتميز بها عاداته الانيقة بحرص، ولوهلة نسي ما كان ينفّضه. ولعل فكرة هجر رفاقه المساكين، الأضعف منه، لم تخطر بباله اطلاقاً. ولكنه، مع ذلك لم يجد مناصاً من الشعور بتلك الرغبة المثيرة التي، على غرابتها، كانت اكبر عامل في رباطة جأشه التي اكتسب بها شهرته الذميمة. والقى نظرة على الجدران الكئيبة المتنصبة الى ارتفاع الف قدم فوق اشجار الصنوبر المحيطة به، ونظر الى السماء المغطاة بغيوم تبعث الشؤم، والى الوادي الذي راح يغرق في الظلال.. وعلى حين فجأة سمع احداً يناديه باسمه.

وصعد الدرب ببطء رجل يمتطي حصاناً. وفي وجه القادم الجديد الغض الصبوح تعرف السيد أوكهرست على توم سمسن، الملقب بـ «البريء»، من اهل ساندي بار. كان قد التقى به قبل بضعة أشهر في «لعبة صغيرة» وربح، بمنتهى الرصانة، كامل ثروة الشاب البريء البالغة حوالي أربعين دولاراً. وبعد اللعب جذب السيد أوكهرست الشاب المقامر الى خلف الباب وخاطبه قائلاً: «اسمع يا تومي. انت رجل صغير طيب، ولكنك لا تستطيع أن تقامر حتى بفلس واحد. لا تجرب المقامرة مرة أخرى». ثم أعاد له نقوده ودفعه بلطف الى خارج الغرفة، وهكذا جعل من توم سمسون عبداً مخلصاً له.

تذكر سمسون ذلك، فزاد في حماس تحيته الصبيانية للسيد أوكهرست. قال انه في طريقه الى بوكرفلات سعياً وراء الثروة. «لوحدك؟». لا، ليس تماماً. في الحقيقة (ضحكة مكبوتة)، لقد هرب مع بايني وودز. ألا يتذكر السيد أوكهرست بايني؟ بايني

Twitter: @ketab_n

التي كانت تخدم على المائدة في «تمبرنس هاوس»؟ كانا مخطوبين لمدة طويلة، ولكن جيك وودز العجوز عارض، فهربا، وهما في طريقهما الى بوكرفلات لكي يتزوجا، وها هما هنا الآن. كانا تعبين جداً، ويا لحسن الحظ ان يجدا مخيماً ورفاقاً. ادلى «البريء» بكل هذا بسرعة، بينما ظهرت بايني، وهي فتاة ممتلئة جميلة في الخامسة عشرة من العمر، من خلف شجرة الصنوبر، حيث كانت مختبئة حياءً، ولحقت بعشيقها.

قلما أزعج السيد أوكهرست نفسه بالعواطف، وأقل من ذلك بالآداب. ولكن خطر له خاطر مبهم بأن الموقف خلو من الخير. الا أنه احتفظ بسرعة خاطره بحيث ركل العم بيلي الذي كان على وشك التفوه بشيء. وكان العم بيلي واعياً الى حد يعلم عنده بأن في ركلة السيد أوكهرست قوة لن تتحمل التوافه. ثم حاول أن يثني توم سمسون عن البقاء عندهم، ولكن دون جدوى. بيّن له أن لا زاد لديهم ولا وسائل لنصب مخيم. ولكن، لسوء الحظ، قابل «البريء» اعتراضه بالتأكيد للجماعة بأن لديه بغلاً اضافياً محّملاً بالمؤ ن وأنه قد اكتشف كوخاً خشبياً بدائياً بالقرب من الدرب. وقال: «ان بايني تستطيع ان تبقى مع السيدة أوكهرست»، مشيراً الى الدوقة، «واستطيع أنا ان اهتم بنفسي».

لم يكن ثمة ما يمنع العم بيلي من الانفجار في ضحكة مجلجلة سوى قدم المستر أوكهرست المنذرة. وشعر بأنه مجبر على الانسحاب الى جرف الوادي حتى يستعيد رصانته. وهناك أسرّ بالنكتة الى اشجار الصنوبر الباسقة مع عدة ركلات من قدمه وبالتواءات في وجهه، والشتائم المعهودة. ولكن عندما عاد الى الجماعة ـ وكان الجو قد اشتدت برودته الى درجة غير مألوفة والسماء تلبدت ـ وجدهم جالسين حول النار وقد انهمكوا في حديث ودّي. وفي الواقع كانت بايني تتحدث الى الدوقة باندفاع صبياني، وهذه تستمع اليها باهتمام وحيوية لم تظهرها لعدة ايام. وكان «البريء» أيضاً مسترسلاً في الحديث مع السيد أوكهرست والأم شبتن التي كانت قد استكانت الى الود فعلاً. قال العم بيلي باحتقار خفي وهو يجيل الطرف في القافلة الريفية ويحدق في النار والحيوانات المربوطة في الواجهة: «هل نحن في نزهة؟» وفجأة خطرت له فكرة اختلطت بأبخرة الكحول التي كانت تقلق دماغه. ويبدو أنها كانت فكرة مرحة، لأنه شعر برغبة جارفة لان يصفق على ساقه مرة أخرى ويحشو قبضته في فمه. وعندما

Twitter: @ketab_n

زحفت الظلال ببطء صعوداً على الجبل، هزت نسمة خفيفة رؤوس اشجار الصنوبر وأنّت خلال ممراتها الطويلة الكئيبة. وخصص الكوخ للسيدات، بعد ان رمم وغطي باغصان الصنوبر. وعندما افترق العاشقان تبادلا قبلة حارة صادقة مخلصة كان من الميسور سماعها فوق حفيف اشجار الصنوبر المتماوجة. ولعل الدوقة النحيفة والام شبتن الشريرة لشدة دهشتهما لم تستطيعا التعليق على دليل البساطة هذا، فيممت كلتاهما وجهها نحو الكوخ دون ان تنبس ببنت شفة. وجددت النار وتمدد الرجال أمام الباب، ولم تمض دقائق معدودات حتى غلبهم النوم.

كان السيد أوكهرست خفيف النوم، فاستيقظ قرب الصباح وقد تخدر وبرد. واذ هو يحرك النار الخامدة اتت الريح، التي كانت تهب الآن بشدة، الى خديه بشيء جعل الدم يفارقهما ـ ثلج!

هب على قدميه وهو يقصد ايقاظ النائمين، اذ لم يكن هناك وقت للضياع. ولكنه عندما التفت الى حيث كان بيلي ممدد لم يجده هناك، فاعتراه شك فجائي وانطلقت من شفتيه لعنة. وركض الى البقعة التي كانت البغال مربوطة فيها ولكنه لم يجدها. وكانت الآثار قد اخذت في الاختفاء بسرعة تحت الثلج.

وبدافع من التهيج الآني عاد السيد أوكهرست الى جانب النار بهدوئه المعهود. لم يوقظ النيام. وكان «البريء» نائماً في أمان وابتسامة تزين وجهه المنمش البادي الطيبة. وكانت العذراء بايني ترقد بالقرب من أختيها الاكثر ضعفاً باطمئنان وكأن حراس سماويين يقفون على حراستها. واذ القى السيد أوكهرست بطانيته على كتفيه مسد شاربيه وراح ينتظر انبثاق الفجر. وجاء الفجر ببطء في دوامة من ندف الثلج تبهر وتشوش المنظر. وما كان يرى من المشهد الطبيعي بدا وكأنه قد تغير بقوة سحرية. نظر الى الوادي، واجمل الحاضر والمستقبل في كلمتين: «الثلج حاصرنا!».

وعند القيام باحصاء دقيق للمؤن التي كان من حسن حظ الجماعة انها خزنت في داخل الكوخ فنجت بذلك من اصابع العم بيلي السارقة، دل على انها، بشيء من الحكمة والحرص، تكفيهم لعشرة ايام اخرى. وخاطب السيد أوكهرست «البريء» بصوت منخفض قائلاً: «أعني اذا كنت راغباً في استضافتنا. واذا لم تشأ ـ ولعل من الأفضل ألا تفعل ـ فان بوسعك انتظار عودة العم بيلي بالمؤن». ولسبب غامض لم

Twitter: @ketab_n

يستطع المستر أوكهرست ان يسمح لنفسه بفضح نذالة العم بيلي، فذكر أنه تمشى من المخيم واجفل الحيوانات قضاءً وقدراً، ففرت مذعورة. ثم حذر الدوقة والأم شبتن اللتين كانتا على بينة، ولا شك، من وقائع هرب شريكهن، واضاف: «انهما سيكتشفان حقيقتنا جميعاً بمجرد أن يطلعا على اي شيء. ولا فائدة ترجى من تخويفهما الآن».

لم يضع توم سمسون كل مخزونه الدنيوي تحت تصرف السيد أوكهرست وحسب، بل بدا وكأنه سعيد بهذه العزلة التي ستفرض عليهم. وقال: «سنستمتع بالتخييم هنا لمدة اسبوع، وسيذوب الثلج عندئذ فنعود سوية». وسرى مرح الشاب وهدوء السيد أوكهرست الى السيدات وبعثا الطمأنينة في نفوسهن.

وارتجل «البريء» سقفاً للكوخ المفتوح من أغصان الصنوبر، وأرشدت الدوقة بايني في ترتيب الداخل بذوق ودقة فتحتا عيني تلك العذراء الريفية الزرقاويين الى أوسع مداهما، فقالت: «أحسب انك معتادة على الاشياء الجميلة في بوكرفلات». فاستدارت الدوقة بحدة لتخفي شيئاً احمر منه خداها من خلال اصباغها المهنية، وطلبت الأم شبتن من بايني ان تكف عن «الثرثرة». ولكن عندما رجع السيد أوكهرست من بحث مضن عن الأثر، طرق سمعه صوت ضحك مرح رددت الصخور صداه. فتوقف بشيء من القلق وتحولت أفكاره، رأساً بطبيعة الحال، الى الويسكي الذي كان قد خبأه بحرص. وقال المقامر: «ولكنه لا يبدو كويسكي». ولم يطمئن بأن الامر لا يعدو أن يكون «لهواً بريئاً» الا بعد ان رأى النار المتوهجة من خلال العاصفة التي كانت لا تزال على عنفها، والجماعة تحيط بها من كل جانب.

أما ما اذا كان السيد أوكهرست قد خبأ اوراق اللعب مع الويسكي كشيء محظور، فهذا ما لا استطيع أن اقوله. ولكن من المؤكد، على حد قول الام شبتن، أنه «لم يذكر اسم الورق ولو مرة واحدة» طوال تلك الأمسية. ومما بعث على البهجة أنهم قضوا الوقت في الاستماع الى انغام اكورديون اخرجه توم سمسون بشيء من الاعتذار من رزمته. ورغم تمنع هذه الآلة بعض الشيء على اصابع بايني وودز، فانها استطاعت ان تستخرج عدة ألحان عاصية من مفاتيحها، و«البريء» يصاحبها على زوج من القفاشات العظمية. وقد بلغوا الأوج من حفلة الأمسية بنشيد من أناشيد

Twitter: @ketab_n

المخيمات الخفيفة، رتله العاشقان وايديهما متشابكة، باخلاص كبير وصوت جهوري. وأخشي أن ما فيه من نغمة الثورة والتحدي والايقاع لجماعي، اكثر مما فيه من تقوى وايمان، جعل العدوى تنتشر الى الآخرين، فاشتركوا في النهاية في ترديد القرار:ـ

«انا فخور بأن أعيش في خدمة الرب،
«قطعت عهداً بأن اموت في جيشه».

واهتزت اشجار الصنوبر وحومت العاصفة والتفت فوق الحلقة التعسة، وهبت لهب مذبحهم نحو السماء، وكأنها ترمز الى العهد المقطوع.

هدأت العاصفة في منتصف الليل، وتفرقت السحب المتقلبة، وتلألأت النجوم فوق المخيم النائم. وكان السيد أوكهرست، الذي مكنته عاداته المهنية من أن يعيش على أقل قسط من النوم، قد تقاسم الحراسة مع توم سمسون، واستطاع، على نحو ما، أن يأخذ على عاتقه الجزء الأكبر من تلك المهمة. واعتذر الى «البريء» بقوله: انه كثيراً ما قضى «اسبوعاً كاملاً بدون نوم». فسأله توم: «وماذا كنت تفعل؟». فأجاب أوكهرست ببلاغة: «بوكر!»، وأردف المقامر متأملاً: «عندما تصادف المرء فترة مستمرة من الحظ ـ حظ العبيد ـ فانه لا يتعب. والحظ هو الذي ينهار اولاً. إن الحظ شيء غريب جداً. كل ما تعرفه عنه على وجه التأكيد هو انه عرضة للتقلب. وترقب تقلبه هو الذي يعّين حالك. لقد ألمت بنا فترة من الحظ العاثر منذ ان غادرنا بوكرفلات ـ واذا أنت تأتي وتقحم نفسك فيه!. فاذا استطعت الاحتفاظ باوراقك طيلة الوقت فلا بأس عليك. لأن. . «وهنا أضاف المقامر بمرح غير وارد:

«أنا فخور بأن اعيش في خدمة الرب،
«قطعت عهداً بأن أموت في جيشه».

وأقبل اليوم الثالث وأطلت الشمس من خلال الوادي المتلفح بغلالة بيضاء، ترمق المنبوذين وهم يقتسمون مؤنهم الآخذة في التناقص ببطء لوجبة الصباح. وكان من غرائب ذلك المناخ الجبلي ان أشعة الشمس بعثت دفئاً لطيفاً في المشهد الشتوي وكأنه تعبير عطوف ملؤه الندم على ما مضى. ولكنها كشفت عن ركام على ركام من الثلج حول الكوخ خضمّ أبيض عديم الأمل، عديم الأثر والمعالم، يمتد الى اسفل

Twitter: @ketab_n

الحوافي الصخرية التي كان المنبوذون ما زالوا متشبثين بها. ومن خلال الهواء الصافي صفاء يثير العجب، كان دخان قرية بوكرفلات الريفية يرتفع على بعد عدة أميال. وما ان رأته الام شبتن من فوق قمة حصنها الصخري النائي حتى قذفت في اتجاهه بلعنة أخيرة. كانت هذه آخر محاولاتها القاذعة، ولعلها كانت لذلك على شيء من السموّ والرهبة. وقد شرح هذا العمل صدرها، كما صرحت للدوقة فيما بعد قائلة: «ما عليك الا أن تذهبي الى هناك وتلعني، ثم تترقبي النتيجة». ثم أخذت على عاتقها تسلية «الطفلة»، كما كان يحلو لها وللدوقة أن تدعوا بايني. لم تكن بايني «طفلة» بالطبع، الا أنه كان يحلو للدوقة والأم شبتن افتراض هذه النظرية الأصيلة المعزّية لتبرير تجنبها الشتم والتصرّف المشين.

وعندما زحف الليل مرة أخرى من خلال مضايق التلال ارتفعت الأنغام الرفيعة من الاكورديون وأخذت تتساقط في نوبات متشنجة ولهثات طويلة حوالي نار المخيم المرتعشة. ولكن الموسيقى أخفقت في ملء الفراغ المؤلم الناجم عن قلة الطعام، فاقترحت بايني ملهاة جديدة برواية القصص. وكان الاخفاق سيصيب هذه المحاولة ايضاً لولا «البريء»، فلا السيد أوكهرست ولا زميلتاه يرغبون في رواية تجاربهم الشخصية. إلا أن «البريء» كان قد عثر صدفة قبل أشهر خلت على نسخة شاردة لترجمة بارعة للألياذة بقلم الكسندر بوب، فاقترح أن يقص الأحداث الرئيسية لتلك الملحمة الشعرية باللهجة الدارجة في ساندي بار، لأنه كان قد نسي الى حد ما كلمات القصيدة الأصلية وان كان قد تمكن من استيعاب فحواها كاملاً. وهكذا وطئت الأرض ثانية أشباه الآلهة الهوميرية بقية تلك الليلة، وتصارع في الريح المشاكس الطروادي والداهية الاغريقي، وبدت أشجار الصنوبر الشامخة في الوادي السحيق وكأنها تنحني لغضب ابن بيليوس. وكان السيد أوكهرست ينصت برضى هادىء، وأبدى اهتماماً خاصاً بمصير أخيل «السريع القدم».

وهكذا، وبالقليل من الطعام والوافر من هوميروس والاكورديون، مر أسبوع على رؤوس المنبوذين، هجرتهم فيه الشمس ثانية، ومرة ثانية غربلت السماء الرصاصية ندف الثلج على الأرض. ويوماً بعد يوم أخذت حلقة الثلج تضيق من حولهم، الى أن صاروا أخيراً ينظرون الى الخارج من داخل سجنهم عبر جدران بيضاء

Twitter: @ketab_n

تبهر العين وتعلو عشرين قدماً فوق رؤوسهم. وأخذت المصاعب تزداد أكثر فأكثر في اذكاء نيرانهم، حتى بالاستعانة بالاشجار المتساقطة قربهم والمختفية الآن جزئياً تحت ركام الثلج. الا أن احداً لم يتذمر، وأشاح العاشقان وجهيهما عن المستقبل يرنو كلاهما الى عيني الآخر، وهما مغتبطان بذلك. واستكان السيد أوكهرست ببرود الى اللعبة الخاسرة أمامه. أما الدوقة فكانت أكثر مرحاً من عادتها وأخذت على عاتقها الاعتناء ببايني، بينما بدت الأم شبتن ـ وكانت فيها مضى أقوى من في الجماعة ـ وكأنها فريسة مرض ودواء. وفي منتصف الليلة العاشرة نادت أوكهرست الى جانبها وقالت له بصوت ضعيف مشاكس: «انني راحلة، ولكن لا تقل شيئاً عن هذا، ولا توقظ الأطفال. خذ الحزمة من تحت رأسي وافتحها». وفعل السيد أوكهرست كما طلبت، ووجد في الحزمة حصة الأم شبتن من الزاد للأسبوع المنصرم كاملة غير منقوصة. وأشارت الأم الى بايني المستغرقة في النوم وقالت: «أعطها الى الطفلة». فقال المقامر: «قتلت نفسك جوعاً». فأجابت بلهجة مشاكسة، وهي ترقد ثانية: «هذا ما يسمونه»، وادارت وجهها الى الجدار واسلمت الروح بهدوء.

وضع الاكورديون والقفاشات جانباً في ذلك اليوم، ونسي هوميروس، وعندما أودع جثمان الأم شبتن بين الثلوج جذب السيد أوكهرست «البريء» جانباً وأراد زوجاً من الأحذية الثلجية كان قد صنعه من خُرجٍ قديم، وقال له وهو يشير الى بايني: «ان هناك أملاً واحداً في المائة لانقاذها بعد، ولكنه هناك»، وأشار باتجاه بوكرفلات وأضاف: «واذا تمكنت من الوصول الى هناك في يومين، فانها ستنجو». فهتف توم سمسون: «وأنت؟». وجاءه الجواب باقتضاب: «أنا سأبقى هنا».

افترق العاشقان بعناق طويل. وعندما رأت الدوقة السيد أوكهرست وكأنه ينتظر ليرافقه هتفت: «انك لست ذاهباً ايضاً؟». فأجاب «سارافقه حتى الوادي». واستدار فجأة وقبل الدوقة، مما جعل محياها الشاحب يلتهب وأطرافها المرتعشة تتصلب من الدهشة.

وجاء الليل، ولكن السيد أوكهرست لم يعد.. جاء الليل من جديد بالعاصفة والثلج الهادر. وبينما كانت الدوقة تطعم النار وقع نظرها على كومة من الوقود تكفي

Twitter: @ketab_n

لأيام اخرى معدودات، كان أحدهم قد هيأها بهدوء بجانب الكوخ. فطفرت الدموع الى عينيها، ولكنها أخفتها عن بايني.

لم تنم المرأتان الا قليلاً. وفي الصباح نظرت احداهما في وجه الاخرى فقرأتا مصيرهما ولكنهما لم تتكلما، الا أن بايني، وقد ارتضت باتخاذ موقف الأقوى، اقتربت واحاطت بذراعيها خصر الدوقة. وبقيتا على هذه الحالة طيلة ذلك النهار. وفي تلك الليلة بلغت العاصفة أوجها من العنف وغزت قلب الكوخ بعد أن مزقت عنه جذوع الكرمة الواقية.

وقرب الصباح وجدت كلتا المرأتين نفسها غير قادرة على اذكاء النار التي خبت رويداً. وبينما كانت الجمرات تسود ببطء اقتربت الدوقة من بايني وقطعت الصمت الذي دام ساعات بتساؤلها: «بايني، هل بوسعك ان تصلي؟» وأجابت بايني ببساطة: «لا، يا عزيزتي». وبدون أن تشعر بالدافع الحقيقي، شعرت الدوقة بارتياح، ووضعت رأسها على كتف بايني وسكتت عن الكلام. وهكذا، وسدت الفتاة الصغرى الطاهرة رأس أختها الملوثة على صدرها البكر، واستغرقتا في النوم.

وهجعت الريح وكأنها خشيت ايقاظهما، وتطايرت على غير هدى كتل ناعمة من الثلج كعصافير بيضاء الجناح، وتساقطت حولهما وهما نائمتان. ومن بين السحب المنقشعة أطل القمر من علٍ على ما كان من قبل مخيماً. ولكن كل لطخة بشرية، وكل أثر لألم أو مشقة أرضية، كان قد اختفى تحت الرداء الناصع المسدل برحمة من العلي.

نامتا طيلة ذلك اليوم واليوم التالي، ولم تستيقظا عندما قطعت أصوات ووقع أقدام سكون المخيم. وعندما أزاحت أصابع مشفقة الثلج من على وجهيهما الشاحبين كان من العسير التبين، بما استقر عليهما من سلام متساوٍ، أي منهما كانت الخاطئة. وحتى قانون بوكرفلات أقر بهذا وقفل عائداً، تاركاً اياهما الواحدة في حضن الأخرى.

ولكن على قمة الهاوية، وعلى شجرة من أكبر شجرات الصنوبر، عثر الناس على احدى اوراق اللعب، ورقة «السباتي الثنائية» وقد ثبتت بمدية في اللحاء، وهي

Twitter: @ketab_n

تحمل الجملة التالية مكتوبة بالقلم الرصاص وبيد ثابتة :

تحت هذه الشجرة
يرقد جثمان
جون أوكهرست
الذي ألمت به نوبة من حظ عاثر في الثالث والعشرين
من تشرين الثاني عام ١٨٥٠
وسلم اوراقه
في السابع من كانون الاول عام ١٨٥٠

وهكذا رقد تحت الثلج عديم النبض بارداً، ومسدس صغير الى جانبه ورصاصة في قلبه، هادئاً هدوءه في الحياة، ذاك الذي كان في يوم ما أقوى، وكذلك أضعف، منبوذي ناحية بوكرفلات.

Twitter: @ketab_n

فيبة الضائعة

بقلم: ثيودور درايسر
امريكي (١٨٧١ - ١٩٤٥)

سكنا في ناحية من الريف لم تكن مزدهرة كسابق عهدها، تبعد نحو ثلاثة اميال عن احدى تلك المدن الصغيرة التي عوضاً عن ان يزداد عدد سكانها فقد كانوا يتناقصون باستمرار. لم تكن المقاطعة كثيفة البناء: بيت في كل ميل او نحو ذلك، مع اراضٍ فسيحة من الحبوب والحنطة او حقول متروكة تزرع في بعض الفصول بمختلف انواع البرسيم. اما بيتهما الخاص فقد كان قسم منه مبنياً من جذوع الاشجار والقسم الآخر مبنياً بناءً عادياً، والقسم الاول كان بيت جد هنري القديم الأصيل، اما القسم الجديد الذي تآكلت حجارته بفعل الامطار والزمن، حيث كانت الريح تصفر من شقوقه احياناً وتظلّله اشجار الدردار والبندق وتجعله، مع قليل من الرطوبة، يبدو أشبه بصورة لبيت يثير حنين الذكريات، فقد شيده هنري وهو في الحادية والعشرين، بعيد زواجه.

كان هذا منذ ثمان واربعين سنة خلت. واثاث في الداخل، كالبيت من خارجه، كان قديماً عفناً من بقايا الايام القديمة. فانت تعرف قطعة الاثاث المصنوعة من خشب الكرز، بارجل لولبية ورأس محفور: لقد كانت موجودة. والسرير القديم ذو الاعمدة الاربعة بنتوءاته الشبيهة بالكرات، وحزوزه الملتوية العميقة كان هناك

Twitter: @ketab_n

ايضاً. انه حفيد غريب في منتهى الرداءة لسرير من طراز «يعقوبي» قديم. والخزانة المصنوعة من خشب الكرز، كانت ايضاً عالية واسعة ذات صنع متين ولكنها مائلة اللون عفنة الرائحة. وأما السجادة البالية التي امتدت تحت هذه الانماط من الأثاث الابدي فقد كانت واهية فاهية، عبارة عن نسيج ذي لونين قرنفلي ورصاصي، حاكته «فيبة آن» بيديها عندما كانت خمس عشرة سنة اصغر مما كانت عليه يوم وفاتها. والنول الخشبي المضعضع الذي صنعتها عليه انتصب الآن كهيكل عظمي مغبر، مع كرسي هزاز مكسور، ومضغط منخور للثياب، ومقعد خشبي ملوث بالجير كان يستعمل قديماً لحمل الزهور قرب الباب واشياء اخرى من مستلزمات البيوت دحشت في غرفة شرقية كانت كجناح بارز عن بقية البناء الرئيسي.

كانت هناك انواع متعددة من الأثاث المهشم مبعثرة في انحاء هذا المكان: جحش خشبي قديم لتهوية الثياب تفلّع ضلعان من أضلاعه. مرآة محطمة في اطار عتيق من خشب الكرز سقطت من المسمار وتهشمت قبل موت ابنهما الاصغر هنري بثلاثة أيام. وعلاّقة للقبعات كان لمشاجبها في وقت من الأوقات رؤوس كروية من الخزف الصيني. وآلة خياطة اهملت منذ زمن طويل بسبب منافسة الجيل الجديد وتفوقه على صناعتها الدميمة.

اما الحديقة الواقعة شرقي البيت فقد كانت زاخرة بأشجار التفاح المعقدة الهرمة، منخورة الجذوع والأغصان، مزخرفة بطفيليات خضراء وبيضاء تلبس رداء حزيناً فضياً مخضوضراً في ضوء القمر. والاكواخ المنخفضة التي آوت في يوم من الايام الدجاج، وحصاناً او حصانين، وبقرة، وعدة خنازير، كانت اسطحتها مرتعاً للطحلب، وبقيت جوانبها بدون طلاء لزمن طويل حتى غدت سوداء رمادية اللون اسفنجية الملمس. أما السياج المصنوع من اوتاد امام الاكواخ، مع بوابته المعوجة المصرصرة، والأسيجة الجانبية الأخرى، فقد كانت جميعها في حالة مماثلة من التدهور. وواقع الامر انها شاخت في الوقت نفسه مع الشخصين اللذين عاشا هناك، «هنري ريغسنايدر» وزوجته «فيبة آن».

لقد عاش هذان الشخصان هنا، منذ زواجهما، قبل ثمانية واربعين عاماً. أما هنري فقد كان مقيماً هنا قبل ذلك منذ طفولته. كان والده ووالدته طاعنين في السن

Twitter: @ketab_n

عندما بلغ الشباب. فحثاه على ان يأتي بزوجته الى هنا عندما أحبها وعزم على الزواج منها. وهكذا فعل. وبقي والداه رفيقين له ولزوجته مدة عشر سنين بعد زواجهما، الى أن وافاهما الأجل.

وبقي هنري وفيبة مع اولادهما الخمسة ينمون بسرعة وبصحة وحيوية. ولكن اشياء كثيرة حدثت منذ ذلك الحين. فمن الاولاد السبعة الذين انجباهم مات ثلاثة، كما ذهبت ابنة لهما الى كنساس ورحل ابن الى شلالات سيو ولم يسمعا عنه شيئاً بعدئذ. ورحل ابن ثالث الى واشنطن. اما الابنة الاخيرة فقد عاشت بعيدة جداً عنهما في نفس الولاية، ولكنها كانت مثقلة بهمومها بحيث لم تستطع ان تفكر بهما. فالزمن والحياة البيتية التافهة التي لم تكن قط جذابة فصلتهم بعضهم عن بعض كلياً حتى انهم، اينما كانوا، قلما خطر ببالهم ان يتساءلوا كيف تسير الحال بابيهم وامهم.

ولقد كان هنري ريغسنايدر وزوجته فيبة زوجين محبين. لعلك تعلم كيف هي الحال مع ذوي الطبائع البسيطة الذين يتشبثون كالطحالب بحجارة الظروف ويتحملون الايام حتى التهشم. والعالم كبير فسيح ولكنه في غنى عنهما، ولم يكن لهما ذكاء محلق. فالبستان، والمرج، وحقل الحنطة وزريبة الخنازير وكوخ الدجاج تعين مسرح نشاطاتهما الانسانية. فاذا ما نضجت السنابل حصدت ودرست. واذا ما نضجت الذرة وتلوحت قطعت وكدست. ثم يحصد البرسيم عندما يبلغ كامل نموه، ويحزم في اكوام مخروطية ليجف. وبعدئذ يأتي الشتاء وجر الحبوب الى السوق ثم الزرع وفلق الحطب، والاعمال المنزلية من تهيئة النار، وجلب الطعام، والقيام بالزيارات وردها بين آن وآن. وفيما عدا ذلك وفيما عدا تقلبات الطقس، من ثلوج وأمطار وايام مشرقة، لم يكن به ما هو ذو بال لديهما وكل ما تبقى من الحياة ان هو الا خيالات سحرية نائية صاخبة، تتذبذب كاضواء الشمال في الليل ضعيفة الصوت كاجراس الماشية ترن من بعيد.

وكان هنري وزوجته فيبة مغرمين الواحد منهم بالآخر. بقدر ما يستطيع شخصان مسنان لا شيء آخر لديهما يغرمان به. وكان هنري شيخاً نحيف في السبعين من عمره توفيت زوجته. وهو شخص غريب الاطوار شعره خشن امتزج فيه الاسود والابيض، ولحيته شعثاء مبعثرة. كان ينظر اليك من خلال عينين كليلتين فارغتين

Twitter: @ketab_n

مليئتين بالدموع تحيط بهما غضون عميقة على الجانبين. وكانت ثيابه كثياب العديد من الفلاحين الآخرين، قديمة ومشوشة معبعبة نافرة من الجيوب وغير ملائمة حول العنق، بارزة ومهترئة حول الكوعين والركبتين. اما «فيبة آن» فكانت ضامرة الجسم عديمة الشكل كمظلّة، في ثياب سوداء رثة، تلبس قبعة سوداء عندما تكون في أحسن زيها. واذ يمر الزمان بهما ولا شيء لديهما يعتنيان به سوى نفسيهما، غدت حركاتهما أبطأ فأبطأ، ونشاطهما أقل فأقل. وانخفض اعتناؤهما السنوي بالخنازير من خمسة الى خنزير واحد. والحصان الوحيد الذي احتفظ به هنري غدا حيواناً نؤوماً، قليل التغذية وقليل النظافة. والدجاج الذي كان من قبل سرباً كبيراً كاد يختفي بسبب القوارض والثعالب، وتضاؤل الضارية مما يسبب الوباء. وغدت الحديقة السابقة الممتلئة بالحياة ذكرى شاردة، كما ان منابت الزهور والكرمات التي زينت النوافذ والابواب الخارجية فيما مضى امست الآن ادغالاً خانقة. وكانت هناك وصية قد كتبت، وزعت بموجبها الممتلكات القليلة التي اكلتها الضرائب بين الاولاد الاربعة الباقين بالتساوي، فلم تثر اهتمام اي منهم. ومع ذلك فقد عاش صاحبانا سوية في ود ووئام، ولو أن هنري العجوز قد تنتابه بين الفينة والفينة، وعلى حين غرة، نزوة من التبرم، فليتذمر في كل مرة من ان هناك شيئاً قد اهمل او وضع في غير مكانه، مما لم يكن له اهمية على الاطلاق.

«فيبة، اين سكين الذرة؟ انك ابداً لا تتركين اشيائي وحدها دون ان تمسيها.» فتجيبه زوجته بصوت متكسّر رفيع: «اسكت يا هنري، والا فسأتركك، سأنهض يوماً وأخرج من هنا، ماذا ستكون حالتك عندئذ؟ ليس لك احد يعتني بك الا انا. ولذا خير لك ان تتصرف تصرفاً لائقاً. ان سكين الذرة هي على رف المدفأة في مكانها الدائم الا اذا كنت أخذتها انت ووضعتها في مكان آخر.»

وكان هنري الشيخ الذي يعرف ان زوجته لن تفارقه مهما كانت الظروف، يتيه في الافكار احياناً: ماذا سيفعل بعد موتها؟ وهذا كان الفراق الوحيد الذي يخافه حقيقة. واذ هو يصعد على الكراسي في الليل لينصب الساعة الدقاقة الثقيلة ذات الرقاص الطويل، او عندما يذهب اخيراً ليتفحص الباب الامامي والباب الخلفي ويرى ما اذا كانا محكمي السد. كان الاطمئنان يسود أرجاء نفسه اذ يعلم ان فيبة لا تزال هناك مستكينة بهدوء وامان في الجانب الخاص بها من السرير. واذا ما تحرك قلقاً

Twitter: @ketab_n

في الليل فانها هناك لتسأله عما يريد.

«والآن يا هنري، نم هادئاً دون حراك! انك لقلق كدجاجة.»

«حسناً، ولكنني لا أستطيع ان انام، يا فيبة.»

«لا تتقلب هكذا على كل حال. ودعني أنام.»

فيؤدي ذلك به عادة الى حالة من الراحة الناعمة. فإذا ارادت سطلاً من الماء، كانت لذته ان يتذمر ثم يجلبه. واذا ما نهضت قبله في الصباح تشعل النار، كان يهتم بقطع الحطب وجعله في متناول يدها. لقد اقتسما هذه الدنيا البسيطة فيما بينهما بشكل جميل.

ومهما يكن من أمر فإن الناس الذين كانوا يزورونهم كانوا يتناقصون على مر السنين. وكان المعروف عنهما لمسافة عشرة أميال مربعة أن السيد والسيدة ريغسنايدر هما امينين متدينين ولكنهما متقدمان في السن كثيراً ولا يثيران الاهتمام بعد الآن. واضحت الرسائل ومتابعة كتابتها او حتى مداولتها بواسطة الآخرين عبئاً ثقيلاً شاقاً لا يطاق، ولو ان رسالة ما كانت تصلهما بين فترة واخرى من ابنتهما في مقاطعة بمبرثن. ويطل بعض الاصدقاء القدامى بين آن وآن وبيده قالب من الحلوى أو فرخة او بطة محمرة، أو يأتي ليستوثق من أنهما في صحة وعافية. ولكن حتى هذه الزيارات الطيبة النوايا لم تعد تتكرر بكثرة.

ففي يوم من ايام الربيع من سنتها الرابعة والستين مرضت السيدة ريغسنايدر، ثم انتقلت من حمى خفيفة الى حالة مرضية صعب تشخيصها ولم تعد قابلة للشفاء بسبب عمرها. فركب هنري العجوز الى البلدة المجاورة سونرتن، وجلب معه طبيباً، زاره بعض الاصدقاء ثم انتزعوا عنايتها المباشرة من بين يديه. وفي ليلة قارسة من ليالي الربيع فارقت الحياة. فتبع الشيخ جثمانها الى أقرب مقبرة وهو غارق في ضباب من الحزن وعدم التصديق. وكانت المقبرة فسيحة دميمة ليس فيها الا بضع اشجار من السرو. ومع انه كان في وسعه ان يذهب عند ابنته في بمبرثن او ان يبعث وراءها، لم يكبد نفسه ذلك الازعاج، فقد كان متعباً جداً. وقد اقترح عليه بعض اصدقائه، الواحد منهم تلو الآخر ان يأتي ويمكث معهم بعض الوقت، ولكنه لم ير ذلك لائقاً.

Twitter: @ketab_n

لقد كان متقدماً في السن وثابتاً في تصوراته، ومعتاداً على محيطه الحقيقي الذي عرفه طيلة حياته لدرجة لم يستطع عندها فراقه. لقد رغب في ان يمكث بقرب المكان الذي وضعوا فيه فيبة. اما فكرة بقائه وحيداً فلم تزعجه في الحقيقة على الاطلاق. وعلم الابناء بالنبأ وعرضوا تقديم العناية له اذا ترك مكانه وذهب اليهم. ولكنه رفض.

كان يقول باستمرار للطبيب الشيخ مورو الذي اعتنى بزوجته في ايامها الاخيرة: «اني استطيع ان اتدبر اموري، وبامكاني ان اطبخ قليلاً، وانا، علاوة على ذلك، لا أحتاج الى قهوة وخبز كثير ليشبعني في الاصباح. انني على خير ما يرام. فقط اتركني على حالي». وبعد احتجاجات وعرض نصائح عديدة، قدمت له مؤ ن من القهوة واللحم المقدد والخبز قبلها شاكراً ثم ترك وشأنه. صرف فترة وهو يجلس كل يوم خارج بابه بكسل غارقاً في الافكار في شمس الربيع. وحاول ان ينعش اهتمامه بالزراعة وان يشغل نفسه ليتحرر من الأفكار، بالعناية بالحقول التي اهملت في الآونة الاخيرة اهمالاً كبيراً. وكان مما يثير الكآبة في نفسه ان يأتي في المساء او في الأصيل ولا يجد خيالاً لفيبة التي كان كل ما حوله ينطق بها. ثم أخذ بالتدريج يزيل بعض الاشياء التي كانت تخصها. وكان يجلس في الليل بجانب قنديله، ويقرأ في الصحيفة التي كانت تترك له بين مناسبة واخرى، او في الكتاب المقدس الذي اهمله لسنين عديدة. ولكنه لم يستطع ان يستمد من هذه الاشياء الا عزاءً قليلاً. وغالباً ما كان يضع يده على فمه ويحدق في الارض وهو جالس يفكر ماذا عسى ان يكون قد جرى لها ومتى سيموت هو. ان عملية تهيئة القهوة في الصباح او قلي شريحة من اللحم المقدد في المساء كانت لديه عملاً ضخماً كبيراً. ولكن شهيته كانت قد فارقته. والقوقعة التي عاش فيها كل هذه المدة الطويلة بدت خاوية وخيالاتها توحي باحزان لا دواء لها. على هذا النحو عاش كئيباً لخمسة أشهر طويلة. وبعدها حصل التبديل.

حدث ذلك في ليلة من الليالي بعد ان تفحص الباب الامامي والخلفي، ونصب الساعة وأطفأ الضوء، وقام بكل الحركات التي اعتاد عليها لسنين طويلة. ثم ذهب الى الفراش لا لينام بقدر ما أراد ان يفكر. كانت ليلة مقمرة، وكانت الحديقة المكسوة بالطفيليات والاعشاب الخضراء في الخارج يراها من سريره الذي اضطجع عليه الآن، فضية جميلة مليئة بالاشباح. وارسل القمر ضوءه من النوافذ الشرقية رامياً

Twitter: @ketab_n

تصاميم الزجاج على الارض الخشبية، وجاعلاً الاثاث القديم الذي اعتاد عليه يبدو معتماً في الغرفة. وكان كعادته يفكر بفيبة وبالسنين التي قضاها سوية وهما في شرخ الشباب، وبالاولاد الذين رحلوا، والحالة المزرية التي يمضيها الآن في ايامه هذه. كان البيت في تدهور. كساء الفراش مشوش متسخ لانه لم يكن بوسعه تدبير امور الغسيل ومجرد التفكير فيها يرعبه. وكان السقف يخر فتبقى الامتعة او بعضاً منها رطبة لاسابيع طويلة. ولكنه كان قد بدأ يدخل في مرحلة من التفكير الكئيب حتى جعل يرضى بأي شيء فلا يجهد نفسه. وكان يؤثر ان يمشي جيئة وذهاباً، او ان يجلس يفكر.

ففي الساعة الثانية عشرة من نفس هذه الليلة كان نائماً، وفي الساعة الثانية استيقظ مرة أخرى. وكان القمر في هذه الاثناء قد تحول الى الجانب الغربي من البيت، ونوره يضيء عبر نوافذ غرفة الاستقبال ونوافذ المطبخ وراءها. واذا ترتيب الاثاث على وضع معّين ـ كرسي قرب المائدة ومعطفه ملقى عليه، وباب المطبخ مفتوح نصف فتحة وهو يلقي ظلاً، وقيام قنديل قرب جريدة ـ شبّه له فيبة وهي متكئة على المائدة، كما رآها مراراً وهي على قيد الحياة. فأجفل وفزع. أممكن ان تكون هي . او شبحها؟ انه ما اعتقد قط بالارواح ومع ذلك ـ وامعن النظر فيها بثبات في الضوء الضعيف، وجذوة شعره ترتعش على نحو غريب. فاستوى جالساً. ولكن الشكل لم يتحرك. فأخرج ساقيه النحيفتين من السرير وجلس ينظر اليها متسائلاً اذا كانت هي فيبة حقيقة. وكانا قد تكلما مراراً عن الأشباح والأطياف والفأل والطيرة في حياتهما، ولكنهما لم يوافقا مطلقاً على وجود اشياء كهذه. ولم تعتقد زوجته ابداً ان لها روحاً تستطيع ان تعود وتسير على الارض ثانية. ان عالمها الآخر كان امراً يختلف تماماً: سماء مجهمة، لا اكثر ولا أقل، حيث الاتقياءالصالحون لا يزعجون انفسهم بالرجوع. ومع ذلك فقد كانت هنا الآن منحنية على المائدة بتنورتها السوداء وشالها الرمادي، ووجهها الجانبي الشاحب ومعالمه بارزة في ضوء القمر.

مدّ يده المعروقة ونادى والرعشة تسري من رأسه حتى اخمص قدميه: «فيبة، هل رجعت؟» لم يتحرك الشكل، فنهض ومشى متشككاً نحو الباب وهو ينظر اليها بثبات طيلة الوقت، وبينما هو يقترب، تلاشى الطيف الى كيانه الاولي ـ معطفه القديم على ظهر الكرسي العالي، والقنديل بجانب الورقة، والباب المفتوح نصف فتحة.

Twitter: @ketab_n

فخاطب نفسه وفمه فاغـر: «والله ظننت اني رأيتها!» ثم مـر بيده في شعـره بشكل غريب مبهم تراخى في اثنائه توتره العصبي واستراح، ولكن رغم تلاشيها من امام ناظريه، فقد أوحت اليه بأنها قد تعود مرة أخرى.

وفي ليلة اخـرى، بسبب تفكيره الـدائم الثـابت فيهـا، وبسبب هـذا الـوهم الاولي، وكان شيخاً مسناً، نظر الى الخارج من النافذة التي كانت قرب سريره وتطل على قن الدجاج وزريبة الخنازير، وعلى جزء من سقيفة العربة، وهناك حيث ضباب رقيق واهٍ ينبعث من رطوبة الارض، ظن انه رآها مرة ثانية. لقد كان الضباب نتيجة احدى تلك النفثات الضعيفة التي تنفثها الارض اذ ينتشر في ليلة باردة اثر يوم حار، ويتذبذب آخذاً شكل شجرة شربين صغيرة بيضاء قبل ان يختفي. ولقد كان من عادة فيبة وهي على قيد الحياة ان تجتاز هذا المكان آتية من باب مطبخها الى زريبة الخنازير لتلقي اليها بنفاية ما تبقى من طبخها. وها هي هنا مرة اخرى. استوى جالساً وأخذ يرقب باستغراب وشك نتيجـة اختباره الأول، ولكنـه كان ميـالاً، بسبب الدغـدغة العصبية التي اعترت جسده، الى الاعتقاد بأن الأرواح موجودة فعلاً، وان فيبـة التي يهمها حالته الموحشة، قلقة ولا شك عليه، ولهذا رجعت. اي مسلك آخر بامكانها ان تسلك؟ وهل من طريقة أخرى تعبر بها عن نفسها؟ فمن لطفها ومحبتها وشغفها به ان تفعل ذلك. امتلكته الرعشة وهو يرنو اليها، ولكن، هبت نسمة عليلة من الهـواء، فالتفتت نحو السياج واختفت.

وفي ليلة ثالثة، بعد عشرة ايام، وفيما هو يحلم فعلاً، اتت الى جـانب سريـره ووضعت يدها على جبينه.

قالت: «مسكين هنري! يا للأسف».

استيقظ من نومه وظن انـه يراهـا في الواقـع وهي تسير من مخـدعه الى غـرفة الاستقبال، وشكلها كتلة من ظل اسود. ونتيجة لاجهاد عينيه الضعيفتين بدت نقاط صغيرة من النور تتذبذب حول معالم قوامها. نهض وهو في أشد حـالات الذهـول، ومشى في الغرفة الباردة واثقاً من ان فيبة راجعة اليه. لو انه فقط فكر تفكيراً كافياً، واستطاع بأحاسيسه أن يوضح حاجته الماسة اليها، لعادت اليه هذه الزوجة العطوف لتخبره ماذا يفعل. ولربما مكثت معه بعض الـوقت، في الليل عـلى الأقل وذلـك مما

Twitter: @ketab_n

سيجعله أقل وحشة، وتغدو حالته اكثر احتمالاً.

في طور الشيخوخة والعجز لا يبقى بين دقائق الوهم وبين الهلوسة الحقيقية شوط طويل، وهذا الانتقال هو ما جرى لهنري في الوقت الملائم. فراح ينتظر الليلة تلو الليلة وهو يتوقع مجيئها. وبينما هو في حالته الشاذة الغريبة تلك خيل اليه مرة أنه يرى ضوءاً ضعيفاً يتحرك في الغرفة. وظن مرة أخرى انه رآها تسير في الحديقة بعد حلول الظلام. وفي احد الاصباح عندما لم تكن تفاصيل حالته الموحشة تطاق ابداً استيقظ وهو يعتقد انها لم تمت. أما كيف توصل الى هذه النتيجة فهذا مما يصعب الاجابة عليه. كان عقله قد ذهب وحل مكانه وهم ثابت بأنه تشاجر مع فيبة شجاراً لا معنى له وانه وبخها لأنها لم تترك غليونه في المكان الذي اعتاد عليه ان يجده فيه، فهجرته. وكان هذا وفاءً زائفاً لتهديدها القديم الذي كانت تهدده به مازحة من أنها، اذا لم يحسن التصرف ستتركه لا محالة.

وكان يقول لها دوماً: «اعتقد انني استطيع ان اجدك ثانية. وكان تهديدها المقوقىء دوماً: «لن تجدني اذا ما تركتك فعلاً. واظن انني سألقى مكاناً لن تجدني فيه.»

عندما نهض هذا الصباح لم يفكر في النار وكيفية اشعالها على طريقته المعتادة او ان يطحن قهوته ويقطع خبزه كعادته، بل أخذ يتأمل بشكل خاص أين يبحث عنها، وكيف يرغمها على الرجوع. كان في الآونة الأخيرة قد استغنى عن الحصان الوحيد الذي لديه لانه وجده عبئاً لا حاجه له به. وبعد ان لبس ثيابه تناول قبعته اللينة وفي عينيه ومضة جديدة من الاهتمام والعزم. ثم تناول عصاه المعقوفة السوداء من وراء الباب حيث كان يضعها دائماً، وخرج بنشاط ليفتش عنها بين أقرب الجيران. كان حذاؤ ه العتيق يقع بثقل واحكام على التراب وهو يمشي، وخصل شعره التي دب فيها الشيب، والتي غدت الآن طويلة، تتبعثر في الهواء على شكل اطار او هالة درامية من تحت قبعته. وتحرك معطفه القصير بكثرة وهو يمشي، منهوك اليدين، شاحب الوجه.

وكان المزارع دوج راكباً مع حمل من الحنطة الى السوق. فقابله في الطريق العام وراح يسأله: «مرحباً هنري! اين انت ذاهب في هذا الصباح؟» ولم يكن قد رأى الفلاح المسن لشهور خلت منذ ان توفيت زوجته. فاستغرب الآن عندما رآه في هذا

Twitter: @ketab_n

النشاط.

فرفع هنري عينيه نحوه متسائلاً وقال: «بربك ألم تر فيبة؟»

فتساءل المزارع دوج، ولم يخطر بباله قط ان للاسم علاقة بزوجة هنري الميتة: «أي فيبة؟»

فقال: «زوجتي فيبة، بالطبع، من اذن تظن انني اعني؟» وحملق بنظرة حادة تثير الشفقة من تحت حاجبيه الأشيبين الأشعثين.

فقال دوج: «هنري، أقسم انك تمزح، اليس كذلك؟» وكان رجلاً متيناً مكتنزاً ذا وجه ناعم احمر صلب، ثم اردف: «يستحيل ان تكون زوجتك هي التي تسأل عنها. انها ميتة.»

فأجاب المعتوه ريغسنايدر بلهجة من قد أهين: «ماتت! هراء! انها تركتني باكراً هذا الصباح بينما كنت نائماً. كانت تنهض دوماً لتهيىء النار، ولكنها ذهبت الآن. لقد تخاصمنا أمس وتفوهنا ببعض كلام لا يليق، اظن ان ذلك هو السبب. ولكنني اعتقد انني استطيع ان اجدها. لقد ذهبت الى بيت متيلدا رايس. ذهبت الى هناك ولا شك.»

وتابع سيره صاعداً الطريق بخفة وتاركاً دوج منذهلاً يشيعه بعينين جاحظتين. وراح يخاطب نفسه بصوت عال: «لعنني الله ان لم يكن داخل رأسه نظيفاً! لقد عاش ذلك العجوز المسكين وحيداً في بيته هناك، حتى فقد عقله. ويقتضي علي أن انبىء السلطات عنه.» ثم أخذ يقرقع بسوطه بحماس شديد وصاح: «يلاّ هيه!» وسارت به العربة.

لم يصادف ريغسنايدر احداً من الناس غيره في هذه المنطقة القليلة السكان الى ان وصل، بعد مسيرة ثلاثة أميال، السياج المصبوغ بالجير لبيت ماتيلدا رايس وزوجها. وكان قد مر بعدة بيوت أخرى على طريقه، ولكن لم تكن في نطاق وهمه ولذا لم يعرها اهتماماً. ونظراً الى ان زوجته كانت تعرف ماتيلدا رايس معرفة جيدة، **فهي** هنا ولا ريب. ففتح البوابة الصغيرة التي تحمي الممر وخطا بخفة نحو الباب.

Twitter: @ketab_n

وهتفت ماتيلدا العجوز ذات البنية المتينة بعد ان فتحت الباب استجابة لقرعه: «اهلاً بك ريغسنايدر، ما الذي اتى بك هنا هذا الصباح؟»

فسألها بحرارة: «هل فيبة هنا؟»

فاجابت السيدة رايس وهي مندهشة ومستغربة من حيويته المفاجئة: «فيبة من؟ أي فيبة؟»

«فيبتي بالطبع، زوجتي فيبة. من اذن تفترضين؟ أليست هي هنا الآن؟» فهتفت السيدة رايس فاتحة فاها: «يا ويلي عليك! يا مسكين! أهكذا فقدت عقلك. تعال اجلس تعال، وسأهيىء لك فنجاناً من القهوة. بالطبع زوجتك ليست هنا، ولكن ادخل اجلس، وسأجدها لك بعد حين، اني اعرف اين هي.» فلانت عينا المزارع الهرم ودخل. لقد كان نموذجاً للنحول والشحوب، في لباس اضفى عليه وقاراً ابوياً مما أثار اعمق مشاعر السيدة رايس وحنانها اذ هو ينتزع قبعته ويضعها على ركبتيه بلطف ودعة.

قال متطوعاً: «تخاصمنا الليلة الماضية فهجرتني.»

فتنهدت السيدة رايس اذ لم يكن هناك من يشاطرها عجبها واستغرابها. فقالت تخاطب نفسها وهي ذاهبة الى المطبخ: «الله! يا للمسكين! لا بد ان يعتني به احد ما بعد الآن. يستحيل ان يترك هكذا هائماً على وجهه في الريف، باحثاً عن زوجته الميتة. شيء مريع.»

غلت له ابريقاً من القهوة واتت بقليل من الخبز الجديد والزبدة الطازجة، واضافت قليلاً من أحسن ما لديها من المربى. ثم وضعت بيضتين على النار تسلقهما، وراحت تقول وهي مفعمة بالخواطر: «والآن ما عليك الا ان تنتظر يا عم هنري، الى ان يأتي جايك وسأرسله عندئذ ليفتش على فيبة. واظن ان اكثر الامور احتمالاً هي انها ذهبت الى سويترتن مع بعض صديقاتها. ومهما يكن فاننا سنتأكد من ذلك. والآن خذ هذه القهوة اشربها، وكل هذا الخبز. لا بد انك تعب. لقد مشيت كثيراً هذا الصباح.» وكانت فكرتها ان تستشير زوجها جايك، ولعله تحثه على اعلام السلطات عنه.

Twitter: @ketab_n

ثم راحت تنهمك في انحاء البيت وهي تتأمل في تعقيدات امور الحياة، بينما راح ريغسنايدر لعجوز ينقر بروؤس اصابعه الشاحبة على حافة قبعته بحركة رتيبة، ثم تناول بعضاً مما قدمته له وهو شارد اللب. غير انه كان مشغول البال بزوجته، وبما انها ليست هنا لعدم ظهورها، سرح فكره بشكل مبهم نحو عائلة تدعى مري تبعد اميالاً في ناحية اخرى. وبعد وقت قصير صمم على عدم انتظار جايك رايس ليتعقب زوجته، بل سيفتش عليها هو بنفسه. فلا بد ان يخرج ويحثها على الرجوع.

قال وهو ينهض وينظر حوله: «حسناً، اني ذاهب، على كل حال، اظن انها لم تأت الى هنا. فلا بد انها ذهبت الى عائلة مري. أظن ذلك. ولن أطيل انتظاري اكثر من هذا يا سيدة رايس. هناك اشياء كثيرة يجب انجازها اليوم في البيت.» وخرج دون ان يعير اهتماماً لاحتجاجاتها، آخذاً الطريق المغبر مرة ثانية في شمس الربيع الدافئة، وعصاه ترتطم بالتراب وهو يمشي.

وكان بعد مضي ساعتين ان ظهر هذا الشخص النحيل الشاحب امام بوابة عائلة مري وهو مغبر ينز بالعرق، وكله شوق. لقد جاب خمسة اميال كاملة على قدميه، والوقت ظهراً. وأصغى الزوج والزوجة المشرفان على الستين بعجب لاستفساره الغريب، وتيقنا من جنونه. ورجواه ان يمكث للغداء وهما يقصدان تبليغ السلطات عنه بعد ذلك، ثم يريان ماذا يمكن فعله. ولكنه رغم مكوثه ليتناول قليلاً مما قدماه له، لم يبق طويلاً، وتوجه ثانية نحو مزرعة نائية اخرى وحاجته لفيبة تحثه مع شعوره بان عليه اشياء كثيرة يجب القيام بها. وهكذا انقضى ذلك اليوم واليوم الذي يليه والذي بعده ودائرة تحرياته في اتساع دائم.

ان الخط الذي يتبعه المرء في مجتمع كهذا يبدو غريب الطبع، يأتي من التصرف ما يكاد يكون مفزعاً ولكنه غير مؤذ لاحد، لهو خط كثير التلافيف مثير للشفقة. ففي هذا اليوم، كما قيل سابقاً، رؤي ريغسنايدر على ابواب اخرى وهو يسأل بحماس سؤاله الشاذ تاركاً وراءه اثراً طويلاً من الدهشة والشفقة والعطف. ورغم ان السلطات اخذت علماً به، لم تر من الحكمة احتجازه. واولئك الذين كانوا يعرفون هنري العجوز من امد طويل عندما فكروا في مستشفى المجاذيب، والحالة المزرية التي انحط اليها بسبب فقر المقاطعة صمموا على ان يتركوه طليقاً. ومن غريب القول انهم

Twitter: @ketab_n

وجدوه بعد التحري يرجع بسلام الى مسكنه الموحش اثناء الليل ليستجلي اخبار زوجته وما اذا كانت قد رجعت، ومن ثم ليسترسل في الخواطر الكئيبة في وحدته حتى الصباح. فمن يستطيع ان يحتجز رجلاً مسناً نحيلاً، جواباً ملحاً في طلب مبتغاه، أشيب الشعر، دمث السؤال، بريء التحري، لا سيما بعدما عرف عنه من أنه صرف ماضيه في عبودية رحيمة وانه اهل للثقة؟ فالذين عرفوه معرفة جيدة وافقوا على وجوب السماح له بأن يحوم طليقاً، اذ لم يكن بوسعه ان يؤذي أحداً. كان هناك لفيف ممن استعد ان يقدم له الطعام والكساء ونثريات حياته اليومية الأخرى ـ هذا في البداية على الأقل. وبعد ردح من الزمن لم يعد شخصه يبدو كشيء عادي معروف بقدر ما اصبح شخصاً غريباً مقبولاً على غرابته، واضحى الجواب «لا يا هنري، لم ارها.» او «لا يا هنري، لم تأت هنا اليوم.» هو المألوف في الاغلب.

ومضت بعد ذلك عدة سنوات وقد غدا انساناً لا كغيره من الناس، يهيم في الشمس والمطر، وفي الطرقات المغبّرة والموحلة، يرى بين الحين والحين في اماكن غريبة غير متوقعة يسعى وراء بحثه الذي لا ينتهي. ومع مضي الزمن ساءت صحته من قلة التغذية رغماً عن ان جيرانه وأولئك الذين عرفوا تاريخه ساهموا بطيبة خاطر في تقديم الغذاء له. كان يسير كثيراً ويأكل قليلاً. وكلما طال تجواله على الطرقات العامة وهو على هذه الحال اشتدت به الهلوسة: واصبح يجد الرجوع الى البيت من سفراته التي كانت تبعد اكثر فأكثر أصعب وأشق، الى أن ابتدأ يحزم بعض الاواني في رزمة صغيرة يحملها معه لكي لا يرجع الى البيت اضطراراً. ففي ابريق قديم كبير الحجم من الصفيح وضع كوباً صغيراً من الصفيح، وسكيناً وشوكة، وملعقة وبعض الملح والفلفل. ثم اقحم خيطاً في ثقب خرقة في الابريق علق فيه من الخارج صحناً بحيث يستطيع استعماله بسهولة، فكان له بمثابة المائدة بين الاحراش. ولم يكن ليصادف عناءً او ازعاجاً في تأمين حاجته من الغذاء القليل، وبأنفة غريبة تكاد تكون دينية لم يكن ليتردد في استجداء ذلك القليل. وعلى كر الأيام راح شعره يطول ويطول، وقبعته التي كانت فيما مضى سوداء اضحت ترابية اللون، وامست ثيابه مهلهلة معفرة.

لثلاث سنوات كاملة سار على قدميه، ولكن ما من احد استطاع ان يعرف مدى اتساع جولاته، ولا كيف تمكن من مجابهة البرد والعواصف. لم يكن في وسعهم، وهم على ما هم عليه من فهم وبصيرة ريفية، أن يروه وهو يأوي في اكوام الهشيم، او يلتاذ

Twitter: @ketab_n

بجوانب الماشيـة التي كانت اجسـامها الـدافئة تقيـه من البرد، وافهـامها البليـدة لا تتعارض مع وجوده العديم الأذى. وفي احايين أخرى كانت الاشجار والصخور المنيفة ملاذه من المطر، ولم يكن كوخ الحمام او سقيفة الذرة فوق مستوى تفكيره المتواضع.

ان تطور الهلوسة أمر معقد وغريب. اذ انّه نتيجة لأسئلته المتكررة على الابواب ورجوعه الدائم بالخيبة والحرمان، توصل أخيراً الى ان فيبة وان كانت غير موجودة في أي من البيوت التي قرع ابوابها، فقـد تكون، مـع ذلك، مـوجودة في نـطاق سماع صوته. وهكذا، استمراراً على صبره في البحث، جعل يناديها بصيحات حزينة بـين فترة وأخرى، مما أيقظ المشاهد الطبيعية الهادئة ومناطق التلال الشعثاء، وجعلها تردد صدى ندائه الرفيع «يااا!. . فيبة! يااا!. . فيبة!» وكان لندائه، وان كان جنونياً، رنة الأسى. وكان المزارعون والاولاد الحراثون يسمعونه من بعيد فيعرفونه ويقولون: «ذاك ريغسنايدر العجوز.»

ولكن مع مرور الزمن طرأ له أمر غريب حيره حيرة شديدة، وحصل ذلك اثر مئات التساؤلات، عندما لم يبق امامه بوابة أخرى يطرقها ويسألها اي طريق يسلك. لقد جعلت هذه الطرق المتقاطعة التي تتجه الى اربع واحيانـاً الى ست نواح، تحيـره وتربكه كثيراً. ولكي يحل هذه المعضلة المعقدة التي اصبحت لديه مع الايام لغـزاً لا يحل، حلت هلوسة جديدة في دماغه لتسعفه: روح فيبة، او قوة ما اخرى في الفضاء او الريح او الطبيعة ستنبئه بـذلك. فـاذا وقف في منتصف تقاطـع الطرق وأغمض عينيه، واستدار ثلاث مرات ونادى «يا. . فيبة!» مرتين، ثم رمى بعصاه أمامه على خط مستقيم، اعلمته قطعاً اي طريق يسلك لكي يجـد فيبة، أو ان احـدى هذه القـوى الغامضة ستتحكم بصورة اكيدة في اتجاه العصا وسقـوطها! ومهـما كانت الجهـة التي اتجهت اليها العصا، حتى ولو ارجعته الى نفس الطريق الذي أتى منه، أو توجـه عبر الحقول، ولم يكن من النادر ان يحدث ذلك، فقد كان لديه من العقـل ما يكفي لأن يعطي نفسه وقتاً للبحث قبل ان ينادي مرة أخرى. وكان وهمه يلح عليه بانه سيجد فيبة في يوم من الأيام. وكانت هناك ساعات تؤلمه فيها قدماه ألماً شديداً، وتجهد اطرافه فيقف في الحـر ليمسح جبينـه المغضن، او في البرد ليخبط عـلى ذراعيـه. وفي بعض الاحيان، بعد ان يرمي بعصاه بعيداً ويجدها تشير الى نفس الاتجاه الذي أتى منه الآن، كان يهز رأسه باعياء وفلسفة وكأنه يتأمل في نحس القدر الذي لا يعتمد عليه، ثم يهز

Twitter: @ketab_n

رأسه بخفة ونشاط. وغدا شخصه الغريب في النهاية معروفاً في أبعد الاماكن في ثلاث او اربع مقاطعات مجاورة. لقد كان الشيخ ريغسنايدر شخصية تثير العطف، واسعة الشهرة.

على مقربة من بلدة صغيرة تدعى وتر سفيل في مقاطعة غرين، كان مكان يبعد نحو اربعة اميال عن ذلك المركز الصغير للنشاط الانساني، يعرف محلياً باسم «الصحراء الحمراء» وهو عبارة عن جدار شاهق من الصخر الرملي الاحمر انتصب على حافة هوة سحيقة الى ما يعلو حوالي مئة قدم، وقد ارتفع وجهه الحاد لمسافة نصف ميل او اكثر فوق حقول الحنطة الخصيبة والبساتين المنبسطة تحته، يتوجه حرش كثيف من الاشجار. وكان المنحدر الذي يفضي اليه ببطء من الجهة المقابلة مكسواً باشجار الزان والجوز والدردار تتخلله عدة ممرات للعربات تتقاطع بزوايا مختلفة. ففي ايام الطقس الجميل كان ريغسنايدر العجوز، الذي غدا متطبعاً بحب العراء، قد اعتاد أن يفرش فراشه في رقعة مكتظة بالاشجار ليقلي شريحة من اللحم المقدد او ان يسلق بعض البيض قرب جذع شجرة قبل ان يستلقي لينام الليلة. وكان بسبب نومه الطفيف الخفيف يستيقظ اثناء الليل بين آن وآن. وفي اغلب الاحيان كان ضوء القمر، او ريح تهب فجأة وتحرك الاشجار، او حيوان متجول، يوقظه من نومه. فكان يجلس ويفكر او يتابع سيره باحثاً عن مطلبه في ضياء القمر او الظلام، فيبدو مخلوقاً غريباً شاذاً، شبه بري وشبه وحشي، ولكن عديم الأذى. ينادي في مفترقات الطرق الموحشة، ويحملق في البيوت المظلمة المغلقة النوافذ، وهو في تساؤ ل دائم اين، اين يجد فيبة.

وكان ذلك السكون الفريد الذي يسري في نبض هذه الكرة الأرضية في الساعة الثانية صباحاً يوقظه دائماً. وحتى اذا لم يفعل ذلك، فانه يجلس ويتأمل الظلام أو النجوم، متعجباً متسائلاً. وفي عملية تفكيره الغريبة كان يخيل اليه احياناً انه يرى قوام زوجته يتحرك بين الأشجار وعندئذ ينهض ليتبعها آخذاً عصاه وأوانيه المعلقة دوماً بخيط. واذا بدت انها تتجنبه بسير زائد، يركض او يتوسل، واذا أضاع فجأة أثر شخصها الموهوم، وقف فزعاً او خائب الأمل، عميق الاسى لبرهة على مصائب بحثه التي لا يمكن تخطيها.

كان في السنة السابعة من تجواله اليائس، وفي فجر ربيع اشبه بذلك الفجر

Twitter: @ketab_n

الذي توفيت فيه زوجته، انه اتى أخيراً في ليلة من الليالي الى اطراف الرقعة التي تتوج قمة الصخرة الحمراء. وعصاه الملقاة بعيداً، هي التي استعملها كقضيب النبوة في مفترق الطرقات فأتت به الى هناك.

كان قد مشى اميالاً عديدة وكانت الساعة بعد العاشرة ليلاً، وكان تعباً جداً. لقد حوله تجواله الطويل واكله الزهيد الى خيال ما كان عليه من قبل، وما بقاؤه متماسكاً حتى الآن بمسألة قوة جثمانية بقدر ما هي تحمل روحي. ولم يكن قد تزود من الطعام بما يكفيه في ذلك اليوم، فافترش الأرض منهوكاً ليأخذ قسطه من الراحة، وربما لينام.

من الغرابة ان يلّم به في هذه المرة شعور غريب بحضور زوجته، فأخذ يناجي نفسه بأن لم يبق وقت طويل حتى يراها ويتكلم معها، هذا رغماً عن الأشهر الطويلة التي لم تأت له بفائدة ترجى، وبعد فترة نام وقد سقط رأسه على ركبتيه. وفي منتصف الليل طلع القمر، وفي الثانية صباحاً، ساعة استيقاظه، غدا القمر قرصاً فضياً يضيء بين الاشجار في اتجاه الشرق. فتح عينيه عندما اشتد بهاؤه والقى قرب قدميه بالزخارف الفضية، واضاء الحرش بلالأ غريب واشكال جنية شبحية. وكعادته، عادت اليه فكرته عن زوجته واستولت عليه. فجال بصره حوله بعينين ممعنتين مرتقبتين. ما ذاك الذي يتحرك بين الظلال البعيدة على طول الدرب الذي أتى منه؟ - نفثات مضيئة تنفثها المستنقعات ؟وتتراقص برشاقة بين الاشجار وتتذبذب شاحبة، وتسمر انظاره المتلهفة. وتلاقت الظلال وضوء القمر فأسبغت شكلاً غريباً، وواقعاً أغرب على هذه النار المستنقعية او اليراعات الحائمة الراقصة. هل هذه زوجته فيبة حقاً؟ ومرت به تسير بخط دائري، وخيل اليه في حالته المحمومة تلك انه يرى حتى عينيها، كما رآها لآخر مرة في ثوبها وشالها الأسودين: بل ان فيبة الصبية المرحة الحلوة، تلك التي رآها لسنين خلت كفتاة عذراء. فنهض ريغسنايدر العجوز وكان يتوقع هذه الساعة ويحلم بها طيلة هذه السنين كلها، والآن عندما رأى الضوء الضعيف يتراقص بخفة امامه ثبت انظاره فيه بتساؤل وقد استقرت يده الضامرة في شعر رأسه الأشيب.

ولأول مرة طيلة هذه السنين زاره فجأة سحر قوامها العذري كما عرفه ايام

Twitter: @ketab_n

شبابه، بنفس الابتسامة الحلوة العطوف والشعر الكستنائي، والحزام الازرق الذي لفت به خصرها مرة وهما في احدى رحلاتهما وحركاتها الرشيقة المرحة. واستدار حول جذع الشجرة مجهداً عينيه، ناسياً لاول مرة عصاه وأوانيه، وأخذ يتبعها بشوق محتدم. وجدت بسيرها امامه كشعلة المستنقعات الربيعية، ولسان صغير من اللهب فوق رأسها، وبدت بين شجيرات الدردار والزان، وبين جذوع اشجار الجوز الضخمة كما لو انها تلوح له بيد بضة فتية.

وراح ينادي: «يا فيبة! فيبة! أأتيت حقيقة؟ هل أجبت ندائي حقيقة؟» وهرول اليها، وسقط مرة فوقف متهالكاً يعرج على رجليه ليرى الضوء من جديد يرقص مخادعاً ويتحرك باستمرار من بعيد. وراح يسرع اكثر حتى كادت سرعته تصبح ركضاً، وذراعاه المهلهلتان ترتطمان بالاشجار، ضارباً يديه ووجهه بعساليجها المتهدلة. سقطت قبعته، وانقطع التنفس من رئتيه، وشط عقله تماماً. وعندما اقترب الى حافة الهوة رآها في الاسفل من بعيد بين اشجار التفاح الفضية المتفتحة بازهار الربيع.

ونادى: «يا... فيبة! يا فيبة! آه، كلا، لا تتركيني!»

واذ هو يشعر بغواية دنيا، الحب فيها فتي، وفيبة كما كشفت له منها هذه الرؤيا، خلاصة لذيذة لشبابها الذي انقضى، صاح صيحة جذلى «آه، انتظريني يا فيبة!» وقفز.

بعد بضعة ايام خرج بعض الصبيان المزارعين يتجولون في هذه المنطقة من المقاطعة، فوجدوا اول الأمر أوانيه الصفيحية مربوطة بعضها ببعض تحت شجرة حيث تركها، وبعد ذلك وجدوا جثته في أسفل الهوة وهي شاحبة مهشمة، ولكن محياه كان منتشياً بابتسامة سلام وفرح مطبوعة على شفتيه. ثم عثروا على قبعته العتيقة ملقاة تحت شجيرة منخفضة احتجزتها العساليج. ما من احد عرف، من اولئك السكان البسطاء كم كان شوقه وفرحه عظيمين عندما وجد وليفته الضائعة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

البركة الشريرة

بقلم: هيو ولبول
انكليزي (١٨٨٤ - ١٩٤١)

تنقل فوستر وهو غافل في انحاء الغرفة، ثم مال نحو رفوف المكتبة منحنياً عليها قليلاً، واخذ يقلب الكتب ويتفحصها بعينيه واحداً واحداً. وبينما كان مضيفه يرمقه من الخلف ويرى عضلات عنقه النحيل نافرة فوق ياقته المنخفضة، فكر في السهولة التي يستطيع بها دق ذلك العنق، وباللذة الشهوانية المنتصرة التي سيجنيها من فعلته تلك.

كانت الغرفة ذات السقف المنخفض الابيض والجدران البيضاء مليئة بشمس «أرض البحيرات» الناعمة وتشرين الأول شهر بديع في البحيرات الانكليزية، إذ تتحرك ببطء في سمائها المخضبة بلون مشمشي شمس ذهبية غنية عطرة، تصبغ الامساء بلون الياقوت والرمان. وترقد الظلال عندئذ كثيفة في انحاء الريف الجميل بين رقع ارجوانية داكنة وأشكال مستطيلة فضية شفافة كنسيج العنكبوت، ولطخات كثيفة من الرمادي والكهرمان. وتمر السحب كسفن شراعية فوق الجبال تغطيها آناً وتكشفها آناً، وتهبط في آن آخر كجحفل من الاشعاع تقتحم منبسط السهول، ثم ترتفع فجأة نحو سماء زرقاء ناعمة وتنتشر برقة كسولة متراخية.

Twitter: @ketab_n

ألقى فنويك نظرة على ظهر فوستر وشعر بغتة بقرف ينتابه. فجلس مغطياً لبرهة عينيه بيديه. كان فوستر قد أتى الى هناك متجشماً مشقة الطريق من لندن لكي يوضح موقفه. وكان فنويك أيضاً كفوستر يرغب من صميم قلبه في ان يضع الأمور في نصابها. لعشرين سنة على الأقل عرف فوستر، وطيلة تلك السنين العشرين كان فوستر عاقداً العزم أبداً على تسوية أموره مع كل انسان. لم يكن باحتماله ان يكون مكروهاً. ولشد ما كان يؤذيه ان يفكر به امروء بأي سوء. فهو يرغب في ان يكون كل احد صديقاً له، ولربما كان ذلك احد الاسباب في سير الأمور معه سيراً حسناً ونجاحه في الحياة، وهذا ما لم يحققه فنويك في حياته.

لقد كان فنويك عكس فوستر في هذا المجال. فلم يكن يرغب في الاصدقاء، ولم يكن يبالي بان يحبه احد من الناس الذين، لسبب ما، كان يحتقر عدداً كبيراً منهم.

نظر فنويك الى ذلك الظهر النحيل الطويـل المنحني وشعر بـركبتيه تـرتجفان. سرعان ما سيلتفت فوستر الى الخلف ويرتفع صوته العالي، الشبيه بصوت المـزمار، معلقاً على الكتب:

يا للكتب البديعة التي لديك يا فنويك! فكم من مرة في أثناء يقظاته الطويلة في الليل، عندما لم يكن فنويك يعرف الى النوم سبيلاً، جاءه ذلك الصوت الشبيه بصوت المزمار يخرق اسماعه وهو مستلقٍ في ظلال سريره! وكم من مرة اجـابه فـنويك: اني اكرهك! فانك أنت السبب في فشلي في الحياة! كنت دائماً عثرة في سبيلي. دائماً، دائماً، دائماً!' تعضدني متنازلاً مترفقاً، وتجعلني في الحقيقة أبدو امام الآخـرين الشيء الحقير الذي تظنني اياه، الفاشل، الأحمق المغرور! أنا اعلم. وليس بوسعك ان تخفي شيئاً عني! استطيع ان اسمعك!

لعشرين سنة مكث فوستر عائقاً ملحاً في سبيل فنويك. وكـان ذلك منـذ أمد بعيد عندما حصل ذلك الحادث يوم اراد روبنسن تعيين مساعد له في تحرير صحيفته الممتازة «البارثنون»، وذهب فنويك ليقابله، وتكلما سوية كلاماً رائعاً. يا للبراعة التي تكلم بها فنويك في ذلك اليوم، والحماس الذي اظهره لروبنسن (الذي كان غروره قد أعماه على كل حال) بشأن الحلّة القشيبة التي بالامكان ان تصدر بها «البارثنـون»، وكيف اصابت روبنسن العدوى من حماسته فـراح يندفـع بجسمه البـدين في انحاء

Twitter: @ketab_n

الغرفة صائحاً: «نعم، نعم يافنويك ـ ان ذلك لبديع! بديع حقاً!» ـ وبعد ذلك، على كل حال، كان فوستر هو الذي حصل على العمل.

نعم، صحيح ان الصحيفة عاشت سنة واحدة أو نحو ذلك، لا أكثر، ولكن علاقة فوستر بها دفعت به الى الصدارة والشهرة، وكان بالمستطاع ان تكون هذه الشهرة من نصيب فنويك!

ثم، بعد خمس سنوات، كانت هناك رواية فنويك «الصبر المر» ـ الرواية التي صرف عليها ثلاث سنوات من جهد ودماء ودموع ـ وبعدئذ، وفي نفس الاسبوع الذي نشرت منه، نشر فوستر روايته «السيرك»، الرواية التي وطدت اسمه، ولو انها كانت، والله اعلم، رواية عاطفية ركيكة تافهة. بوسعك القول بأن رواية «السيرك» آنذاك، اما كان الجمهور اللندني، ذلك الجمهور المحدود المغرور الجاهل، والذي يستطيع، مع ذلك، ان يفعل بكلامه العجب العجاب، ويؤثر في مقدرات الكتب الصالح منها والطالح ـ اما كان يقبل على كتاب «الصبر المر» ويدفع به الى الشهرة؟ ولكن الكتاب ولد ميتاً، بينما راح كتاب «السيرك» يقفز بطفرات مرحة الى الامام.

بعد ذلك كانت هنالك فرص عديدة ـ بعضها صغير، وبعضها كبير ـ كان في اثنائها يتدخل دوماً هيكل فوستر النحيل الضامر في شؤون سعادته بشكل أو آخر.

وغدا الأمر ملحاً في ذهن فنويك ينغص عليه عيشه. وإذ كان مختبئاً في قلب مقاطعة البحيرات بدون اصدقاء أو جليس، وبمبلغ زهيد جداً من المال، أغرق في تأملاته السوداء يفكر في فشله الى حد الافراط. كان فاشلاً ولا شك ولكن ذلك لم يكن خطأه. كيف يمكن ان يكون خطأه وهو بتلك المواهب والذكاء المتألق؟ لقد كان خطأ الحياة العصرية وافتقارها الى الثقافة، خطأ فوضى المادة الحمقاء التي ركب منها ذكاء المخلوقات البشرية وخطأ فوستر.

كان فنويك يأمل دوماً ان يبقى فوستر بعيداً عنه. ولم يكن يعرف ما الذي سيفعله إذا ما رآه. وفي يوم من الأيام، عجب أشد العجب، حين وصلته برقية تقول:

«أيمكنني، وأنا مجتاز هذا الطريق، ان امكث معك يومي الاثنين والثلاثاء؟

Twitter: @ketab_n

جايلز فوستر». كاد لا يصدق فنويك عينيه. وبعدئذ، وبدافع من حب الاستطلاع، وبدافع اشد عمقاً وغموضاً مما يستطيع ان يحلله أبرق اليه: «تعال».

وها هو الرجل، لقد أتى ـ أتصدق ذلك؟ لقد بلغ مسامعه من «هاملن أديس» أن فنويك قد تضرر بسببه وان له ظلامة ما تجاهه.

«لم استسغ هذا الشعور، يا صديقي القديم، ولذا فكرت بالتوقف في طريقي لأفض الأمر معك وأنهي القضية مهما كانت.»

لقد جرب في الليلة الماضية بعد العشاء ان يسوي الأمر مع فنويك، ومد يده بحرارة وعيناه كعيني الكلب الأصيل الذي يطلب عظمة ويعرف انه يستحقها كل الاستحقاق، وراح يسأله:

«ماذا عسى ان يكون الأمر؟»

فأجابه فنويك بكل بساطة ان ليس هناك شيء على الاطلاق، وان هاملن أديس أحمق مأفون.

فصاح فوستر وهو يقفز عن كرسيه ويضع يده على كتف فنويك: «آه، يسرني ان اسمع ذلك ايها الصديق القديم! ألا نكون صديقين، فكرة لا استطيع تحملها بعد ان دامت صداقتنا طيلة هذه السنين.

يا الله! لشد ما كرهه فنويك في تلك اللحظة.

ثم استدار فوستر ورمق فنويك بعينين تواقتين مليئتين بالامتنان، وقال: «يا لكتبك البديعة يا فنويك، ان كل كتاب منها يثير الاهتمام! ولشد ما يعجبني تنظيمك لها ايضاً. وتلك الرفوف المفتوحة!

ـ أليس مخجلاً ان تحجز الكتب وراء الزجاج!»

وتقدم فوستر وجلس ملاصقاً مضيفه حتى انه انحنى ووضع يده على ركبته وقال: «انظر! اني اكررها لآخر مرة ـ جازماً! اني ارغب من صميم قلبي ان اتأكد من ذلك. ليس من شيء بيننا، أليس كذلك يا صاح؟ أعرف انك اكدت لي ذلك الليلة الماضية. ولكنني، فقط أريد ـ»

Twitter: @ketab_n

ونظر اليه فنويك متفحصاً، وشعر بغتة بلذة حادة من الكراهية، حتى انه احب لمسة يد الرجل على ركبته. واحنى نفسه قليلاً الى الامام مفكراً ما أنسب لو انه يضغط على عيني فوستر ويدفعهما الى أعمق اعماق جمجمته، يسحقهما ويعجنهما حتى يتركهما محجرين محملقين دامين. وقال: «لا، بالطبع لا. لقد اخبرتك بذلك الليلة الماضية. ماذا يمكن ان يكون بيننا؟»

فشدد فوستر قبضته على ركبة فنويك وقال: «اني، وايم الحق مسرور جداً! بديع! بديع! وأرجو ان لا تظنني سخيفاً إذ كنت دوماً اكن لك مودة منذ ما اتذكر، وكنت ارغب دوماً في ان اعرفك بصورة أفضل، لأنني كنت اعجب بمواهبك الى حد كبير. ان روايتك تلك التي كتبتها عن ـ عن الصبر ـ» «الصبر المر؟»

«نعم، تلك. لقد كانت رواية ممتازة، تشاؤمية ولا شك ولكنها بديعة. كانت تستحق رواجاً اكثر. واذكر ان هذا ما كنت افكر به في ذلك الحين.

«نعم، كان الأولى بها ان تروج كثيراً.»

«وقتك سيحين على كل حال. وما اقوله هو ان العمل الجيد يعلن عن نفسه في النهاية.»

«نعم، سيحين وقتي.»

واستمر صوت فوستر الرقيق الشبيه بصوت المزمار:

«لقد حصلت أنا على نجاح اكثر مما استحق. نعم، حزت على النجاح ولا تستطيع نكران ذلك. اني لست من المتواضعين كذباً. اني اعني ما اقول. لي موهبة قليلة دون ريب، ولكن ليس بالمقدار الذي يقوله الناس عني، وانت! لك مواهب اكثر بكثير مما يعترفون به. هذا اكيد يا صاح. لك مواهب بدون شك، ولكن ـ وأرجو المعذرة في قولي هذا ـ لعلك لم تتقدم التقدم الذي أنت أهل له. فأنت تعيش هنا منزوياً، مطوقاً بكل هذه الجبال، المناخ رطب، والمطر يهطل بصورة مستمرة. انك منقطع عن العالم كلياً! الا ترى الناس ولا تحادثهم لتكشف مجرى الامور. لماذا؟ انظر الي!»

Twitter: @ketab_n

فالتفت فنويك ونظر اليه.

«اني اقضي نصف السنة في لندن، حيث في امكان المرء الحصول على الأحسن من كل شيء. احسن الكلام، واحسن الموسيقى، واحسن التمثيليات. ثم ارحل الى الخارج لثلاثة أشهر، الى ايطاليا أو اليونان أو أي مكان آخر. وبعد هذا اقضي ثلاثة أشهر في الريف. وهذا ترتيب مثالي ينال به المرء مناه.»

ايطاليا او اليونان او أي مكان آخر!

التوى شيء في صدر فنويك وراح يعصر ويعصر ويعصر. لكم اشتاق، آه، لكم تحرق لاسبوع واحد في اليونان، ويومين في صقلية!

ثم نهض والقى نظرة الى الخارج، على الشمس الذهبية.

واقترح: «ما رأيك في نزهة قصيرة؟ لا يزال هناك من الزمن ساعة كاملة للشمس حتى تغيب.» وما ان انطلقت هذه الكلمات من بين شفتيه حتى شعر كما لو ان شخصاً آخر قد تفوه بها عوضاً عنه، فاستدار ليرى ما اذا كان هناك احد غيره. انه منذ وصول فوستر مساء أمس وهذا الشعور ينتابه. نزهة قصيرة؟ ولماذا يأخذ فوستر الى نزهة قصيرة، ويريه ريفه المحبوب، ويبرز له التعاريج والخطوط والتجاويف، ومياه بحيرة «الزووتر» الشبيهة بترس فضي عريض، والتلال القرمزية المتوجة بالسحب والمحدودبة كبطانيات حول ركبتي مارد متكىء؟ لقد كان كمن يلتفت الى الوراء ويرى شخصاً آخر يقول له: «ان لك مأرباً آخر من وراء ذلك.»

ابتدأ بالسير، واخذ الطريق ينحدر نحو البحيرة. وامتد الدرب بين الاشجار على حافة المياه. وكانت ألوان من الضوء الزعفراني البراق ترى عبر البحيرة وهي تجثم على اللون الأزرق. وكانت التلال داكنة.

كانت الهيئة التي يسير عليها فوستر تنم عنه. إذ تراه دوماً يسبقك قليلاً يدفع هيكله الطويل النحيل دفعات قصيرة حماسية وكأنه، إذا لم يسرع، سيفوته شيء يفيده كثيراً. وتكلم يرمي الكلمات لفنويك من فوق كتفه كما ترمي فتاة الخبز الى الهزار.

«كان سروري عظيماً دون ريب. ومن لا يسر لذلك؟ ومهما يكن، فانها جائزة

Twitter: @ketab_n

جديدة ابتدأوا في منحها منذ سنة أو سنتين فقط. ولكنها مرضية تبعث على الانشراح - مرضية حقاً - ان تحوز عليها. وعندما فضضت الغلاف ووجدت الصك هناك. كان بوسعك ان ترميني ارضاً بريشة طير. كنت تقدر على ذلك وايم الحق. وبالطبع مئة دينار ليست كثيرة، ولكن الشرف هو الذي. »

الى اين كانا ذاهبين؟ كان قدرهما حتمياً كما لو انهما بغير ارادة حرة. ارادة حرة؟ ليس ثمة ارادة حرة. ان كل شيء قضاء محتوم، وضحك فنويك بغتة بصوت عال.

فتوقف فوستر وقال: «وما ذاك؟»

«ماذا ماذا؟»

«لقد ضحكت.»

«خطر لي شيء فاضحكني.»

فشبك فوستر ذراعه بذراع فنويك وقال: «جميل ان نمشي سوية هكذا، صديقان وذراعانا متشابكتان أنا رجل عاطفي، لا انكر ذلك. ان ما اقوله هو ان الحياة قصيرة وان على المرء ان يحب اخوانه الناس. «ثم ضغط على ذراع فنويك واردف: «انك وايم الحق، تعيش في وحدة متناهية يا رجل.»

كان ذلك لفنويك عذاباً، عذاباً سماوياً رائعاً ان يشعر بتلك الذراع النحيلة المعروقة تضغط على ذراعه. وكان بوسعك ان تسمع تقريباً ضربات ذلك القلب الآخر. من البديع ان تشعر بتلك الذراع وباغراء اخذها بين يديك لتحنيها ونلويها ومن ثم لتسمع صوت العظام تطقطق - طق - طق -.من البديع ان تشعر بذلك الاغراء ويسري في بدنك كماء يغلي ومع ذلك لا ترضخ له. وللحظة مست يد فنويك يد فوستر، ولكنه جذب نفسه وانفصل عنه بعيداً.

«نحن الآن في القرية. وهذا هو الفندق الذي يحل فيه الجميع اثناء الصيف. اننا سنعرج الآن هنا على اليمين وسأريك بركتي الجبلية.»

وسأل فوستر: بركتك الجبلية؟ ولكن، اعذرني على جهلي، ما هي هذه البركة تماماً؟» انها بحيرة صغيرة جداً، بركة من الماء في احضان التل. هادئة جداً وجميلة

Twitter: @ketab_n

وسكونة. وبعض هذه البرك في منتهى العمق.»

«احب ان اراها.»

«انها على بعد قليل - والطريق وعر يذهب صعداً. هل من مانع لديك؟»

«ابداً ان لي ساقين طويلتين»

«بعضها متناه في العمق، لا يسبر غوره، وما استطاع احد مس قعرها. ولكنها صافية كالزجاج. اما الظلال -.»

«اتدري يا فنويك، لقد كنت دوماً اخاف الماء، ولم اتعلم السباحة قط. اني اخشى العمق، اليس ذاك سخفاً؟ ولكن كل هذا نجم عن مدرستي الخصوصية. فقبل سنين طويلة، عندما كنت صبياً صغيراً، أخذني بعض الاولاد الكبار وغطسوني في الماء وامسكوا برأسي تحته حتى كدت أموت غرقاً. هذا ما فعلوه، والله. لقد غالوا في فعلتهم اكثر مما قصدوا، وفي وسعي ان ارى وجوههم حتى الآن.»

وتمعن فنويك بهذا القول، وقفزت الصورة الى مخيلته، واستطاع ان يرى الاولاد، كباراً اقوياء، ويرى هذا الهيكل الهزيل كالضفدعة، وايديهم الغليظة حول هذه الحنجرة. وساقه كعودين رطبين يرفسان الهواء من خلال الماء وضحكاتهم، واحساسهم الفجائي بما لم يكن يتوقعونه، والجسم الهزيل ممدد وساكن.

وشهق بنفس عميق.

كان فوستر الآن يسير بجانبه، لا امامه، كما لو كان وجلا بعض الشيء يحتاج الى قوة تشد من عزائمه. وتغير المشهد. وامتد الدرب يعلو امامهم على التل، وكان رخو الاديم منثوراً بالحجارة. وكان في سفح التل على يمينهم بعض المقالع تكاد تكون مهجورة وتبعث على الكآبة في ذلك الأصيل المتلاشي بسبب العمل البطيء الذي ما زال مستمراً هناك. وكانت اصوات خافتة تنبعث من المداخن النحيلة الصاغية. وجدول من الماء يجري نزلاً وينصب غضوباً في بركة في اسفل التل. وبين حين وحين ترى ظلاً اسود آخذاً شكل علامة استفهام منطبعاً على صفحة التل الداكن.

كان المنحدر هنا اكثر شدة، فأخذ فوستر يلهث وينافخ. فاشتدت كراهية

Twitter: @ketab_n

فنويك له بسبب ذلك: «نحيل وضامر ولا يستطيع حفظ توازنه. وتعثرا وهما سائران تحت المقلع على حافة المياه الجارية، الخضراء في حين، والرمادية البيضاء متسخة في حين آخر، وهما يتحسسان طريقهما صعداً على جانب التل.

كان وجهاهما الآن صوب جبل هلفلين الذي انغلق عند القاعدة بما طوقه من تلال مستديرة، وانبسط بعدئذ ممتداً نحو اليمين.

وهتف فنويك: «تلك هي البركة!» ثم اردف: «لم يبق لغياب الشمس من الوقت ما توقعته. وها قد بدأ الظلام يحل.»

وتعثر فوستر وأمسك بذراع فنويك وقال: «ان هذا الغسق يجعل التلال تبدو غريبة ـ وكأنها أناس احياء. اني أكاد لا أرى طريقي.»

فأجاب فنويك: «نحت وحيدان هنا. ألا تشعر بالسكون؟ ان العمال قد تركوا المقلع الآن وذهبوا الى بيوتهم. ولا يوجد في كل هذا المكان احد سوانا. واذا امعنت النظر فانك سترى ضوءاً اخضر غريباً ينساب متلصلصاً على التلال، يدوم برهة ـ ثم يهبط الظلام.

«آه، ها هي بركتي. حبذا لو تعرف كم أعشق هذا المكان، يا فوستر! انه يبدو اشبه بملكي الخاص كما تبدو جميع كتاباتك ومجدك وشهرتك كانها ملك لك. لي هذا وانت لك ذاك. وفي النهاية لربما كنا متساويين. نعم ـ.»

«ولكنني أشعر وكأن تلك المياه تخصني كما أخصها، ولن نفترق أبداً ـ نعم. ألا تراها سوداء؟»

«انها بركة من أعمق البرك. لم يستطع احد سبر غورها مطلقاً، ولا يعلم هذا الا جبل هلفلين الذي يخيل الي انه سيجعلني في يوم من الايام أهلاً لثقته، ويهمس لي باسراره ـ»

وعطس فوستر: «لطيفة جداً، جميلة جداً يا فنويك. لقد احببت بركتك. انها فتانة. والآن دعنا نرجع ـ لقد كان سيرنا شاقاً هناك تحت المقلع، والبرد قارس ايضاً.»

Twitter: @ketab_n

وأمسك فنويك بذراع فوستر يقوده قائلاً: «هل ترى ذلك الرصيف الصغير هناك؟ لقد ابتناه احدهم في المياه. وأظن انه كان له قارب هناك. تعال الق نظرة الى عمقها. انها تبدو من نهاية الرصيف في غاية العمق، وتظهر الجبال وكأنها تطبق عليها من كل جانب.»

وسار فنويك يقود فوستر من ذراعه حتى وصل به الى نهاية الرصيف. وفي الحق بدت المياه في منتهى العمق: عميقة حالكة كالظلام. وتفحص فوستر اعماقها، ثم رفع بصره ورمق التلال التي بدت حقيقة وكأنها تجمعت والتفت حوله. وعطس ثانية.

«لقد اصابني برد، وانا خائف. دعنا نرجع الى البيت يا فنويك، والا فاننا لن نجد طريقنا مطلقاً.»

وقال فنويك: «اذن الى البيت.» واطبقت يداه حول العنق الضامر النحيل، فالتوى الرأس حالاً نصف لوية، وجحظت العينان الواجفتان الصبيانيتان الى حد الغرابة. وبدفعة بسيطة مضحكة هوى الجسم الى الامام، تلاه صراخ حاد فتطاير رشاش الماء، فحركة شيء ابيض يتخبط مرات متتالية في عتمة الغسق الآخذة بالاسوداد، فحلقات تنتشر في الاتساع على صفحة الماء، فصمت.

وامتد الصمت، وساد على البركة وانتشر كأنه اصبع على شفة التلال الهامدة. وشارك فنويك السكون وانغمس في ترفه. لم يتحرك قط، بل وقف هناك ينظر الى مياه البركة التي بدت بلون الحبر، وذراعاه مطويتان على صدره، تائهاً في أعمق الأفكار. ولكنه لم يكن يفكر. بل كان يشعر بارتياح مترف دافئ.

لقد زال فوستر ـ ذلك الأحمق المتعب الثرثار المغرور! زال الى غير ما رجعة. البركة اكدت له ذلك، إذ انها حملقت في وجه فنويك مستحسنة وكأنها تقول له: نعم ما فعلت! عمل رشيق متقن وضروري. ولقد فعلناه سوية، أنت وأنا. اني فخورة بك.

وكان فخوراً بنفسه. لقد فعل اخيراً شيئاً مهماً في حياته! وابتدأت افكار ملحة تطفح في دماغه. لقد تعلق طيلة هذه السنين في أرجاء هذا المكان لا يعمل شيئاً سوى احتضان الضيم عاجزاً مزعزع الشخصية ـ والآن، لقد فعل شيئاً. حصن نفسه ونظر

Twitter: @ketab_n

الى التلال. كان فخوراً ـ وشعر بالبرد، ثم أخذ يرتجف. فرفع ياقة معطفه الى الاعلى. نعم، لقد كان هناك ذلك الضوء الضعيف الأخضر الذي كان يتعلق دوماً بظلال التلال لبرهة وجيزة قبل حلول الظلام. وكان الوقت قد تأخر. ومن الأفضل له ان يرجع.

ثم اشتد رجيفه وأخذت اسنانه تصطك. وفيما هو ينزل الدرب وجد انه لا يرغب في ترك البركة. لقد كانت ودودة له ـ الصديقة الوحيدة في الدنيا. وإذ هو يتعثر في الظلام اخذ الاحساس بالوحدة ينمو ويقوى. كان ذاهباً الى بيت خاوٍ. وكان ثمة ضيف في الليلة الماضية. من كان؟ فوستر، بالطبع ـ فوستر بضحكته البلهاء وعينيه العاديتين. حسناً، لن يكون هناك فوستر بعد الآن. لا، لن يكون هناك مطلقاً.

وبغتة اخذ فنويك يركض. ولم يدر لماذا، سوى انه حين ترك البركة الآن شعر بالوحدة. واشتهى لو يستطيع ان يمكث هناك الليل بطوله. ولكن البرد حال دون رغبته تلك. فراح يعدو حتى يمكنه ان يكون في البيت مع الأضواء والأثاث الذي يعهده ـ وكل الأشياء الاخرى التي عرفها لعلها تبعث الثقة في نفسه.

وبينما هو يركض كانت الحجارة والقطع الصلصالية الجافة تتطاير من تحت قدميه وتحدث اصواتاً، فخيل اليه ان هناك شخصاً آخر يركض معه . توقف، فتوقف الشخص الآخر ايضاً. وتنفس في وسط السكوت، ثم شعر بالحرارة تسري في جسمه، والعرق ينساب على خديه، حتى انه احس بقطرات منه تتدحرج على ظهره من تحت القميص. وكانت ركبتاه تصطفقان، وقلبه يخفق. وكان كل ما حوله من التلال ساكناً الى درجة غريبة. وكالمطاط الذي تضغطه وتجذبه كما تفعل بتلك الوجوه المطاطية هكذا بدت السحب الرمادية في ذلك الليل على سماء ارجوانية بلورية حيث ظهرت على صفحتها النجوم كانوار البواخر تتلألأ في عرض البحر.

تماسكت ركبتاه، وقل خفقان قلبه الشديد، وابتدأ يعدو مرة أخرى. وبغتة دار حول المنعطف وبان الفندق امامه. كانت اضواؤه لطيفة تبعث على الثقة. وراح يسير بهدوء في الطريق بمحاذاة البحيرة. ولولا انه كان متأكداً من ان شخصاً يخطو وراءه، لشعر بالراحة والاطمئنان. وتوقف مرة او مرتين وتطلع الى الخلف. ومرة توقف ونادى: «من هناك؟»

Twitter: @ketab_n

ولم يجبه احد سوى حفيف الاشجار.

كانت مخيلته مفعمة باغرب التصورات، ولكن دماغه كان ينبض بعنف لم يستطع معه التفكير بان البركة هي التي كانت تتبعه، وان البركة هي التي كانت تنساب وتنزلق على طول الطريق، تلحقه كي لا يبقى وحيداً. وكان بوسعه تقريباً ان يسمع البركه تهمس في اذنه: لقد فعلناها سوية، ولذا لا أريد ان ادعك تتحمل المسؤولية كلها بمفردك. سأمكث معك كي لا تبقى وحيداً.

وانحدر في الطريق نحو البيت، وهناك رأى اضواء منزله. وسمع تكتكة البوابة الخارجية وراءه وكأنها تحتجزه. ثم دخل غرفة الجلوس وهي مضاءة وجاهزة. والكتب التي اعجب بها فوستر منتظمة فيها.

وظهرت المرأة العجوز التي كانت تعتني به وقالت: «هل تتناول قليلاً من الشاي يا سيدي؟» «لا، اشكرك يا آني.»

«هل يرغب السيد الآخر في شيء منه؟»

«لا. ان السيد الآخر لن يكون هنا الليلة.»

«اذن هل اجهز العشاء لشخص واحد؟»

«نعم. لشخص واحد فقط.»

وجلس في زاوية المقعد الكبير وراح للتو في نعاس عميق. واستيقظ عندما ربتت المرأة العجوز على كتفه مخبرة اياه بان العشاء جاهز. وكانت الغرفة مظلمة باستثناء ضوء يتراقص منبعثاً من شمعتين واهيتين. ولكم بغض ذينك الشمعدانين الاحمرين على رف المدفأة. كان يكرههما دائماً والآن بديا له وكأنهما حائزان على مزايا صوت فوستر - ذلك الصوت الرقيق الشبيه بنغمة مزمار قصبي.

كان يتوقع في كل لحظة ان يدخل فوستر مع انه كان على يقين من انه لن يدخل ابداً. واستمر يلتفت بوجهه تجاه الباب ولكن الظلام كان حالكاً لا يستطيع ان يرى فيه شيئاً. كانت الغرفة كلها مظلمة ما عدا مكان المدفأة حيث كان ذينك الشمعدانان يئنان بنحيب تعس وهما يشعان.

Twitter: @ketab_n

ذهب الى غرفة الطعام وجلس ليتناول عشاءه. ولكنه لم يستطع ان يأكل شيئاً. وبدا غريباً ذلك المكان بجانب المائدة ـ مكان كرسي فوستر. غريباً، خاوياً، يجعل المرء يشعر بالوحشة.

ونهض مرة عن المائدة وذهب الى النافذة وفتحها والقى نظرة الى الخارج واصغى، انه يسمع شيئاً كانسياب مياه جارية، وحركة في السكون كأنه بركة عميقة تمتلىء حتى حافتها. لربما كان حفيفاً بين الأشجار ـ ونعق بوم. وبغتة أغلق النافذة بعنف وتطلع الى الخلف كأنما كان هناك احد وراء كتفه تكلم معه على غير انتظار، وراح يمعن النظر في أرجاء الغرفة من تحت حاجبيه الداكنين. بعدئذ ذهب الى الفراش.

هل كان نائماً، ام كان مستلقياً بكسل كمن يكون بين ناعس وبين مستلق لا يفكر. كان مستيقظاً الآن، مستيقظاً تماماً، وقلبه يخفق بانقباض وخوف. وكان يبدو وكأنما ناداه احد باسمه. وكان ينام دوماً والنافذة مفتوحة قليلاً. فظلل القمر الليلة بنوره الاشياء في غرفته بشكل معروض، اذ انه لم يكن دفقاً من ضوء، ولا رشاشاً قوياً يطلي الدوائر والمربعات بطلاء فضي ويقذف البقية في ظلمة عاجية، كان ضوءاً معتماً مخضراً قليلاً كتلك الظلال التي تكسو التلال قبل هبوط الظلام.

وحملق في النافذة وبدا له وكأنما تحرك شيء هناك. وفي الداخل، او بالاحرى على صفحة الضوء الرمادي المخضر برق شيء بلون الفضة. ونظر فنويك بعينين جاحظتين. لقد ظهر ذلك الشيء كماء ينساب.

ماء ينساب! واصغى رافع الرأس، وبدا له كأنما هو يسمع من وراء النافذة حركة مياه، لا تجري بل تطفح الى أعلى فأعلى وتبقبق.

وجلس مستوياً في السرير، فرأى المياه دون شك تنساب وتترقرق على جدار النافذة. واستطاع ان يرى الماء وهو يتجمع امام عتبة النافذة، يتمهل قليلاً ثم ينساب ويتعرج منحدراً. ولكن الشيء الغريب انه كان يسيل بسكون متناه.

ومن وراء النافذة كان ينبعث صوت تلك البقبقة الغريبة، ولكن ليس في داخل الغرفة الا ظلام مطبق. ترى من اين جاءت المياه؟ ورأى الخط الفضي يعلو وينخفض

Twitter: @ketab_n

كلما فاض الجدول على حافة النافذة وانسكب.

يجب ان ينهض ويغلق النافذة! وجذب ساقيه فوق الشراشف البيضاء والبطانيات. ونظر الى اسفل.

وصرخ. لقد كانت الارض مغطاة بطبقة شفافة لامعة من المياه. وكانت ترتفع. وبينما هو ينظر اليها علت حتى بلغت منتصف أرجل السرير. كانت تفيض دون بقبقة أو فتور! وراحت تنسكب من عتبة النافذة بفيض ثابت مستمر، ولكن بدون حس. وجلس فنويك في السرير متلفلفاً بالفراش حتى ذقنه، وعيناه ترمشان.

ولكن لا بد من عمل شيء. يجب ان يوقف هذا! وكانت المياه الآن قد بلغت مستوى مقعد الكراسي، ولكنها لا تزال صامتة. لو استطاع فقط ان يمشي على الارض!

انزل رجله العارية ثم صرخ ثانية. كانت المياه باردة كالصقيع. وفجأة وبينما هو يحملق في بريقها المنبسط القاتم، بدا كأنما شيء يدفعه الى الامام. وسقط. وغطس رأسه ووجهه تحت السائل الجليدي وبدت المياه دبقة، وفي قلب صقيعها حرارة شديدة كحرارة شمع ذائب. وناضل واقفاً على قدميه. ولكن المياه بلغت صدره. وصرخ عدة مرات. كان بوسعه ان يرى المرآة، وصفوف الكتب، وصورة «الحصان» لديور منزوية صماء. اخذ يتخبط في المياه، وبدا كأنما ندف منها تلتصق به كحراشف السمك، لزجة الملمس. وراح يناضل وهو يشق طريقه نحو الباب.

وبلغت المياه الآن عنقه. ثم امسك بكاحله شيء وأوقفه. وأخذ يصارع صارخاً، «دعني! اقول لك دعني انطلق! ابغضك! اكرهك! ولن انزل! لن -»

وغطت المياه فمه. وشعر ان احداً ما قد دفع بمقلتيه الى اعماق محجريهما بقبضة معروقة، وتوصلت اليه يد باردة وقبضت على فخذه العاري.

وفي الصباح قرعت الخادمة الصغيرة الباب، ولما لم تسمع جواباً، دخلت كعادتها بماء الحلاقة. وما رأته بعدئذ جعلها تزعق وتصرخ، ثم ركضت الى البستاني. وامسكا بالجسد وعيناه نافرتان جاحظتان، ولسانه بين اسنانه المطبقة ووضعاه على الفراش.

Twitter: @ketab_n

ان العلاقة الوحيدة في عدم الترتيب التي رأياها، كانت ابريق ماء مقلوب وبركة صغيرة من الماء لطخت السجادة.

كان الصباح رائعاً. وكان غصـن من المتسلق ينقر متكاسلاً زجاج النافذة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نفير البحر

بقلم: راي برادبري
امريكي (١٩٢٠ -)

هنـاك بعيداً في الميـاه الباردة، وبعيـداً عن اليابسـة، انتـظرنـا كـل ليلة مجيء الضباب. وأتى الضباب، فقمنا بتزييت الآلة النحاسية وأنرنا «ضوء الضباب» في قمة المنارة الحجرية. وكعصفورين في السماء الرمادية، أرسلنا، أنا وماكدن، الضوء يشع، أحمر فأبيض ثم أحمر مرة ثانية ليحرس السفن الهائمة الوحيدة ويرشـدها. واذا لم تـر السفن ضوءنا كان هنالك دائماً «صوتنا»، صراخ نفيرنا العميق العظيم وهـو يرتعش عبر مزق الضباب ليجفل النوارس ويطيرها كأوراق اللعب المبعثرة، ويجعـل الأمواج تعلو وتزبد.

وسأل ماكدن: «انها حياة معزولة ولا شك، ولكنك قد تعودت عليهـا الآن، أليس كذلك؟»

فقلت: «نعم، وانت محدث طيب والحمدلله.»

فقال مبتسماً: «ولكن الدور غدا دورك على اليابسـة، لكي تراقص السيـدات وتشرب الجن».

قلت: «بماذا تفكر يا ماكدن عندما اتركك هنا وحيداً؟»

Twitter: @ketab_n

قال: «اني افكر في غموض البحر واسراره.»

واشعل ماكدن غليونه. وكانت الساعة الربع بعد السابعة من أمسية من أماسي شهر تشرين الثاني الباردة. والمدفأة تشيع حرارتها، ونفير الضباب يغمغم في حنجرة المنارة العالية. لم تكن هناك أية بلدة على الشاطىء لمسافة مئة ميل سوى طريق منفرد معزول امتد في الأرجاء الميتة حتى البحر وبضع سيارات تسير عليه، ولسان طوله ميلان من المياه الباردة امتد حتى الصخرة التي نحن عليها، وعدد قليل من السفن.

وقال ماكدن بعد تفكير عميق: «غموض البحر واسراره. انت تعلم ان المحيط هو اكبر ندفة ثلج لعينة وجدت أبداً. انه يتلوى ويتضخم الى الف شكل ولون ولا تتشابه الاشكال أو الالوان أبداً. غريب.

«في ذات ليلة، وقبل سنتين، كنت هنا وحيداً عندما طفت أسماك البحر كلها هناك. شيء ما جعلها تسبح وتأتي هنا وتقبع في الخليج وهي ترتعش وتحملق في الضوء المنبعث من أعلى المنارة ويشع عليها أحمر فأبيض، فأحمر فأبيض، حتى انني استطعت ان أرى وجوهها المضحكة. فأصابتني قشعريرة. لقد بدا شكلها كذيل طاووس كبير تتحرك حتى منتصف الليل. ثم وبدون حس او نأمة انسابت ورحلت. مليون منها انقشع بكامله. فحدا بي الظن انها لربما أتت بصورة من الصور وقطعت تلك الأميال تقصد العبادة. غريب. ولكن تصور كيف بدت المنارة للأسماك وقد ارتفعت سبعين قدماً فوق المياه، والنور الالهي يشع منها معلنة عن نفسها بصوت وحشي. ولكن الأسماك لم ترجع قط. فهلا تظن لوهلة انها فكرت بانها في حضرة سامية؟»

ارتعشت. والقيت نظرة الى الخارج على اديم البحر الرمادي الفسيح وهو يمتد الى ما لا نهاية ولا مكان.

وأشعل ماكدن لفافة بعصبية مطبقاً عينيه للحظة. لقد كان مهتاجاً طيلة ذلك اليوم ولم يقل لماذا كان كذلك، وقال: «نعم، ان البحر مليء. وسيمر علينا عشرة آلاف قرن قبل ان نتمكن بكل ما لدينا من آلات وما نسميه بالغواصات، من ان نضع أقدامنا على القعر الحقيقي من الأراضي الغارقة في مملكة الجن هناك، ونعرف الرعب

Twitter: @ketab_n

الحقيقي. تصور، ان العصر هناك في الأعماق لا يزال في السنة ٣٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد. وبينما نحن منهمكون هنا ندور باستعراضات مصحوبة بنفير الأبواق يجتث كل منا بلد الآخر ويقطع بعضنا رؤوس بعض، يعيشون هناك في اغوار البحر البارد على عمق اثني عشر ميلاً في زمن سحيق شاخت لحيته كذيل النيزك».

قلت: «نعم. انه وايم الحق لعالم قديم.»

قال: «تعال يا صديقي، لدي شيء خاص احتفظت به لأقصه عليك.» وصعدنا الدرجات الثمانين ونحن نتكلم على رسلنا. وفي القمة أطفأ ماكدن أضواء الغرفة كي يمنع الانعكاس على صفحات الجدران الزجاجية. كان الضوء الكبير الأشبه بالعين العملاقة يطن وهو يدور على رسله في محجره المزيت، ونفير الضباب يرسل صيحاته بثبات مرة كل خمس عشرة ثانية.

وأومأ ماكدن برأسه قائلاً «انه يشبه الحيوان، أليس كذلك؟ حيوان ضخم وحيد يجأر في الليل وهو جالس هنا على حافة عشرة ملايين من السنين ينادي المحيطات العميقة، أنا هنا، أنا هنا، أنا هنا! والمحيطات ترد على نداءاته، نعم، ترد. غير انك وقد مضت عليك ثلاثة أشهر وانت هنا يا جوني، من الأفضل ان اهيئك للحدث العظيم. «ثم قال وهو يتفحص الظلمة والضباب: «ففي مثل هذا الوقت من السنة يأتينا شيء ليزور المنارة.»

فقلت متسائلاً: «جموع السمك التي قلت عنها؟»

فقال: «لا، هذا شيء آخر. ولقد أجلت إخبارك بهذا لأني قلت لنفسي لعلك تظنني مختل العقل. ولكن الليلة هي آخر ليلة استطيع بها التأجيل لأنه إذا كانت العلامة على تقويمي السنوي في السنة الماضية صحيحة تكون الليلة هي الليلة التي يأتي فيها.

«ولن أدخل في التفاصيل، وما عليك الا ان تجلس هنا وتراه بنفسك. واذا شئت بعدئذ تستطيع ان تحزم اغراضك غداً وتأخذ الزورق ليوصلك الى اليابسة حيث تجثم سيارتك على جسر القوارب قرب اللسان الرملي. ثم اذهب بعد ذلك الى احدى الجزر الصغيرة واقض لياليك هناك مشعشعة بالأنوار. ولن ألومك على ذلك. أما

Twitter: @ketab_n

الحادث فقد جرى منذ ثلاث سنوات وهذه هي المرة الوحيدة الأولى التي يشاهده فيها انسان برفقتي ليثبت حقيقته. انتظر وكن يقظاً.»

انقضت نصف ساعة لم نتفوه خلالها الا ببضع همسات. وعندما مللنا الانتظار أخذ ماكدن يشرح لي بعض أفكاره. لقد كانت له بعض النظريات عن نفير الضباب نفسه.

قال: «في يوم من الايام قبل سنين كثيرة سار رجل ووقف في صخب المحيط على شاطىء قرير غابت شمسه وقال: اننا بحاجة لصوت ينادي عبر المياه، وينذر السفن. سأعمل أنا صوتاً. ساعمل صوتاً لم يكن له مثيل في الزمن منذ ان وجد الضباب. صوت كسرير فارغ بجانبك طيلة الليل، وكبيت خاوٍ عندما تفتح الباب، وكأشجار الخريف العارية عن الاوراق. صوت كصوت العصافير الطائرة نحو الجنوب وهي تصيح، صوت كصوت رياح تشرين وكصوت البحر وهو يصفع الشاطىء الصلب القرير.

«سأعمل صوتاً وحيداً فريداً لا يمكن لأحد ان يخطئه. وجميع الذين يسمعونه سيبكون في داخل ارواحهم، وستبدو المواقد اكثر دفئاً. والذين يسمعونه في البلدان البعيدة سيبدو لهم أفضل لكونهم في داخل بيوتهم. ساعمل صوتاً وجهازاً سيدعونه نفير الضباب وكل من يسمعه سيعرف حزن الابدية وقصر الحياة.»

وعلا صوت نفير الضباب.

وقال ماكدن بهدوء: أنا اخترعت هذه الحكاية لكي أوضح لك لماذا لا ينقطع هذا الشيء عن المجيء الى المنارة كل سنة. وفي ظني ان بوق الضباب يناديه، وهو يلبي النداء...»

فقلت: «ولكن...»

فقال ماكدن: «ش ش ش! ها قد أتى هناك.» وأومأ برأسه نحو اليم العظيم.

وكان هنالك شيء يسبح نحو قلعة المنارة.

وكانت ليلة باردة كما قلت، والقلعة السامقة باردة ايضاً، والضوء يذهب

Twitter: @ketab_n

ويجيء، ونفير الضباب ينادي، وينادي في ثنايا السديم الكثيف المتشابك. لـم يكن بوسع المرء ان يرى بعيداً او ان يرى بوضوح، ولكن البحـر العميق كان يتحـرك في طريقه نحو الأرض المظلمة الليلاء، منبسطاً هادئاً لونه لون الطين، ونحن الاثنان هنا وحيدان في المنارة الشاهقة. وظهرت هناك بعيداً في البداية رقرقـة، ثم تبعتها مـوجة عارمة ففقاعة، فقليل من زبد.

ومن ثم نتأ من صفحة البحر القارس رأس كبـير قاتم اللون بعينـين هائلتـين وعنق اخذ يطول ويطول ويطول. وعلا الرأس اربعين قدماً كاملة فوق المياه على عنق رشيق قاتم جميل. وعندئذ فقط اخذ الجسم يظهر من الأعماق كجـزيرة صغيـرة من المرجان الأسود والاصداف وهو يقطر بـالماء وذيله يتحـرك. لقد قـدرت الوحش من رأسه حتى نهاية ذيله بتسعين قدماً أو مئة.

قلت شيئاً ولكن لا أدري ما الذي قلته.

وهمس ماكدن: «الثبات يا صاح، الثبات.»

فقلت: «هذا مستحيل!»

قال: «كلا يا جوني، بل نحن المستحيل. انه كما كان دائماً منذ عشرة ملايين من السنين. لم يتغير، وانما نحن والأرض هما اللذان تغيـرا واصبحنا من المستحيـلات. نحن.»

وأخـذ الوحش يسبـح ببطء وجلال قـاتم عظيم في الميـاه الجليديـة البعيـدة، والضباب يكتنفه ويمحو شكله بين فترة قصيرة واخرى. والتقطت احدى عيني الوحش ضوءنا الكبير وعكسته احمر فابيض فاحمر فابيض كقرص علا في الأجواء مرسلاً رسالة بشفرة بدائية فطرية. وكان ساكتاً كالضباب الذي يسبح فيه.

فقلت وأنا قابع وممسك بدرابزين السلم: «انه نوع من أنواع الدينوصور!»

«نعم، واحد من فصيلتها.»

«ولكنها انقرضت!»

«كلا، بل انها اختبأت في أعماق المحيطات، في القعر من أغوار أعمق محيط.

Twitter: @ketab_n

ولم تعد هذه كلمة عابرة يا جوني، بل كلمة حقيقية لها معنى كبير. ان كلمة محيط تحتوي على جميع البرودة والظلام والعمق في العالم.»

قلت: «والآن، ماذا سنفعل؟»

قال: «نعمل؟ لدينا وظيفتنا ولا نستطيع تركها. وعلاوة على ذلك نحن هنا آمن من ان نكون في أي قارب يأخذنا الى اليابسة. ان الوحش كبير كمدمرة ويكاد يكون سريعاً مثلها.»

«ولكنه لماذا يأتي الينا؟»

وفي اللحظة التالية تلقيت الجواب. علا صوت النفير منادياً، فأجابه الوحش بصراخ مماثل اخترق مليون سنة من المياه والضباب، صراخ فريد ملؤه العذاب شاع راعشاً في كياني ورأسي. كان الوحش يصرخ على القلعة. واطلق نفير الضباب صيحته فهدر الوحش ثانية. وصاح نفير الضباب مرة أخرى ففتح الوحش فمه الهائل المليء بالأسنان فكان الصوت الذي انطلق منه صوت نفير الضباب ذاته: موحش، مترام، بعيد. صوت العزلة، والبحر الخفي، والليلة القريرة الظلماء، ذلك كان الصوت.

وهمس ماكدن: «والآن أتعرف لماذا يأتي الى هنا؟»

فأومأت برأسي.

فقال: «ذلك الوحش المسكين يقبع السنة بكاملها بعيداً - لربما على بعد الف ميل في البحر وعلى عمق عشرين ميلاً - وهو ينتظر وقته المناسب، وقد يكون مليون سنة، تصور ان ينتظر هذا الوحش مليون سنة! أبوسعك أن تنتظر هكذا طويلاً؟ ولعله آخر افراد فصيلته. ومهما يكن من امر فان بعض الناس اتوا الى هذه المنارة قبل خمسة سنين، وثبتوا نفير الضباب، وبثوا صوته في الأجواء نحو مكان حيث تدفن نفسك في نوم ملؤه ذكريات البحر في عالم يوجد فيه الآلاف مثلك. ولكنك وحيد، وحيد في عالم لم يخلق لك، عالم عليك ان تختبىء فيه.

«ولكن صوت بوق الضباب يذهب ويؤوب، يذهب ويؤوب، وانت تنهض

Twitter: @ketab_n

من قعر المحيط الموحل وتتحرك، وتنفتح عيناك كعدسة آلة التصوير وقطرها قدمان، وتتحرك بطيئاً بطيئاً لأن ثقل البحر العظيم جاثم على كتفيك. ولكن صوت نفير الضباب ذاك يأتيك عبر الف ميل من المياه، واهياً معروفاً، فيتقد الاتون في احشائك ويشتعل، وعندئذ تبدأ في الارتفاع وئيداً، وئيداً.

«وها انت تقيت نفسك وتخمد شهيتك بالسمك الصغير والبقلة وعلى انهر من السمك الهلامي، واذا بك ترتفع في اشهر الخريف: في شهر ايلول عندما يبدأ الضباب، وفي شهر تشرين الأول عندما يزداد الضباب والنفير ولا يزال يناديك. وبعدئذ، في اواخر تشرين الثاني، وبعد ان تكون قد ضغطت نفسك يوماً بعد يوم، بضعة اقدام في ساعة، ترى نفسك قرب سطح المياه ما تزال حياً.

«ويتحتم عليك ان تتحرك ببطء، لأنك اذا طفت على المياه دفعة واحدة ستنفجر. وهكذا تنقضي عليك ثلاثة أشهر كاملة الى ان تطفو على سطح المياه، وبعد هذا تنقضي عدة ايام اخرى وانت تسبح في المياه الباردة حتى المنارة، وهكذا يا جوني ترى أخيراً هناك في ظلمة الليل اكبر وحش لعين في الخليقة، والمنارة هنا تناديه بعنق طويل كعنقه بارز فوق المياه مسافة مديدة، علاوة على جسم كجسمه، وأهم من ذلك، بصوت كصوته. افهمت الآن يا جوني، افهمت؟

واطلق نفير الضباب صوته.

فأجابه الوحش بصوت مماثل.

لقد شاهدت كل هذا، وعرفت المليون سنة من الانتظار وحيداً، انتظار رجوع من لم يرجع قبل ابداً، وتلمست المليون سنة من العزلة الموحشة في قعر البحر، وعتمة الزمن هناك، بينما انجابت السماء عن طيور زحافة، وجفت المستنقعات في اراضي القارات. فكان للحيوانات الهائلة الكسولة وللاسنان الضخمة الشبيهة بالسيوف السيادة على البسيطة ثم غرقت في حفر القطران، وركض البشر كالنمل الأبيض على التلال.

واطلق نفير الضباب صوته.

قال ماكدن: «في السنة الماضية اخذ الوحش يسبح ويدور ويدور ويدور طيلة

Twitter: @ketab_n

الليل وهو في حيرة، على ما اعتقد، لأنـه لم يقترب من المنـارة، ولربمـا كان خـائفاً، وغاضباً قليلاً بعد بجيئه كل هذه المسافة. ولكن في اليوم التالي انقشع الضباب على غير ما كان متوقعاً. وبانت الشمس منتعشة، والسماء زرقاء كلوحة زيتية. وذهب الوحش من شدة الحر والسكون ولم يرجع. ففي ظني انه كان طيلة هذه السنة يفكر في نفسه تفكيراً عميقاً ويقلب امره من جميع الوجوه.»

وغدا الوحش على بعد مئة ياردة الآن، وكان هو وبوق الضباب يصرخ الواحد منهما على الآخر. وكلما مست الأضواء عيني الوحش تنقلبان الى نارية فجليدية، نارية فجليدية.

قال ماكدن: «هاك الحياة على حقيقتها، هناك دوماً من ينتظر شخصاً لن يؤوب الى البيت ابداً. وهناك دوماً من يحب شيئاً اكثر مما يحبه ذلك الشيء، وبعد ردح من الزمن تعتلج به الرغبة الى تدمير ذلك الشيء مهما كان حتى لا يعود يستطيع ان يؤذيه اكثر.»

وكان الوحش يسرع نحو المنارة.

وصاح النفير.

وقال ماكدن: «دعنا نرى ماذا سيحدث.»

واقفل مفتاح النفير.

فغدت الدقيقة التي تلت ذلك متوترة حتى جعلنا نستطيع ان نسمع دقات قلبينا في الغرفة الزجاجية من القلعة، ونسمع ازيز دوران الضوء البطيء في محجره المزيت.

وتوقف الوحش وتجمد، ومقلتاه الواسعتان كمصباحين تـطرفان، ثم صـدرت من فمه الفاغر جمجمة كجمجمة البركان، واخذ رأسه ينتفض هنا وهناك بحركـات فجائية وكأنه يروم الصوت الذي تلاشى في الضباب. وثبت ناظريه على المنارة وجمجم مرة اخرى. ثم اتقدت عيناه كالنيران وشب ناهضاً على مؤخرته وهو يخبط المياه وهجم على القلعة وعيناه مليئتان بالعذاب والغضب.

وصحت: «اطلق النفير يا ماكدن!»

Twitter: @ketab_n

وراحت اصابع ماكدن تتحسس المفتاح، ولكن رغم اطلاق النفير كان الوحش لا يزال يمط نفسه متعالياً على مؤخرته، ثم لمحت مخلبيه الهائلين اللذين كان جلدهما كجلد السمك ويلتمع ما بين نتوءاتها الشبيهة بالأصابع لمعان نسيج العنكبوت وهو يوجهها نحو القلعة. وخيل إلي عندما برقت عينه الضخمة الكائنة على الجانب اليمين من رأسه المعذب انها دست كبيراً سأسقط فيه صارخاً. واهتزت القلعة وصاح نفير الضباب، وصاح الوحش، واطبق على القلعة يقضم الزجاج الذي تهشم وسقط علينا.

وقبض ماكدن على ذراعي وصاح: «الى الأسفل!»

وتأرجحت القلعة وارتجت وابتدأت تتداعى. وهدر النفير وهدر الوحش، وتعثرنا وكدنا نسقط ونحن ننزل الأدراج.

«اسرع!..»

وصلنا القعر عندما اخذت المنارة تهوي علينا. فزرقنا ونحن منحنيان تحت الأدراج ودخلنا القبو الحجري الصغير. ثم دوت الوف الارتجاجات والاصطدامات عندما انهالت الحجارة كالمطر. وتوقف النفير بغتة. ثم اطبق الوحش على المنارة فسقطت. فركعنا، انا وماكدن سوية، وامسك كل منا بتلابيب الآخر بينما كانت دنيانا تنفجر.

ثم انتهى كل شيء ولم يبق سوى الظلام والبحر وهو يغسل الحجارة والصخور.

ولكن كان هناك ثمة صوت آخر.

فقال ماكدن بهدوء: «اسمع! اسمع!»

وانتظرنا برهة. ثم جاءني اولاً صوت امتصاص هوائي عظيم، سمعت بعده نواح وحيرة وعزلة الوحش الهائل وهو قابع علينا، جاثم فوقنا، حتى ان رائحة بخار جسمه الكريهة عبق بها الهواء. ولم تكن سماكة جدران قبونا الحجري لتستطيع ان تقف دون بلوغها خياشيمنا. ولهث الوحش وصاح. وكانت المنارة قد غدت في خبر

Twitter: @ketab_n

كان، وكذلك الضوء، والشيء الذي كان يناديه عبر مليون سنة تلاشى ايضاً. وكان الوحش يفتح فمه ويطلق صيحات صاخبة، صيحات نفير الضباب مرة تلو المرة. وفكرت السفن البعيدة في البحر التي لم تر الضوء، ولم تر شيئاً، بل مرت متأخرة وسمعت الصيحات، قالت في نفسها: «ذلك هو الصوت الموحش، صوت نفير الضباب في الخليج المنعزل. كل شيء على ما يرام. لقد التففنا حول الرأس الصخري بسلام.»

وهكذا ظل حالنا بقية تلك الليلة.

وفي ظهيرة اليوم التالي كانت الشمس حارة صفراء عندما اتى اهل النجدة لينقذونا من قبونا تحت الانقاض.

وقال ماكدن بوقار ورصانة: «لقد تداعت المنارة، وهكذا كل ما هنالك، نطحتها بضع امواج وهوت.» وقرص ذراعي.

ولم يكن هناك شيء يمكن مشاهدته. البحر هادىء، والسماء زرقاء، غير ان رائحة طحلبية نتنة بقيت تفوح بكثافة من المادة الخضراء التي غطت الحجارة الساقطة وصخور الشاطىء. وكان الذباب يئز والمحيط يغسل الشاطىء دون جدوى.

وفي السنة التالية ابتنوا منارة جديدة، ولكن في اثناء ذلك كنت قد حصلت على عمل في البلدة الصغيرة، ولدي زوجة وبيت صغير دافىء يتوهج في ليالي الخريف، والباب مقفل، والمدخنة تنفث الدخان. اما ماكدن فقد كان سيد المنارة الجديدة التي بنيت بموجب مواصفاته من الاسمنت المسلح بالفولاذ، «احتياطاً» كما قال.

كانت المنارة الجديدة جاهزة في شهر تشرين الثاني. فسقت سيارتي وحيداً في ساعة متأخرة من احدى الأمسيات واوقفتها هناك والقيت نظرة عبر المياه الشهباء واصغيت الى النفير الجديد وهو يطلق صيحاته مرة، مرتين، ثلاثاً، اربعاً، كل دقيقة من تلقاء نفسه.

والوحش؟ لم يعد ابداً.

قال ماكدن: «لقد ذهب، ذهب بعيداً ورجع الى اعماق المحيط وتعلم انه لا

Twitter: @ketab_n

يستطيع ان يحب شيئاً حباً مفرطاً في هذه الدنيا. لقد ذهب الى اعمق المحيطات لينتظر هناك مليون سنة اخرى. مسكين! ينتظر، وينتظر هناك، بينما الانسان يأتي ويذهب على هذا الكوكب الصغير المثير للشفقة. ينتظر، وينتظر».

كنت جالساً في سيارتي وانا اصغي اليه. ولم يكن بوسعي ان ارى المنارة او الضوء ينير الخليج هناك. وإنما استطعت ان اسمع النفير، النفير، النفير، وكأنه صوت الوحش إذ ينادي.

وجلست هناك وانا اتمنى لو ان لدي ما استطيع ان اقوله.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

محتويات الكتاب

كلمة المترجم		٥
مياه في أعماق المدينة	راي برادبري	٧
قارع الأجراس	فلاديمير كورولنكو	١٧
الجرح الخفي	كارولي كسفلودي	٢٣
ذات ليلة	اميل فرهارت	٣١
الطيف المجسد	واشنطن أرفنغ	٣٧
ينبوع الشباب	ناثانييل هوثورن	٤٥
زوجها الذي هرب	آرثر موريسون	٥٧
نهاية الحبل	جون كولير	٦٥
الصقر	غوستاف هلستروم	٧٣
الحقل اللعين	كارل تشابك	٨١
الحلم	لوسيوس ابيوليوس	٨٩
مقبض السيف الفضي	فيرنك مولنار	٩٥
المليونير	الكسندر كوبرين	١٠١
سايكي	الكسندر كوبرين	١٠٩
الفراش	هانس كريستيان اندرسن	١٢٧
الحلم الأخير	هانس كريستيان اندرسن	١٣١
الحمار والأرنبة	ثيودور بويس	١٣٧

Twitter: @ketab_n

الغابة المظلمة	سيرجي مكسيموف	١٤٥
خلاص رهيب	جاك لندن	١٥٧
سبات بين الثلوج	جاك لندن	•١٧١
القتيل في الغاب	رينوسوكي اكوتاكاوا	١٨٣ •
وداعاً يا كورديرا	ليوبولدو آلاس	•١٩٣
محار	انطون تشيخوف	٢٠١
سارق الحصان	ارسكن كولدويل	٢٠٧
السيدة الأنوف	لزلي بونيت	٢١٥
ودقت الساعة الثانية عشرة	جيمز هلفيك	٢٢٧ •
المنبوذون	بريت هارت	٢٣٥
فيبة الضائعة	ثيودور درايسر	•٢٤٧
البركة الشريرة	هيوولبول	٢٦٥
نفير البحر	راي برادبري	٢٨١

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مياه في أعماق المدينة

كل قصة في هذا الكتاب درّة متميزة، نقلها المترجم بشغف خاص في أثناء رحلته الطويلة الممتعة مع الفن القصصي في العالم على مدى أربعين عاماً من الزمن. وقد تجمّع لديه عدد كبير منها نشره في مجلات عدة في أوقات متفاوتة، إلى أن قرّر جمعها في مجلد واحد. فاختار ثلاثين قصة يرى فيها خلاصةً لبعض من أروع ما جادت به قرائح القصاصين في آداب الأمم الأخرى وجعلها في هذا الكتاب.

المؤسّسة العربيّة
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً موكيالي بيروت - ص.ب. ٥٤٦٠-١١ بيروت

الث … ل